كمال خليل

حكايات من زمن فات

سيرة ذاتية من خلال الأحداث



اسم الكتاب:
حكايت من زمن فات
اسم المؤلف:
كمال خليل

الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع

رقم الإيداع:
١٩٨٤٣ /٢٠١٢

تصميم الغلاف: آلاء شاكر.

الطبعة الأولى لبيت الياسمين ٢٠١٢.

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
٥٣ ش خيرت - الدور الثانى شقة(٣)
ميدان لاظوغلى - عابدين- القاهرة -
جمهورية مصر العربية.

البريد الالكترونى:
Baitelyasmin@yahoo.com
ziadibrahim_2008@yahoo.com

تليفون:-
(+202) 27949885
(+202) 0111 00 94 62 5

تمهيد

أكتب عن موطنى الأصلى.عن حى الدقى القديم (داير الناحية).عن حارة سيدى الأربعين. أكتب عن شلوفة وأحمد غريب وبحبح وشاكر وسمير ومحروس بدر وغيرهم. وأتحدث عن الدكتور محمد أنيس (أستاذ التاريخ) ذلك القمر الذى غاب عن عالمنا. ذلك الرجل الذى علمنا السياسة بأجمل صورها وأرقى معانيها. أكتب عن نسيج شعبى متكامل وتجربة عمل سياسى أستمرت بين أعوام (١٩٦٩-١٩٨٠). تجربة بين الحى والجامعة.بين الوعى والممارسة. بين السياسة والتنظيم. تعالوا نشوف ما حدث لأولاد الحارة.

البدايـــــة:

سجن القناطر عام ١٩٧٣

كان أخى العزيز الشاعر و المناضل محمد سيف، يهز جدران الزنزانة بصوته الرقيق:

فى الحاره دى إن مات راجل يتهد بيت.
يتعودوا الأطفال م الصغر الشقا. يتعودوا.
يتعودوا يقفوا قدام بيبان الورش يستجدوا.
يتعودوا يجروا قصاد المخبرين.
ويخافوا إن مروا قدام الأقسـام.

فى عام ١٩٦٩، وفى حارة النبايعة بحى داير الناحية بالدقى، وفى حجرة صغيرة لاتتعدى مساحتها ٢×٣م. وقف الأطفال الثلاثة والذى لايتعدى عمر أكبرهم ست سنوات، يلفون ويدورون حول جثة أبيهم البالغ من العمر حوالى خمسين عاما !! لم يدرك الأطفال الثلاثة أن أباهمم قد مات. ولم يكن هؤلاء الأطفال يعرفون ما معنى الموت؟ وأى مصير ينتظرهم؟! وقفوا ببراءة الأطفال يهزون فى جثة أبيهم كى يستيقظ من النوم !!

أما الأم فكانت قد رحلت إلى العالم الآخر منذ أعوام. فلم تكن هناك

سعدية الحورية الباكية خلف النعش تشكو المأساة والرحيل،ولم يكن الأطفال يعرفون معنى كلمات الشاعر(محمد سيف)،فى الحارة دى إن مات راجل يتهد بيت. فما بالك، وإن كان الأب والأم قد رحلا. أى خراب سيحل بهذا البيت؟

هؤلاء الأطفال الثلاثة، براعم الفقر والموت، لن يستطيعوا حتى أن يقفوا أمام بيبان الورش يستجدوا.

مع هذا المشهد المأسوي تجمع شباب الحى لا يدرون ماذا يفعلون؟

أشار عليهم أحد عواجيز الحى بأن يقوموا بعدل جثمان الرجل حتى يكون فى مواجهة القبلة (إتجاه الصلاة). حاولوا عدل الجثمان فى الإتجاه المراد ففشلوا. حاولوا ثانية ففشلوا. وتكررت المحاولة والفشل لأن مساحة الغرفة والكراكيب بداخلها لاتسمح بأى إمكانية للحركة. الفقر لا يرحم المواطن حتى بعد موته.

قام الشباب بجمع قروشهم القليلة. وقروش أبناء الحى الفقير. واشتروا كفنا رخيصا للرجل. دفنوه فى الصباح. وأقاموا له مراسم العزاء فى المساء فى(حدود ما تسمح به الإمكانيات).

حرصوا على إنفاق أقل ما يمكن فى الدفن وفى مراسم العزاء لادخار أكبر مبلغ ممكن للأطفال الثلاثة.

قد يكون الدافع الإنسانى التلقائى هو الذى حرك هؤلاء الشباب بشكل أساسى.قد يكون الدافع الدينى من أجل اكتساب (حسنة) تتضاعف بعشرة أمثالها وتقربهم إلى الله وتجعل لهم موطء قدم فى الجنة. قد يكون الدافع السياسى هو المحرك من أجل اكتساب جماهيرية بالحى. وقد يكون الدافع دافعا تضامنيا (تضامن الفقراء مع بعضهم من أجل مواجهة كارثة الموت).

فى ذلك الوقت لم يكن الدافع محدداً. كان خليطا من كل ذلك. ولم تكن

المجموعة متجانسة. بعضهم تحرك بالدافع الإنسانى. والبعض بالدافع الدينى. والبعض بالدافع السياسى. والبعض بالدافع التضامنى. لكن الشئ المؤكد هو أن ذلك الحدث كان نقطة البداية لهذه المجموعة.بداية الإحساس بأهمية العمل الجماعى. بداية اكتشاف المحيط الإجتماعى.

ونظرا لأن هذه المجموعة (فى بدايتها) لم تكن مجموعة ذات هوية سياسية محددة، ولم تكن ذات ميول ثقافية وفكرية، بل مجموعة من المتعلمين لأبناء حى شعبى فقير يحاط بأحياء الأغنياء (المساحة- العجوزة- المهندسين – نادى الصيد- الزمالك). أحياء (ولاد الذوات) كما كنا نسميهم. فكان من الطبيعى أن يكون العمل الإجتماعى هو نقطة البداية ونقطة الانطلاق. وكان من الطبيعى أن تولد وتخلق بيئة الحى الفقير المحاطة بأحياء الأغنياء حسا طبقيا لدى هؤلاء الشباب. حسا فطريا ينمو ويتغذى بالتناقض الطبقى الصارخ بين أحياء الفقراء وأحياء الأغنياء. ومع الفقر والبؤس تنمو الكوميديا أيضا.

شلوفة بائس من بؤساء حينا. يسكن عشة من الصفيح هووزوجته وأربعة أطفال. المهنة سمكرى لبواجير الجاز والرزق علي الله. يرتبط بعدد بواجير الجاز في حينا ! الإقامة عشة على الحدود المتاخمة لعمارات الأوقاف العالية بشارع الدقي.

في يوم ما إشتري أحد الموظفين الكبار.

والذي يسكن بعمارة الأوقاف، ديكا روميا ووضعه بالبلكونة ليذبحه فى الصباح. فى الفجر طار الديك الرومى (ديك الأغنياء) من العمارة العالية فوق عشة شلوفة. ولما استيقظ شلوفة على أثر ارتطام الديك بسقف العشة لاستطلاع الأمر وجد الديك الرومي فخيما هبط عليه من السماء. لم يترك شلوفة الفرصة تضيع منه. على الفور أحضر السكين وذبح الديك، وظل لمدة

ثلاثة أيام متواصلة يأكل هو وأطفاله وزوجته فى ديك الأغنياء الهابط من السماء. فى مغرب اليوم الرابع رأى الجالسين على المقهى فى الحى المجاور لعشة شلوفة موظفا متأنقا غريبا عن الحى يسأل عن ديك رومي فقده منذ ثلاثة أيام. فى هذه اللحظات كان شلوفة صامتا لايتكلم، حتى وخزه ضميره فقال للرجل:

- استنى يا سعادة البيه.

واختفى داخل العشة ثم عاد حاملا مخدة تمت حياكتها بعناية فائقة. واستطرد شلوفة قائلا:

ـ المخدة دى يابيه من حقك. أصل أنا من يومين لقيت الديك الرومى. ولفيت الحى كله أسأل عن صاحبه ومالقيتش حد، فدبحته وأكلته أنا والأولاد.

نظر الموظف إلى شلوفة بغيظ شديد ثم أخذ يقلب المخدة بين يديه وتساءل:

ـ طب إيه علاقة المخدة بالديك الرومى؟

هنا أجاب شلوفة بطلاقة شديدة:

ـ أصل أنا يابيه أخدت ريش الديك وعملت منه المخدة دهيه. ومادام الديك ظهر له صاحب تبقى المخدة دى من حقك. خد يابيه المخدة. أنا ما أقبلش حاجه حرام على عيالى.

هنا ضج الجميع بالضحك بما فيهم صاحب الديك نفسه، الذى خرج من الحى مغتاظا يجر وراءه أذيال الفشل فى العثور على الديك !!!

الكوميديا قد حلت التناقض الطبقى لصالح شلوفة. حتى المخدة أخذت تتطاير وسط صيحات وضحكات الحاضرين. وتتلقفها الأيادى تم تهاوت إلى داخل العشة. (فالمخدة لمن يصنعها).

ظلت قصة شلوفة مع المخدة والديك تنتقل من حارة إلى حارة، ومن عطفة

إلى عطفة، ومن قهوة إلى قهوة.. وأصبح الديك والمخدة وشلوفة قصة الحى لأسابيع طويلة.

لم يقل أحد فى الحى أن شلوفة لص. لأنهم كانوا يعرفون مدى حالة البؤس التى يحياها. الجميع تعاطف مع شلوفة. أما الموظف فقالوا (ربنا يعوض عليه والله رجل طيب). بينما شلوفة قد ظل لعدة أيام فى حالة حذر شديد ويتوقع قدوم الشرطة للقبض عليه.

كانت القصة السابقة نموذجا لكوميديا الأحياء المتجاورة والمتناقضة. كوميديا تجاور البؤس والثراء.

أما تراجيديا البؤس فكانت لها قصصها الممتدة داخل الحى.

كانت المجارى والصرف الصحى بالحى تسير فى الشارع الدائرى الرئيسى الذى يحتضن الحى،أما الحواري والأزقة الجانبية فكانت بلا صرف صحى. كان ميسورو الحال نسبيا فى هذه الحوراى يقومون بعمل ترنش (خزان أرضى) أمام المنزل تتجمع فيه مياه الصرف، و تأتى عربة كارو مجهزة بخزان لتكسح مياه الترنش كل شهرين أو ثلاثة. ولاأدرى لماذا كنا أيام الطفولة نسير ببهجة شديدة وسعادة غامرة وراء هذه العربة كلما جاءت لتؤدى مهمتها هاتفين (عربية الخره جت جت..عربية الخره جت جت). يبدو إننا كأطفال كنا نحتفل ببؤسنا!!!!. (وقفة احتجاجية!!!)

أما أصحاب المنازل غير القادرين على تكاليف إقامة « الترنش» وتكاليف نزحه. فكانوا يخزنون مياه الصرف الصحى فى براميل بالدور الأرضى،وتقوم سيدات المنزل بتعبئة هذه البراميل فى صفائح، ويسرن مسافات طويلة لإلقائها فى بلاعة خارج الحى !!

الترنشات وعربات كسح المجارى وصفائح المياه القذرة فوق رؤوس سيدات وبنات الحي، كانت جميعا مظاهر للبؤس فى حينا فأين التراجيديا؟

تجلت تراجيديا البؤس فى حارتنا (حارة سيدى الأربعين) مرتين. مرة مع الإنسان و مرة مع الحيوان.

أما تراجيديا الإنسان: فكانت مع طفل لا يتعدى عمره العاشرة، والطفل هو إبن (أم معوض) وأم معوض هى زوجة (على بائع الكرات والجرجير بالحى)

كان الطفل يمرح ويلعب فى الحارة الضيقة، وفجأة سقط فى أحد الترنشات التى يتم كسحها!!! أى موت؟! وأى إغتيال للطفولة داخل هذا الحى !!!

بشاعة الموت وجثة الطفل الملطخة بالأوحال، وبكاء وعويل الأم، ورؤوس الشباب والرجال المنكسة فى الأرض والأوحال. والخوف فى عيون الأمهات من المصير الذى ينتظر أطفالهن. كل ذلك كان يعبر عن تراجيديا قاسية مع الإنسان. وللأسف الشديد لم تكن تلك التراجيديا فوق شاشة السينما أو خشبة المسرح، وإنما كانت فوق تراب حارة سيدى الأربعين.

أما التراجيديا الثانية فوق تراب الحارة فكانت مع (إبراهيم). وإبراهيم لم يكن إنسانا.

إبراهيم حيوان.إبراهيم هو حمار المواطن(أحمد حَمْد) صاحب العقار رقم (١٧) بحارة سيدى الأربعين.

كان إبراهيم هو الساعد الأيمن لأحمد حمد، والذى يجر له عربته الكارو ومصدر رزق أطفاله. كان إبراهيم لايقل أهمية عن أى طفل من أطفال أحمد حمد. سقط إبراهيم أيضا فى احد الترنشات أثناء كسحها. لقى نفس المصير. فى قاع البؤس لافرق بين الأطفال والحمير(فكل نفس ذائقة الموت ولو بعد حين).

كانت محاولة إنقاذ إبراهيم من قبل رجال ونساء الحى معركة حربية، لم يكن ينقصها سوى كاميرا «صلاح أبو سيف» مخرج الواقعية المصرية. معركة

بدأت بصراخ أحمد حمد وانتهت بإستشهاد إبراهيم الذى ودعه أحد شباب الحى بقوله: إلى جنه الخلد يا إبراهيم.

وإذا عدنا إلى مجموعة الشباب بالحى التى كانت من طلاب الجامعة والمدارس الثانوية والحرفيين،والتى عاشت وعايشت منذ الطفولة أحداث كوميديا التناقض بين الأغنياء والفقراء و تراجيديا البؤس(والتى يحتاج قصها وسردها إلى مجلدات كاملة)، كان من الطبيعى أن يكون العمل الإجتماعى هو نقطة البداية والإنطلاق لها. وكان من الطبيعى أيضا أن يكون الحس الطبقى المنحاز للفقراء هو المحرك الأول والأساسي وراء هذا التجمع الشبابى. حسا طبقيا لايرتكز على الوعى الطبقى. حسا طبقيا كان يفتقدالوعى و الهوية السياسية. وحسا وطنيا كان يهز وجدان وضمير كل مواطن فى هذا البلد بعد هزيمة١٩٦٧. فشباب هذا الحى الشعبى.

لم تكن مرارة الهزيمة فقط هى مصدر حسه الوطنى. بل كانت أيضا دماء شهدائه (محمد سيد، أحمدعطية،سعيد محمدى... الخ رفاق الطفولة ورفاق القهوة ورفاق الحارة الواحدة ورفاق البؤس هي مصدر إلهامه. كانت دماءاً تمزج الحس الطبقى بالحس الوطنى. وكان نصف شباب الحى تقريبا مقاتلين على الجبهة فى حرب الاستنزاف.

(وأنا الذى لم أذق طعم الضـــأن من قبل.أدعى إلى الموت ولم أدعَ إلى المجالسة) رحمك الله يا أمل يادنقل يامن كنت تحس بوجيعة الفقراء.

محمد سيد إبراهيم:

شهيد سيناء عام ١٩٦٧، تعلم حتى الإبتدائية ثم خرج لميدان العمل المأجور. كان الساعد الأيمن لأبيه فى إعالة جيش جرار من الأطفال. أخر مشهد رآه فيه أبناء حيه، كان جثة مشوهة بالنابالم فى صحراء سيناء.

النقيب أحمد عطية:

شهيد حينا فى حرب الاستنزاف. كانت الفرحة تملأنا داخل الحى بعد تخرجه من الكلية الحربية.كان أول شاب فى داير الناحية يتخرج من الكلية الحربية. حتى بعد تخرجه كان يلعب معنا الكرة الشراب بجوار مدرسة المدينة الجامعية. كان قلبه أطيب من الطيابة. لم يكن بشخصيته أى إستعلاء أوغرور الضباط. كان فخورا دائما بأنه ابن داير الناحية. كما كنا فخورين به جميعا. كنا نودعه على قهوة السرساوى فى نهاية كل أجازة. إستقبلنا نبأ استشهاده على الجبهة بحزن شديد. لقد فقد الحى أول ضابط يخرج من بين صفوفه.

سعيد محمدى:

شهيد حينا فى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣. إبن حارة الريباينة. خريج معهد التربية الرياضية. كان يضحك دائما ويهرج بشدة. وحينما كنا نطلب منه أن يكف عن التهريج كان يقول:(أصل أنا بهرج مخدرات). كان لديه جملة واحدة يغازل بها كل فتاة يعجب بها: ((إيه ده.. اللى أعرفه إن الملايكه بتبقى فى السماء.. إيه اللى نزل سيادتك على الأرض))

سعيد محمدى أول من قام بعمل ترابيزة «بنج بونج» لشباب الحى بدءاَ من أعمال النجارة لأعمال المعجون لأعمال الدهانات. صممها وصنعها بيديه. كان نجارا وسباكا ونقاشا ماهرا علاوة على كونه طالبا بمعهد التربية الرياضية. إستشهد بدانة تفريغ هواء فى حرب أكتوبر. وحينما ذهب ابن حينا «سمير الشربينى» لاستلام جثة سعيد مع والده، كان الجثمان سليما تماما وقال لنا سمير: لم يخلُ وجه سعيد إلا من الإبتسامة المشرقة.

محمد سيد، وأحمد عطية، وسعيد محمدى وغيرهم كانوا ومازالوا جروحاً تدمى القلب. نضع رؤوسنا فى الأرض كلما شاهدنا أخ أو أخت أو أب لهم. و منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٣ لم يكن هناك بيت واحد من بيوت حينا - شأن كل أحياء وقرى الفقراء - يخلو من مقاتل على الجبهة يأتى كل شهر

فى أجازة قصيرة. نستقبله استقبال الأبطال وتودعه أمه بشنطة صغيرة من الطعام تتواضع محتوياتها مثل تواضع بيوتنا.

كانت قصيدة « أولاد الحارة» تأليف(خلاصة كبد الحوت) وتلحين (محروس بدر) وغناء (سيد قمر) وكلهم من أبناء الحى ، كانت تعبيرا حقيقيا عن التقاء الحس الطبقى بالحس الوطنى لأبناء الحارة. وكان سيد قمر يشدو بصوته الجميل، وكنا نحن الكورس نغنى خلفه:

إحنا أولاد الحـــــارة
ولا ابونا عنده عمــــاره
دا ابونا من الشـــغيله
في البيت وعياله كتيـــره
وأخوناجنـدى سـهران
ع المدفع فى المـيدان
كلنا فى الهم غـــلابة
مش لاقى لحيرتى إجــابة
أنا بكره ها سيب الحـارة
وها اروح أسكن ف عماره
وها أقول يامـبادئى وداع
يامبادئ الواحـد جــاع
وها اجيب شـــيفورليه
ولا هاســأل ولا أقول ليه
آه يا حارتى الغالية
أنا راجــع لجل العيلة
وها اغنى للشـــغيلة

أنا ها أعمل حاجــه كبيرة

واحنــــا أولاد الحـــاره

بالفول بالعدس هنكمل المشـــوار

كنا نغنى بصدق وشفافية شديدة. كانت الكلمات والألحان تنبع من بؤسنا، وبؤس حالة حينا الفقير. وكان سيد قمر بعد انتهاء الغناء يتوجه لى قائلا بصوت عالٍ:

- ياخلاصة كبد الحوت والله بكره لتسيب الحارة، وآدى دقنى أهية إن ما رحت سكنت فى عماره وقلت يا مبادئى وداع وجبت شيفورليه.

ويضحك الجميع ولاتدرى مجموعة الشباب إلى أين تسير الأيام !! ويخرج علينا محروس بدر((كروان حينا)) وسنباطى حارتنا بمطلع قصيدة أخى وصديقى عبده مصطفىطالب كلية الهندسة:

يا ليل... يا ليل... يا ليل

يابـو الغلابة ياليل

يا شارب مـعايا الهم مـلو الكـيل

ياعــالم بــحالى

وانا اللى راح منى الحيل

يـارب دى حـــكمتك

وانـــت اللى خــالقـنى

فيقاطعه محمد بلاص المنجّد والمطرب العاطفى للحى وزينة شبابه، والذى كان يلحن الأشعار فوق القوس الذى ينجد به المراتب وينظف به قطن

التنجيد:

- ياعالم كفاية الهم اللى احنا شاربينه. فيه حد بذمتكم يغنى للهم؟ عايزين نغنى للحب.

ويجبرنا على السكوت ثم ينطلق بصوته الجميل والذى لم يتأثر يوما ما بغبار القطن:

راجـــع ليـه تـانى تـفكرنـى
باللى نســيته بـقالى زمـــان
لســـه غرامــك هايــسهرنى
لســـه ها أقاسى معــاك حرمان
لايـا حبيبى... لا... لايـا حبيبى

نحن حى كما عاش كوميديا وتراجيديا البؤس فإنه عاش أيضا كوميديا الحرب. نحن حى يعشق المظاهرات ويعشق النكتة ويعشق فن الحبكة المسرحي. تعالوا معا نشاهد كوميديا الحرب فى حينا:

تبدأ القصة والحبكة المسرحية من داخل محل (موهوب وسلامه) لصاحبه سلامة الكهربائى، والمحل مجاور وفى مواجهة محل(على سعيد) صاحب أقدم وأعرق محل لاستصلاح وتأجير الدراجات..

تبدأ المؤامرة أو الحبكة المسرحية بورقة فى الليل يعدها سلامة الكهربائى ويعلقها على باب دكان على سعيد. ورقة نصها:

«البقاء للـــــــه
المـــــحل مـغلق اليـــوم
لوفاة صـــاحبه الحـــاج علـــى ســـعيد»

ويذهب سلامة الكهربائى لعبد الجواد حانوتى الحى، ويعطيه مبلغ نصف جنيه كى يلف على جميع حوارى الحى بطبلته الشهيرة ليعلن وفاة على

سعيد. يخرج عبد الجواد فى الصباح الباكر ويقرع طبلته معلنا وفاة على سعيد. وبعد أن تم إعلان الوفاة فى جميع أنحاء الحى تقريبا كان هول المفاجأة، إذ وقف عبد الجواد أسفل منزل على سعيد مناديا:

«الحاضر يقول للغائب. الحاج على سعيد مات. والجنازة الساعة ١٢ الظهر من جامع فلفل».

كان على سعيد نائما على كنبة أسفل الشباك بالدور الأول. ولما أفاق من نومه على صوت الطبلة، أطل برأسه من الشباك متسائلا مين اللى مات ياعبد الجواد؟ فنظر عبد الجواد إلى أعلي قائلا:

- على سعيد والجنازة من جامع فلفل.

ولما دقق النظر وجد أن المطل من النافذة هو على سعيد بشحمه ولحمه، فما كان منه إلا أن أطلق قدميه للريح، وعلى سعيد من النافذة يسبه ويلعنه ويلعن أبوه. قام جميع أهالى الحى من النوم، وقد انتشر نبأ وفاة على سعيد فى جميع الحوراى !!!

لم تقف حدود الحبكة المسرحية عند هذا الحد. لم تقف عند حدود إشاعة خبر كاذب بوفاة (على سعيد). لم يكن ذلك إلا الفصل الأول من المسرحية.

أما الفصل الثانى وكان أيضا من إعداد وتأليف سلامة الكهربائى،حيث أنه كان قد جمع خمسين طفلا من الحى،وأعدهم إعدادا جيدا للفصل الثانى من المسرحية، وفى تمام الساعة الثانية عشر ظهرا، تمام الموعد الوهمي للجنازة، سارت مظاهرة الأطفال الحاشدة فى الحى تهتف:

«متصدقش.. متصدقش. على سعيد لسه مامتش.. ما تشمتش ياديان على سعيد فى الدكان..على سعيد فالميدان».

والمقصود بديان طبعاً موشيه ديان وزير الدفاع الإسرائيلي.

أحمد غريب..

كان مقاتلا حقيقيا على الجبهة. مقاتلا وسط الدانات والبارود. يأتى فى أجازته ويجلس على القهوة. يظل صامتا لفترة ما. ولايتكلم إلا بعد أن ننكشه فى الكلام. يقول أحدنا:

- هو إيه اللى حصل فى معركة رأس العش يا أبو غريب؟

فيلتفت يمينا ويسارا، ويبدأ الكلام بجملته الشهيرة:

- ياجماعة دى أسرار حربيه. ماتضغطوش علئ أنا موقفى حساس.

وقبل أن نضغط عليه يسترسل فى الحديث ويصف لنا معركة حربية دقيقة شاملة. الخطة وتوزيع القوات وكيفية الهجوم والتمويه على العدو وخداعه.

لايستطيع أبرع مخرج سينمائى أن يصور مشاهد القتال كما كان يصورها لنا (أحمد غريب). فى المرة الأولى (ومن دقة الوصف وروعته والمصطلحات باللغة العسكرية) صدقنا أن أحمد غريب هو القائد الفعلى لمعركة رأس العش. وفى المرة الثانية كان أيضا أحمد غريب هو القائد الفعلى لمعركة شدوان. والثالثة كان أيضا أحمد غريب هو القائد الفعلى لمنظمة تحرير سيناء. والرابعة سر أذاعه أحمد غريب وطلب منا ألا نذيعه، وكان مضمون السر أن أحمد غريب أيضا هو الذى دمر المدمرة إيلات!.

صدقنا فى المرة الأولى. وضحكنا فى الثانية. وفى الثالثة والرابعة..

والغريب فى أحمد غريب أنه كان يقابل ضحكنا بصمت وتعجب شديدين، ويظل يسترسل فى الرواية. ومن حلاوة القصة وروعة التصوير الفنى للمعركة العسكرية كان يجبرنا لمدة ربع ساعةعلى الصمت. ثم ننفجر فى الضحك. فى النهاية لم نكن نملك إلا أن نسمعه. وفى أحيان كثيرة كان يستطيع أحمد غريب أن يوقعنا فى حيرة من أمرنا، ونظل نفكر ونتحقق من روايته. هل هو صادق؟ هل يفشر؟ حتي جاء (أحمد غريب) ذات يوم وبعد حرب أكتوبر بأجمل حلقات كوميديا الحرب فى حينا. كنا على القهوة نتحدث عن الثغرة

وحصار الجيش الثالث داخل سيناء وإقالة سعد الدين الشاذلى رئيس الأركان ووقف القتال. ظل أحمد غريب صامتا كعادته وفجأة إنطلق.

لم يبدأ الحديث بجملته المعتادة (ياجماعة دى أسرار عسـكرية) فقد كان يعلم بفطرته أن الحرب انتهت ولم تعد هناك أسرار ولايحزنون. هتف أحمد غريب قائلا:

- عارفين الثغرة حصلت ازاى؟

وضرب بكفه فوق الترابيزة وبدأ قصته الطويلة. بداية من توزيع القوات والمهام ومواقع العدو والفصل بين الجيش الثانى والثالث فى منطقة البحيرات المرة واسـترسـل فى الشرح.

- الكلام اللى أنا ها أقوله ده على مسئوليتى وربنا شاهد. قبل الثغرة بيوم واحد إستدعانى سعد الدين الشاذلى، وناقشنى فى أوضاع القوات، وأطلعنى على خططه القتالية،وتكتيكاته فى المعركة، وطلب منى أن أقول رأيى بصراحة ووضوح!! فجلست لمدة ربع ساعة أفكر فيما قاله سعد الدين الشاذلى، وفى النهاية رفضت خطته لأنه كان فيها العديد من الثغرات.

وأخذ بلغة جميلة وشيقة يوضح لنا أين كانت الثغرات فى خطة سعد الدين الشاذلى.

- لقد قمت بوضع خطة بديلة تتعارض جذريا مع خطة سعد الدين الشاذلى، وفى نهاية الأمر رفض سعد الدين الشاذلى خطتى!! ولما حاولت مناقشته وإقناعه أنهى النقاش بقوله: عسكرى أحمد غريب نفذ الأوامر العسكرية. وطبعا أتنفذت خطه سعد الدين الشاذلى، وايش جاب العسكرى المتطوع أحمد غريب جنب رئيس الأركان سعد الدين الشاذلى؟!! بلد وسخة. بلد شهادات. ولما حصلت الثغرة واتحاصر الجيش الثالث،وبعد ما حصل اللى حصل وقف سعد الدين الشاذلى يزعق على الجبهة بأعلى صوته،أنا اللى

أستاهل. أنا اللى أستاهل. أنا اللى ما سمعتش كلام أحمد غريب.

وعندما وصل إلى هذه الجملة ضج الجميع بالضحك.

وكانت تلك المرة الأولى التى يضحك معنا فيها أحمد غريب. إختتم الحديث بكلماته:

- قوموا روحوا ياولاد الكلب الحرب انتهت. حرب أكتوبر آخر الحروب. يعني كان هيحصل ايه لو سمعوا مرة واحدة كلام أحمد غريب..

وغادر أحمد غريب (البطل الحقيقى لكوميديا الحرب) القهوة يضرب كفا على كف.

بنهاية الحرب كف أحمد غريب عن روايات كوميديا الحرب، وانتقلنا لروايات كوميديا السلام. وتوالت علينا تصريحات وخطب لأنور السادات عن قصة عزل سعد الدين الشاذلى. كما توالت علينا كتابات محمد حسنين هيكل، وفى كل مرة كنا نسمع أو نقرأ أونناقش نضحك فى النهاية ونقول:

- يبدو أن أحمد غريب كان صادقا فى روايته الأخيرة. يستاهلوا علشان ما سمعوش كلام أحمد غريب. لكن على العموم. بالفـول والعـدس هنكمل المـشوار.وأجراس العودة لن تقرع. فالإصبع فى إسـت الشـعب.

فى مرة قابلت أحمد غريب، وبعد أن ظل يسـرد قصص وبطولات الماضى من ضرب المدمرة إيلات إنتهاء بالثغرة قلت له:

- ياأحمد ياغريب. الإصبع فى إست الشعب.

قال بسرعة بديهة:

- ليه حاسس بحاجه؟!!

وكانت تلك قفشة جملية من قفشات كوميديا السلام.

يسهل على المرء أن يرطن بالسياسة، وأن يثرثر بالحديث عن الطبقات والصراع الطبقى. وأن يتحذلق بكلمات الأمبرياليةوالبروليتاريا والعولمة

والعالم الثالث والمركز والأطراف وفائض القيمة والديالكتيك والنظرة الأحادية الجانب وطبيعة المرحلة وقضايا التكتيك والأستراتيجية والمسألة القومية والمسألة الزراعية... الخ

الكتب كثيرة فوق الرفوف، والكتب بمفردها لاتشكل وعيا طبقيا، والكتب بمفردها لاتخلق مناضلا سياسيا.

الممارسة هى الأم و المعرفة والوعى الثورى هو الأب. فأين كانت تقف مجموعة الشباب فى حينا من ذلك؟

فى الحقيقة وفى عام ١٩٦٩ كنا أيتاما بحق. بلا أب وبلا أم. بؤس الحى وفقره ومجاورته لأحياء الأغنياء زرع فينا حسا طبقيا.وحالة الحرب زرعت فينا حسا وطنيا. وحينما أنطلقنا للعمل وتشكلت فينا نقطة البداية سرنا فى طريق العمل الإجتماعى والخدمى. طريق الممارسة المشوهة. لاطريق الممارسة الثورية.كانت الممارسة مشوهة وكان(الوعى الثورى) غائبا لذا كنا أيتاما، لكن (الحس الوطنى الذى امتزج بالحس الطبقى) كان هو مصدر حمايتنا الحقيقية من أخطار الممارسة المشوهة. لقد كانت كوميديا وتراجيديا البؤس التى تدور حولنا،وكانت دماء شهداء حينا الممزوجة بكوميديا أحمد غريب، تشكل ملامح إنحيازنا الطبقى و الوطنى. والوجدان الطبقى لايمكن أن تخلقه الكتب مهما كانت ثوريتها. الكتب الثورية يمكن أن تؤثر فى الوعى السياسى، لكن الوعى الفاقد للوجدان الوطنى والطبقى هو وعي زائف. وعي سوف ينفرط تدريجيا داخل سجون النظام. وعي سوف يغادر عقل صاحبه مع أول إغراء بالصعود الطبقى. أى وجدان طبقى يتولد داخل المرء حين يرى طفلا من أطفال حارته يموت غرقا فى ترنش من القاذورات والمياه الضحلة؟ وأى وجدان طبقى يتولد داخل المرء وهو يعرف جيدا أن هذا المصير قد يواجه طفله فى الغد؟!! و أى وجدان طبقى يتولد داخل المرء حينما يشاهد جنديا

من الحى متورم القدمين ممزق الثياب عائدا مهزوما من المعركة كما حدث فى٦٧؟

السائرون على الأشواك يختلفون كثيرا عن القارئين عن الأشواك. والعائشون تحت خط الفقر يختلفون كثيرا عن من يكتبون عن خط الفقر.

أيضا ياعزيزى، وحتى لانقع فى نظرة أحادية الجانب (كما يقول المتحذلقون) أو بمعنى آخر وعلشان تكمل الصورة والأمور تبقى واضحة الجوانب (كما يقول أبناء الشعب) لازم نعرف أن الوجدان الطبقى إن لم يبحث عن وعيه الطبقى فإنه سرعان ما ينطفئ وسرعان ما يضل الطريق. وإذا كان(الرجالة من غير جواز زى الشبابيك من غير إزاز) كذلك ياعزيزى:

وعى من غيــر وجــدان

زى القفــة من غير ودان

ووجدان لايبحث عن الوعى

زى طالب الرزق من غير سعى

يعنــــى شــــحات

مجموعة الشباب أيتام حينا، مالكو الوجدان الوطنى والطبقى فاقدوا الوعى. كيف بدأ يتشكل وعيهم؟ وكيف بدءوا طريق البحث عن الوعى الغائب؟ وهل انتقلت ممارستهم المشوهة إلى الممارسة الثورية؟ إذن هيا إلى من تعلمنا منهم..

هؤلاء تعلمنا منهم

١-الدكتور محمد أنيس:

أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة.وفدي قديم.أعتقد أنه كان ينتمي للجناح اليساري في حزب الوفد (الطليعة الوفدية).كان يحدثنا عن الإشتراكية ودور المثقف الثورى تجاه الكادحين. كان (رحمه الله) يسكن فى شارع جابر بن حيان المجاور لحينا. إلتقى بجيفارا ثائر أمريكا اللاتينية حين زار القاهرة. ما أتذكره أن الدكتور أنيس كان ضد منهج حرب العصابات فى العمل الثورى. كان يتحد ث أمامنا عن الظروف الموضوعية ونضج العملية الثورية. وكنا نسمع كلماته بإعجاب شديد رغم أن عقولنا فى هذه الفترة كانت خاوية. أكن له الكثير من الإحترام، وأعترف بفضله علىّ فى دفعى للعمل الجماهيرى. وكان الرجل في عام ١٩٦٩ من أوائل البشر الذين حاولوا زرع بذور الوعى السياسى فى شباب حينا.

٢- عبد المنعم خليل:

أخى وأبى الأول. العامل وميكانيكى الديزل. خرج إلى سوق العمل مبكرا كى يعول أسرة من تسعة أفراد بعد وفاة الأب. نموذج فريد لمن يضحون فى صمت. حرم نفسه من التعليم من أجل أن يتعلم أخواته. ظل لسنوات طويلة يتحمل عبئ الإنفاق على أسرة من ١٦ فرد.أمه وأخواته الثمانية (٩أفراد) و

زوجته وأولاده السته(٧أفراد).

«من أجل الحرية والأشتراكية. أنتخبوا عبد المنعم خليل» كانت أول يافطة كتبتها فى عام ٦٢أو ٦٤ وأنا طفل على منزل «أحمد حِمد» صاحب الحمار الشهير. لم أكن أعرف ماهى الحرية؟ أو ما هى الإشتراكية؟ أشتريت باكو زهرة أزرق (بتاعة الغسيل). وأذبته فى قليل من الماء. وبفرشاة صغيرة وسلّم كتبت هذه العبارة. لإننى كنت وأنا طفل أسمع عبد المنعم خليل يتحدث عن الحرية والإشتراكية ومجانية التعليم وقناة السويس. لقد كان ومازال أبى الحنون. ولقد كان أيضا الأب الروحى لمجموعة حينا. نلجأ له وقت الشدائد نستعين بحنكته وخبرت. وحينما كانت تزداد نبرة تحريضنا فى المعارك الجماهيرية ويشتد عنفوان الشباب، كان يأتى لنا هامسا وبرقة شديدة (هدوا. هدوا اللعب شويه) وحينما كانت كلاب مباحث أمن الدولة تأتى فى الفجر وتعتقل البعض منا كان يقول دائما «ربنا يستر..»

عبد المنعم خليل كان صاحب النظرة الثاقبة فى أحداث١٥ مايو١٩٧١. نصحنا بعدم الإنحياز لأى طرف لأن الصراع الدائر صراع علوي، وصراع سلطة ليس لنا فيه ناقة ولاجمل.

لهموم الحياة، ولعدم قناعته بما يدور على الساحة السياسية، ابتعد عن العمل السياسى لكن السياسة ظلت تعيش فى وجدانه وفى ضميره. لم يحزن مواطن فوق تراب الوطن مثلما حزن عبد المنعم خليل حينما تم تدميرالجيش والشعب العراقى فى حرب الخليج الثانية.

٣-محمد خليل:

أخى وأبى الثانى. العامل وميكانيكى السيارات ومرشحنا العمالى فى المعارك البرلمانية عام ٧٦ و٧٩.

خرج مثل أخيه الأكبر عبد المنعم لسوق العمل وترك التعليم لإعالة الأسرة.

لكنه لم يتجه لميكانيكا الديزل. بل اتجه إلى ميكانيكا السيارات. كان من أمهر ميكانيكى الحى. بعد تحسن أحوال الأسرة ظل يعمل ميكانيكيا فى الصباح وطالبا فى المدارس المسائية. حصل على الإعدادية ثم الثانوية ثم بكالوريوس تجارة القاهرة. كان له التأثير الأكبر لدفع كثير من شباب الحى إلى العمل السياسى.ناصري لا يكن أى عداء للشيوعيين. كان ظهر الحماية الحقيقى لنا حين كنا نعتقل أو نكون مطاردين من أجهزة الأمن. تعرض لضغوط عديدة أثناء هروبنا من أجهزة الأمن(أثناء الحركة الطلابية). هددوه بالأعتقال إن لم يرشد عن أماكن اختفائنا. أحضر حقيبة ملابسه وقال لزوار الفجر:

- أنا جاهز للإعتقال.

كان يغضب بشدة حين نقول له (أن عبد الناصر قام بتصفية الحركة الشعبية) لكنه حينما أعتقل عام ١٩٧٥ وشاهد آثار ضرب الكرابيج على ظهر الرفيق والأب فوزىحبشى(آثار كرابيج الستينات) خرج من المعتقل متأثرا. وفى جلسة صفاء قال لنا:

- عندما شاهدت أثار الكرابيج على ظهر فوزى حبشى أدركت معنى حديثكم عن تصفية الحركة الشعبية.

إختلف معنا فى النقاش كثيرا. كنا نحتد معه فى النقاش وكان يحتد معنا. وكان احتداده عنيفا، لكنه فى النهاية كان يصفو وينظرإلينا بنظرات عاتبة (عتاب الأستاذ على تمرد تلاميذه عليه) كان ديمقراطيا معنا..

في حالات المد الجماهيرى و فى الشارع كان الأسطى محمد خليل من أعظم المحرضين الجماهيريين. لم أشاهد شخصا يحرض من أجل حق الإضراب للعمال وبلغة شعبية رائعة مثلما شاهدت محمد خليل يفعل ذلك فى المؤتمرات الجماهيرية عام ١٩٧٦..

وقفت له السلطة بالمرصاد وحالت دون وصوله إلى مجلس الشعب عام

٧٦،٧٩. فلو كان محمد خليل إنتهازيا لكان فعل فعلة أحد القيادين بحزب التجمع الذى أنضم للحزب الوطنى فى دائرة الدقى من أجل الحصول على مقعد البرلمان. كان بمثل هذا الفعل الإنتهازى يستطيع أن يجلس على كرسى البرلمان وبسهولة، لكن معاركه الانتخابية كانت معاركنا السياسية داخل الحي. وهذا الموقف - موقف المواجهة وعدم التنازل ورفض الخيانة من أجل مقعد تافه فى برلمان الدولة- هو وسام على صدر محمد خليل.

كان محمد خليل يمدنا بالكتب (أشعار الأبنودى). كتاب (الناس والعلم والمجتمع) ومذكرات جيفار... الخ.

ومحمد خليل الناصرى هو الوحيد فى حينا الذى كان يحتفظ بنسخة من كتاب الشيوعىطاهر عبد الحكيم (الأقدام العارية) والذى يروى بشاعة تعذيب النظام الناصرى للشيوعيين المصريين (١٩٥٩-١٩٦٤)داخل مكتبته. وكلما بدأنا نعمل مع أحد الشباب نذهب إلى محمد خليل نستعير منه كتاب الأقدام العارية. فيعطيه لنا قائلا: إشمعنى يعنى الأقدام العارية، علشان الزبون مايبقاش ناصرى. حسبى الله ونعم الوكيل. ويعطينا الكتاب.

٤-فريد عبد الكريم

أمين عام الإتحاد الإشتراكى بمحافظة الجيزة حتى ١٤ مايوعام ١٩٧١. وأصلب مناضل فى سجون السادات رفض تقديم أى التماس بالإفراج عنه طوال إعتقاله وطوال حياة السادات رغم المرض الشديد الذى كان يعتصره داخل السجن.

شاهدته أول مرة عام ١٩٧٠، وكنا نعرض فليما عن حرب فيتنام فى مدرسه الدقى الإعداديه المجاورة لحينا. بعد الفيلم أخذ يخطب فريد فى جموع الشباب والأهالى الذين حضروا الفيلم. كان خطيبا مفوها وموهوبا وكان صادقا فى كل كلماته وتعبيراته. كان يبكى وهو يخطب. جعل الحاضرين يبكون وهو يربط فى كلماته بين أطفال فيتنام وأطفال بحر البقر.

ظل فريد عبد الكريم داخل السجن منذ عام ١٩٧١ وحتى اغتيال السادات وقابله فى السجن الكثير من الطلاب المعتقلين. كنا نخرج من المعتقل وبعد عام نعود ثم نخرج ثم نعود وفريد داخل المعتقل صلبا شامخا. يستفسر منا عما يدور بالخارج. ويبعث إلينا بالطعام داخل الزنازين. كان ناصريا متقدما وصل إليه داخل السجن عام ١٩٧٥ برنامج (الحزب الشيوعىالمصرى). رفض فريد البرنامج باعتباره برنامجا يمينيا. وعندما قرأنا البرنامج كان رأينا فيه يتطابق مع رأى فريد عبدالكريم. وكان البرنامج غاية فى اليمينية والانتهازية والتشويش كعادة كافه البرامج والأراء للحزب الشيوعى المصرى. فريد عبد الكريم (وفى هذا الزمن التعيس) شخص يندر أن يوجد أمثاله فى الصلابة والنقاء وفى قبول التضحية بنكران الذات والتواضع الشديد. حين كان يبكى فريد وهو يخطب وتدمع عيناه ترى فى عينيه أنين أمة وجروح شـعب.

٥- عـادل آدم:

أمين عام منظمة الشباب حتى ١٤ مايو عام ١٩٧١. ظل فى سجون السادات ٥ سنوات صلبا وقويا كصلابة فريد عبد الكريم. مجلة الجماهير بمحافظة الجيزة كانت من ثمار عمله الهادئ والدؤوب. كان يحاضرنا فى محاضرات التثقيف عن تطور المجتمعات والمشاعة البدائية والمجتمع العبودى والإقطاعى والرأسمالى. تعاملنا معه فترات قصيرة لم نحس يوما ما أنه رجل سلطة. وقع لنا بإمضائه وموافقته على ظهر فرخ من الورق المقوى بتوقيع (يصرح بالنشر) وكان الفرخ خاليا. ولما سألنا ماهى محتويات المجلة؟ قلنا له إننا مازلنا نعد المقالات. إبتسم وفى هدوئه المعتاد قال: (والله باينكم هاتودونا فى داهية) وختم لنا ظهر المجلة الخالية بختم منظمة الشباب. خدعناه عن غير قصد وقمنا بإستغلال توقيعه (يصرح بالنشر) وملأنا مسطح المجلة بمقالات تهاجم الإتحاد الإشتراكى وتهاجم عبد الناصر ذاته. وحينما

قبض علينا وقف بشهامة الأخ الأكبر إلى جانبنا. رغم خداعنا له فإنه قام بحمايتنا من الإعتقال عام ١٩٧٠، وحتى حينما خرجنا من مبنى مباحث أمن الدولة بالجيزة لم ينهرنا ولم ينطق حتى ولوبكلمةعتاب (رحمك الله يا ابن آدم)

ألدكتور/ محمد أنيس، أستاذ التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة.

العامل / عبد المنعم خليل، ميكانيكى الديزل وأمين قسم الدقى بالإتحاد الإشتراكى حتى عام ٧١.

العامل / محمد خليل، ميكانيكى السيارات وأمين عام التنظيم بمنظمة الشباب حتى عام ٧١.

المحامى / فريد عبد الكريم، أمين الأتحاد الأشتراكى بمحافظة الجيزة حتى١٤مايو عام ٧١.

المهندس / عادل أدم، أمين منظمة الشباب بمحافظة الجيزة حتى١٤مايو عام ٧١.

هؤلاء جميعا كانوا بالنسبة لمجموعة الشباب بالحى المصادر والمنابع الأولى للوعى السياسى.

بالنسبة للكتور محمد أنيس فإن أول مرة شاهدته داخل حينا كان هو ومحمد خليل ومجموعة من شباب الحى يقطعون أحد أكوام القمامة بالحى بالفئوس والمقاطف. ولما عرفنى عليه محمد خليل سألنى: أنت فى كلية إيه؟ قلت: كلية الهندسة. فنظر إلى باشمئزاز وقال: إزاى المتعلمين والمثقفين فى الحى ينعزلوا عن مشاكل الجماهير ويعملوا فيها أفنديات؟ فوقفت أمامه حائرا أشعر بالخل من الرجل. إزاى دكتور الجامعة واقف فى قلب الحى ماسك الفاس يقطع أكوام القمامة مع إنه من خارج الحى و القمامة من صنع أيدينا !! وعلى الفور توجهت إلى أحد الفئوس وتوجهت للعمل مع

الآخرين فنادانى وقال لى:

- المسألة مش مسألة فأس ومقطف. المسألة مسألة وعى وارتباط المثقفين الثوريين بالجماهير الشعبية.

رجعت إلى الحيرة والصمت ثانية فقال لى:

- النهاردة الساعة ٦ مساءأ فيه ندوة على القهوة اللى جنب مكتب العمدة. تعالى احضرها. أكيد ها تستفيد.

قطعنا أكوام القمامة وحملتها عربات البلدية خارج الحى وأصبح المكان نظيفا. فى المساء وعلى القهوة تقابل جميع من اشتركوا فى العمل بالصباح وعدد آخر من جماهير الحى. جلس الدكتور محمد أنيس ومحمد خليل وعبد المنعم خليل وبدأت الندوة.. كان الدكتور أنيس يتحدث عن الإشتراكية والمثقفين والجماهير، وأن التاريخ مش حواديت. التاريخ صراع طبقات. وكمشيش. وحركة الفلاحين فى كشميش ضد الأقطاع. وجيفارا وماو.. وحركة الطلبة فى فرنسا عام ٦٨.

لاأستطيع أن أقول إننا قد فهمنا واستوعبنا جميع ما قاله، لكن تلك الندوة وغيرها من الندوات الإسبوعية التى كان يعقدها الكتور أنيس على قهاوى الحى المختلفة، كانت تفتح فى أذهاننا عناوين للموضوعات، وحينما كان يتكلم عن جيفارا مثلا نهز رؤوسنا ونتصنع الفهم.والحقيقة بالنسبة لى، فإننى لم أكن أعرف من هو جيفارا وكنت أخشى أن أسال فى الندوة من هو جيفارا؟ خوفا من أن أبدو جاهلآ أمام الدكتور أنيس. وأمام أبناء الحى. لكنى بعد الندوة سأ لت محمد خليل فأعطانى كتابا صغيرا (صدر عن دار الهلال) عن جيفارا. وكان ذلك أول كتاب قرأته له صلة بالسياسة، ومن الكتاب عرفت باتيستا ديكتاتور كوبا وفيدل كاسترو وراؤل كاسترو وجيفار وبوليفيا والأرجنتين. بعد الإنتهاء من قراءة الكتاب ظننت أننى أمتلكت ناصية الأمور.

ذهبت للندوة الأسبوعية لأول مرة غير خائف (ياواد هتخاف من إيه دا أنت بقيت عارف باتيستا وكاسترو وبوليفيا كمان).

فى الندوة كان الدكتور محمد أنيس يتحدث عن ماوتسي تونج، وأخذت أهز رأسى مصطعنا الفهم. خفت أيضا أن أسأل، ثم عدت لمحمد خليل فأعطانى كتابا صغيرا مثل قاموس الجيب وبه شريط صغير من القماش الأحمر وكان بعنوان مقتطفات من أقوال ماوتسي تونج..

كان الدكتور أنيس حريصا وبشكل يتسم بالذكاء الشديد على أن يجعل من كل يوم جمعة فى الأسبوع عملا فى الصباح(لقطع أكوام القمامة) وتثقيفا فى المساء على القهاوى فى شكل ندوة جماهيرية، واستعراضا للمشاكل الجماهيرية بالحى.. وكان هذا عاملا رئيسيا ساعد الدكتور أنيس فى نجاح خطة عمل. وكانت ندواته ندوات جماهيرية بحق يحضرها كل جمعة ما لايقل عن تسعين شابا من شباب الحى.

أما محمد وعبد المنعم خليل فقد نجحا فى تكتيل شباب الحى بدرجة عالية فى معسكرات المقاومة الشعبية عقب هزيمة ١٩٦٧.. لمدة ٦شهور تقريبا كان يخرج فوجا (كل فترة) لا يقل عن ٥٠شابا من الحى لتلقى تدريبات عسكرية لمدة أسبوع بالكلية الحربية أو مدرسة المشاة. كانت تأتى أتوبيسات كبيرة يركبها الشباب (فى السادسة صباحا) تذهب بنا إلى الكلية الحربية أو مدرسة المشاة، و لتعود بنا (فى الثامنة مساء) كنا نتدرب فيها بشكل جدى وشاق على استعمال السلاح، وكان التدريب يتم على أستعمال (البندقية الآلى أو الرشاش الخفيف أو مدفع الأربى جى). تكرار هذه الأفواج بأنتظام كان يخلق روحا جديدة بين شباب الحى، وينمى صداقات وعلاقات وثيقة بين الشباب. ظلت هذه الأفواج تخرج من الحى وعلى فترات متباعدة منذ يونيو ١٩٦٧ إلى أوائل عام ١٩٦٨. ثم بعد ذلك تقريبا أندثرت لجان المقاومة الشعبية واكتفى

بالكلام عن الدفاع المدنى.

لقد كانت الروح الجديدة بين شباب الحى والصداقات والعلاقات الوطيدة بينهم والتى ولدتها معسكرات المقاومة الشعبية عاملا ثانيا فى نجاح خطة عمل الدكتور أنيس بالحى. فقد كان هؤلاء الشباب هم قلب الندوة الجماهيرية. الدكتور أنيس ظل لمدة عام تقريبا (من أوائل ٦٩ وحتى أواخر ٦٩) بشكل نشط وفعال يعمل وسط جماهير وشباب الحى ثم اختفى وابتعد ورحل هذا القمر المضئ عن حينا، ولاأدرى حتى الآن لماذا ابتعد؟ هل تم تضييق الخناق عليه؟ ومِنْ مَنْ؟ هل يأس منا؟ لاأعلم. لكن الذى أعلمه جيدا أن الرجل قد ترك بصمات جميلة فى عقولنا. وهذا القمر(الذى رحل) كان ينير الطريق لنا فى وقت كنا نحتاج فيه بشدة لشعاع واحد من الوعى.

بعد رحيل(د/ محمد أنيس) عن الحى قام محمد وعبد المنعم خليل بتجميع كتلة الشباب التى تبلورت بالحى من لجان المقاومة الشعبية، ومن الندوات الجماهيرية التى كان يعقدها الدكتور أنيس.

تساؤلات معسكر الحوامدية
ومقر المنظمة

فى معسكر ضم حوالى ٧٠ شابا (لمدة أسبوع أو عشرة أيام)،وكان المعسكر بمدرسة الحوامدية الثانوية المشتركة، وأقام السبعون شابا إقامة كا ملة بهذه المدرسة وكان المعسكر له هدفان:

١- التثقيف السياسى.

٢- ردم أحدى البرك بقرية المنوات بالقرب من الحوامدية.

والجديد بالنسبة لى، وبالنسبة لمجموعة شباب حينا فى هذا المعسكر، هو احتكاكنا بالمهجرين من أبناء مدن القناه(السويس والإسماعلية)،الذين تركوا ديارهم تحت وحشية دانات القذف الصهيونى.

شاهدنا حشودهم فى أكواخ حقيرة وحالة بائسة بقرية المنوات، و عرفنا داخل هذه الأكواخ أن هزيمة ١٩٦٧ لم تكن ضياع سيناء فقط، ولم تكن شهداء وجثثا مشوهة بالنابلم فقط، و إنما كانت أيضا خراب ديار وغربة واجتثاث جذور المواطنين. وآه ياوطن. رحيل وراء رحيل. وبؤس يتراكم فوق بؤس. من السويس إلى المنوات. وأطفال تنام في أكواخ حقيرة فوق فراش الغربة. وإحتياج شديد للقمة العيش. المهجرون تراجيديا الحرب وبؤسها. بنات وأطفال ونساء السويس شبه عرايا. وأين؟ فى المنوات. أى فوق تراب

الوطن.

كنا فى الصباح نعمل بجدية ونشاط فى ردم بركة المنوات، بنفس الجدية والنشاط التى كنا نقطع بها أكوام القمامة بداير الناحية. أكوام قمامة بداير الناحية وبرك ومستنقعات ومهجرين بالمنوات. وكيف يلتحم المثقفون الثوريون بالجماهير الشعبية يادكتور أنيس؟

أيها القمر الذى غاب عن حينا. كنت تقول لنا على القهوة التاريخ مش حواديت. التاريخ صراع طبقات. أين بؤس حينا من صراع الطبقات؟ وأين شتات وبؤس المهجرين من صراع الطبقات؟

أيها القمر الغائب هل كان قطع أكوام القمامة وردم البرك مدخلا ثوريا لصراع الطبقات؟

أيها القمر الذى رحل عن حينا.

هامت هذه الأسئلة بداخلى وقد تكون هامت داخل الآخرين. هامت في الإحساس والمشاعر. فى الوجدان.

***

الوعى الســائد مغلوط
مــش مظبوط
واقف فى النص بيتصالح
ولذلك مش هايحقق أى مـصالح

فى المساء كانت ندوات التثقيف وحلقات السمر. حاضرنا محمد خليل فى تطور المجتمعات وتاريخ كفاح شعب الجيزه وأهالى قرية الشوبك ضد المحتل البريطانى، والعمل الجماهيرى وأساليبه. كانت المحاضرات بسيطة ومفيدة

بالنسبة لمجموعة الشباب. الفرق بين محاضرات الدكتور أنيس ومحاضرات العامل محمد خليل هى اللغة. لغة الخطاب الثورى. الدكتور الجامعى وأستاذ التاريخ أكيد سوف تختلف لغته وخطابه عن لغة وخطاب الأسطى الثورى الميكانيكى المتعلم. تعبيرات ولغة المثقف الثورى آتية من الكتب. وتعبيرات ولغة العامل آتية من الواقع. أمام لغة المثقف تحس باحتياجك الشديد إلى المعرفة والأطلاع على أمهات الكتب. وأمام العامل المثقف تحس باحتياجك الشديد للإنغراس والتعامل مع الواقع. لغة الخطاب الجماهيرى: من أين تنبع؟ من الواقع أم من الكتب؟ من شعبوية الواقع أم من نخبوية المثقفين؟ الخطاب الجماهيرى ليس مأساة ضخمة كما يصورها البعض. فعدم إنغراس المثقفين فى صفوف الجماهير هو المأساة الحقيقية. حينما يحدث الإنغراس سوف تتولد لغة الخطاب بشكل سهل وبسيط وعفوى. وحينما يحدث الإنفصال والتباعد بالطبع سوف يكون هناك لغتان فى الحقيقة.

لم نحس باغتراب عن لغة محمد أنيس. ولم نحس باغتراب عن لغة محمد خليل. رغم أن اللغتين كانتا مختلفتين.فقد كان لكل منهما طعمه ومذاقه الخاص مذاق الدكتور، ومذاق الأسطى.

تعايش المثقف مع الجماهير يخلق لغتة المشتركة معها. أما الإنفصال فلن يولد سوى الفذلكة والمصطلحات الغريبة التى يغطى بها المثقف على جهله الحقيقى.العزلة مقتل لكل مثقف. فمتى تنقضى عزلتك أيها القتيل؟!!

لغة الأسطى ولغة الدكتور كانتا لغة الإنغراس والمعايشة مع الجماهير لذا لم تغترب تلك اللغة عن الواقع رغم اختلاف النكهة ورغم أن الوعى السائد والمحرك لتلك اللغة كان مغلوطا.

تحدث الدكتور وتحدث الأسطى (بلغة لم نغترب عنها) عن صراع الطبقات وتطور المجتمعات. عرفنا منهم الاستغلال والقهر الطبقى فى المجتمع

العبودى(فقد كان الأنسان يباع ويشترى).

فى ذلك الوقت عادت مجموعة الشباب من معسكر الحوامدية أكثر تماسكا، وأكثر انسجاما مع بعضها. كانت المجموعة بشكل عام تقف على حدود ومشارف الفكر الناصرى.

وبعد حوالى إسبوع من عودتنا سلمنا (محمد وعبد المنعم خليل)مفتاح منزل يتكون من دورين، بكل دور حوالى ٥-٦ غرف من الغرف ذات المساحات المتسعة. وكتبنا جميعا إستمارات عضوية لمنظمة الشباب الأشتراكي. وأصبح هذا المنزل كخلية النحل يمتلئ بالشباب والبشر. أصبحنا بدون(محمد أنيس) وبدون(محمد خليل) وبدون(عبد المنعم خليل). أصبحنا نجتمع بمفردنا ونقرر ما نشاء بمفردنا. أصبحنا معروفين فى الحى بإسم (شباب المنظمة). والمنزل تحول إسمه من (منزل ممدوح) إلى (مقرالمنظمة).رايح فين؟ رايح المنظمة. جاى منين؟ جاى من المنظمة. تقولش منظمة التحرير ياخى!

وعلى أرضية العمل الاجتماعى الخدمى حققنا أكبر وأوسع انتشار بين جماهير الحى. وظللنا بؤرة نشاط ضخمة داخل الحى تنطلق من (مقر المنظمة) حتى طردونا من هذا المنزل(المنظمة) بعد أحداث مايو١٩٧١ بعد عامين متواصلين من النشاط.

من هذا المقر أصدرنا أول (وآخر)ديوان شعر بإسم (داير الناحية). من هذا المقر أصدرنا أول (وآخر) مجلة حائط.علقناها فى وسط ميدان الدقى وانتزعنا العقيد (أحمد همام) عقيد مباحث أمن الدولة من أمامها. من هذا المقر شكلنا أول فرقة مسرحية من شباب الحى وأقمنا مسرح(الكارو) وعرضنا أربع مسرحيات بالحى. مسرحية (أغنية على الممر) تأليف على سالم. مسرحية (البوفيه) تأليف على سالم أيضا. مسرحية (أمريكا قتلت عيالنا) تأليف محمد عبدالحميد. مسرحية (وعقارب الزمن) تاليف محروس بدر(إبن الحى). من

هذا المقر شكلنا أقوى فرقة (للدفاع المدنى) على مستوى محافظة الجيزة. من هذا المقر شكلنا أقوى فرقة للكورال من أبناء الحى. كان الفريق يغنى أغانى أولاد الأرض (قول للقمر لوفات.. هانعدى ونحارب) وأغاني أولاد الحارة(كلنا فى الهم غلابة) وأوبريت ألليله الكبيرة (دول فلاحين ودول صعايدة. دول من القنال ودول رشايدة)

من هذا المقر نظمنا أول (وآخر) ندوة جماهيرية على قهوة السرساوى (ندوة الرعب والتحول) فى ٥مايو١٩٧١. من هذا المقر نظمنا العديد من الرحلات لشباب وأهالى الحى، كان أجملها رحلة الإسكندرية والنوم على البلاط وسلالم لوكاندة (رشيد الكبرى للنوم) وكان آخرها معسكر رأس البر. وعدنا من رأس البر بالقطار فى تمام الساعة الخامسة من يوم ٢٨سبتمبر١٩٧٠. ونزلنا من القطار. لم نكن نعرف ما حدث. أفقنا فى محطة مصر على صوت محمد خليل وهو يبكى ويصرخ قائلا:

عبـــد الناصـــر مات...عبـــد الناصـــر مات ياولاد الكلب.

من هذا المقر انطلقت مظاهرات الحى المتواصلة لمدة ثلاثة أيام، تطوف بالأحياء والميادين. الوداع ياجماال ياحبيب الملايين. وفى هذا المقر وغيره من مدارس الحى نظمنا أوسع نشاط لفصول التقويه ومحو الأميه المجانيه دون أى مقابل ولسنوات عديدة. من هذا المقر نظمنا أوسع نشاط رياضى ممكن لشباب الحى.مارس شباب الحى لعبة البنج بونج من خلال المنضدة التى صنعها شهيد حينا (سعيد محمدى). وكان الإيراد المالى للمنضدة يتم الصرف منه على طباشير وسبورات فصول التقوية وتعليم الكبار.

نظمنا العديد من دورات (الكرة الشراب) فقد كانت كل حارة تشكل فريقا لكرة القدم. نظمنا العديد من المعارض ومجلات الحائط بشوارع الحى، كان أهمها معرض جماعة أنصار الثورة الفلسطينية بكلية الهندسة. (تقريبا

يناير ١٩٧١) الذى حصلنا عليه من أعضاء الجماعة (زملائنا بالكلية) وعلقناه بالشارع الرئيسى داير الناحية.

من هذا المقر نظمنا وعرضنا العديد من العروض السينمائية عن حرب فيتنام. وكانت العروض السينمائية عروضا جماهيريه بمعنى الكلمة. كانت إما فى فناء مدرسة. أو فى (وسعاية الدوار). أو فى وسعاية مدخل حارة سيدى الأربعين. وكان شيئا جميلا أن تسمع الصيحات والزغاريد وقت عرض الفيلم السينمائى حينما يستطيع صاروخ سام٦ أن يدمر الطائرة الأمريكية فى حرب فيتنام،وفى لحظة تدمير الطائرة تعلو الصيحات وتنطلق الزغاريد.

زعموا الفانتوم شايل موت

سقط الموت بعلم أمريكا.

جاتكوا فضيحة ياطبقة سطيحة

وعامله فصيحة وجايبه العار.

لم نكن نعرف وقتها هذه الأشعار لأحمد فؤاد نجم كى نقولها. لم نكن نعرف سوى صيحات الإعجاب والزغاريد بسقوط الطائرات الامريكيه..

لقد كانت هذه الأشعار الغائبة زغاريد مظاهراتنا فى حركة الطلاب. كنت أحوّل هذه الأشعار إلى شعارات فى المظاهرات. وحينما كنت أرددها كانت زغاريد نساء وبنات حينا وصيحات الأطفال هى الصورة الماثلة أمامى فى (سنيما الو سعاية) أو بمعنى أصح (سينما الجماهير).

من هذا المقر انطلقنا لنبنى وحدتنا مع شباب كمبوديا(عزبة أولاد علام) حيث أن شباب عزبة أولاد علام كان تقريبا يسير فى نفس الخطوات التى كنا نسير فيها. وقد شكلوا أيضا فريقا من الكورال، وكان فريقا عجيبا يبدأ أغانيه بمطلع هذه الأغنية:

أولاد علام.. أولاد علام.. أولاد علام

هيه.. هيه.. هيه

إحنا وكمبوديا وفيتنام.. أبطــال

والمقصود بكلمة (إحنا) أولاد علام طبعا وليست مصر. وهكذا وضع طالب الحقوق(أحمد شرف الدين) أولاد علام إلى جوار كمبوديا و فيتنام. ومن هنا كنا نطلق عليهم: أبناء كمبوديا البواسل. أو جمهورية أولاد علام الشعبية، فقد كان بؤس كمبوديا(أولاد علام) أشد من بؤس داير الناحية. (البوسنة والهرسك) أو (أولاد علام وداير الناحية) مظاليم العهد المنسيين.

من جميع هذه الأعمال وغيرها أصبحت مجموعة الشباب (قيادات طبيعية) داخل هذا الحى. و فى هذه الفترة توسعت وتعددت دائرة عملنا بدءا من دفن رجل إنتهاء بمجلة حائط وعقد ندوة سياسية فى ظل صراع دائر على السلطة.

كانت هذه الفترة بالنسبة لنا فترة خصب ونمو. فترة معايشة وأنصهار. كنا كالطفل يزحف على الأرض ويحاول أن يتعلم كيف يسير على قدميه يقف أحيانا ويتعثر أحيانا. لكن الطفل بدأ يتعلم الخطوة الأولى فيا ترى إلى أين كان الطفل يسير؟ وكيف كانت خطواته؟

مجلة من صنع أيدينا..وأجمل الأمهات

كانت تجربة مجلة الحائط تجربة فريدة وجميلة بالنسبة لشباب حينا. فقد حصلنا على فرخ من الورق المقوى كتب على ظهره عبارة يصرّح بالنشر، وتم التوقيع أسفلها، أمين شباب المحافظة، وتحت العبارة والتوقيع وضع ختم النسر.

جلسنا مجموعة الشباب فى غرفة بمنزل (الهرّ). والهرّ هو شاكر عرفة ابن حينا و رفيق الزنزانة وأنبل من قابلتهم فى صدقه ووضوحه وصراحته.

لم تكن معنا مقالات معدة من قبل. صممنا عل ألا نكتب أى كلمة إلا إذا كانت نابعة من القلب ومن الوجدان فماذا نكتب والكلمة اللى ما تبقى رصاصة ملعونه وخاينه، والقلم الكداب شـــوكه فى طريق الحق.

رسمنا قطارا طويلاً تتلوى عجلاته على القضبان. والرسم يصور القطار مهتزا ومتأرجحا. كتبنا على القطار عبارة (قطار ثورة ٢٣يوليو).. وكتبنا أسفل الرسم عبارة ياوابور قولى رايح على فين؟!

رسـمنا صورة كاريكاتورية لمـسئول ما. وأشرنا على رأس المـسئول بسهم. وكتبنا أمام السـهم عبـارة (مســـئول كبير قوى قوى قوى) ورسمنا أمام هذا المسئول رسم لطالب جامعى، وأسفل الرسم كتبنا تلك العبارة على لسان الطالب وهو يخاطب المسئول قائلا خايـف أقول اللى فى قلبى!!!!!

كتبنا مقالا بعنوان (سرحان البحيريفى داير الناحية) هاجمنا فيه أحد

قيادات الإتحاد الأشتراكى بالحى. والذى كان يعرقل حركتنا بشكل دائم.. (سرحان البحيرى) أحد شخصيات نجيب محفوظ فى رواية ميرامار، والذى كان يمارس الدجل والكذب على الشابة زهرة التى ترمز لمصر بعبارات(أنا اشتراكى وأبويا عامل) وكان أحد الشخصيات فى الرواية يقول له فركيكو يا أبن البحيرى..دى ساقية دايرة يا ابن البحيرى).

قدم (سمير الشربينى) طالب كلية الهندسة وإبن حينا(وأطيب شبابه) قصيدة جميلة من تأليفه. للأمانة لا أتذكر أبياتها لكنها كانت تسخر من صحافة الدولة (الأهرام والأخبار والجمهورية). وأن ما تقرأه فى الأخبار هو نفس ما تقرأة فى الأهرام هو نفس ما تقرأه بالجمهورية. والذى أتذكره من أبيات القصيدة مقطعها الأخير والذى كان سبب شقاء المجموعة داخل مبنى مباحث أمن الدولة.

أهـرام أخبـار جمـهورية
هى دى جــرايد الصبحية
قالوا قلت إيه؟
تعالوا جـرى إيه؟
مفيش غير بلوة واحــــدة
كل واحد فينا أخرس
ومغمض عينيه

رسـمنا رسما كاريكاتيريا كبيرا فى منتصف المجلة كان عبارة عن حائط كبير مرسوم على قمته عشرة رؤوس. وكتبنا على الحائط (الإتحاد الإشتراكى العربى لجنة العشــرة) حيث أن اللجنة الأساسية بالإتحاد الإشتراكى وقتئذ كانت تسمى لجنة العشرة. ووقف أمام هذا الحائط مجموعة من الشباب متحفزين وهم يصرخون (دعونا ننطلق).

أخذنا نعمل بجدية ونشاط فى تحرير المجلة. نجمع النقود لشراء علبة ألوان فلوماستر. أحدنا يحضرمن منزله علبة ألوان خشب وورق كربون. ورغم إتساع مساحات الكاريكاتير بالمجلة فإنه لم يكن بيننا من يجيد فن الكاريكاتير، لكن الكاريكاتير بالمجلة كان جميلا ومدهشا.. فقد أخذنا نجمع جرائد الأهرام من منازلنا، وقصصنا منها جميع الرسومات الكاريكاتوريه لصلاح جاهين، وأخذنا ننتقى منها ما يناسب فكرتنا ونشفه من الجريدة ثم بورق الكربون نطبعه على الفرخ المقوى ثم نلون بعد ذلك. وما عجزنا عن رسمه رسمناه حسب قدراتنا ومواهبنا المحدودة..

قام سعيد محمدى (شهيد حينا) بتصنيع برواز من الخشب يغطى من الخلف بلوح أبلاكاش، ومن الأمام له ضلفة زجاجية لها قفل ومفتاح. سرقنا زجاج الضلفة من مقر الإتحاد الإشتراكى. فى تمام الساعة الخامسة ذهبنا إلى ميدان الدقى (فى شهر رمضان)قبل أنطلاق مدفع الإفطار. بجوار قهوة إنديانا ومحل بشير (بتاع اللبن) ثبتنا برواز المجلة بالمساميرعلى شجرة ضخمة تتوسط القهوة ومحل اللبن. وقفنا أمامها ننظر إليها بأعجاب شديد:

مجـــلة من صنـــع أيدينـــا. وكنا نتلهف لمناقشة الناس فى المجلة. نريد أن نعرف رأيهم فيما قد صنعناه. كنا ندرك أننا ارتكبنا جريمة ما. وإننا خدعنا المهندس عادل آدم. كان يجب أن نعرض عليه المجلة للإطلاع عليها احتراما لتوقيعه (يصرح بالنشر). لكن فرحتنا الشديدة بالمجلة ولهفتنا الشديدة لمعرفة رأى الناس ومناقشتهم جعلتنا نتخطى الأنضباط التنظيمى داخل منظمة الشباب. ووضعنا مجلتنا فوق الشجرة أمام أضخم محطات الأتوبيس فى ميدان الدقى..

كان الشارع شبه خالى تماما من البشر ومدفع الإفطار على وشك الإنطلاق. وذهب كل منا إلى منزله للإفطار. وعدنا فى المساء (الساعة الثامنة) لتكوين

حلقات النقاش حول المجلة.آه يا بحر الذكريات!!!

(سبتمبر١٩٩٦) قابلت إبن حينا (محروس بدر). جلسنا نشرب الشاى على قهوة عبد الحليم. وأثناء الحديث ضحك وقال لي فاكر المجله فى ميدان الدقى. ياسلام كانت أحلى أيام العمر. وأخذ يقص على نص المقالات والأشعار والكاريكاتير بالمجلة. فاكر مقالة سرحان البحيرى فى داير الناحيه. فاكر كاريكاتير المسئول الكبير قوى قوى قوى..

أكثرمن ربع قرن تقريبا مضى على هذه الحادثة، ولاتتخيل أيها القارئ أى جمال وأى نور كان يطل من وجه محروس بدر وهو يروى تلك الحادثة التى حدثت عام ١٩٧٠. كان يتحدث من أعماقه وكيانه. تتدفق ملايين الألحان إلى وجهه ويقول ضاحكا، كنت أول واحد فيكم راح يستطلع رأى الناس فى المجلة. تصور ما حدث. ذهبت فى الساعة السابعة (قبل ماتيجوا بساعة). كان الناس مازالوا قليلين. وجدت ضابطا واقفا أمام المجلة(ضابط المباحث أحمد همام).الضابط قال لى:

- تعرف مين اللى عامل المجلة دى؟.

قلت له:

- ليه هى عجبتك؟

قال الضابط:

- لا أنا عايز أعرف مين اللى كتبوها. شكلك كده واحد من اللى كتبوها.

من الكلمة دى عرفت أنه ضابط فقلت له:

- أنا ياعم رايح أحشش. اخرجت له قطعة صغيرة من الحشيش كانت فى جيبى وقلت له معقول واحد حشاش يكتب الكلام ده. سلامو عليكم. وانصرفت. تصور شاف الحشيش فى ايدى وتركنى أنصرف. ولو كان عرف أنى من بتوع المجلة كان قبض على. غريبة ياأخى (الكلمه فى البلد عند أمن

الدولة أخطر من قرش الحشيش)

هذا ما قاله لى محروس فى عام ١٩٩٦. أما فى عام ١٩٧٠ فقد ذهبت مجموعة الشباب فى تمام الساعة الثامنة إلى مكان المجلة. وكان المشهد جميلا. فقد تزاحم البشر على المحطة أمام المجلة. وكانوا يقرأون بشغف. وأبدى العديد منهم أعجابه الشديد بها. ودخل الشباب فى نقاش مع البشر امتد لفترة طويلة وفجأة ظهر الضابط ومخبروه وبذكاء شديد قال الضابط:

- ياسلام المجلة دى جميلة قوي.

فقال الشباب فى صيحة واحدة:

- احنـــا اللى عـــاملينها.

بعد هذه الصيحة عينك ما تشوف الا النور. المجلة تهشم زجاجها. وأخذ المخبرون ينزعونها من فوق الشجرة.

الشباب يدافع بجسده عن المجلة. وعراك وشجار. وتم القبض على مجموعة الشباب. ولأول مرة يدخل شباب حينا مبنى مباحث أمن الدولة (فرع الجيزه) بشارع جابر بن حيان. ولم يكن يعرف هؤلاء الشباب أن هذا المبنى سوف يكون مزارهم الدائم خلال السبعينيات.دخل الشباب مقر مباحث أمن الدولة والأسئلة العديدة تطاردهم من أفواه زوار الفجر. إيه علاقتكم بالمجموعة اليسارية فى كلية العلوم؟ إنطق قول؟؟ يابن الكلب أنتو تبع مين؟ ومين اللى حرضكم على كتابة المجلة؟ وكمان ياولاد الكلب عايزين نعرف مين اللى تقصدوه بالمسئول الكبير قوى قوى قوى؟ قصدكم عبد الناصر طبعا. وقطر الثورة مش عاجبكم؟ لولا الثورة ما كنتو اتعلمتوا ياولاد الكلب. لا وآل أيه.. ولاد الكلب بيكتبوا شعر كمان.. عايزين نعرف تقصدوا إيه بعبارة (مفيش غير بلوة واحدة. كل واحد فينا أخرس ومغمض عينيه) وكمان مين سرحان البحيرى؟ قولوا ياولاد الكلب مين سرحان البحيرى اللى فى

داير الناحيه. ساكن فى أنهى حارة؟

كان الشباب ينظر إلي المجلة نظرة أم إلى طفلها الجريح. كان الشباب يود أن يخرج من هذا المقر والمجلة معه، فالمجلة النى من صنع أيدينا كانت معنا أسيرة داخل المبنى والكلاب تنبح من حولنا. وإيه آخرتها مع الضباط. ولاد الشعب غلابة بساط.

لم يجد مجموعة الشباب سوى عبارة واحدة أخذوا يرددونها:

- إحنا بتوع المنظمة.

وهنا (شخر) أحد الضباط قائلا:

- منظمة ايه ياولاد الكلب؟!! منظمة التحرير!!! اسم المنظمة اللى بتنتموا ليها إيه؟ هوه فيه منظمات فى البلد ما نعرفش عنها حاجه.

وذهل الضباط حينما قلنا لهم:

-منظمة الشباب.

(شـــخروا كعادتهم) وقالوا:

- بقى أنتو ياشوية عيال هتلبسونا العمة. معقول منظمة شباب وبتهاجموا الثورة وعبد الناصر؟

ذهل الضابط حينما قال أحد الشباب:

- إحنا معانا تصريح بالنشر وختم المنظمة على ظهر المجلة.

ذهبوا إلى المجلة وفكوا دبابيس المكتب التى ثبتت بها المجلة على البرواز. ولما وجدوا توقيع (عادل أدم) وختم النسر قال أحدهم:

- وكمان ختم نسر؟ وقعة أبوكم سودة..

وبدأت التليفونات تعمل والإتصالات تدور من حولنا، والشباب حائرون صامتون. وبعد ساعات خرج الشباب من هذا المبنى الكريه.

جاء عادل أدم ومحمد خليل لإستلامنا من أيادى زوار الفجر. عاد الشباب

بعد أن أطلق سراحهم وهم يضحكون ويقلدون شخير الضباط وأسئلتهم. وحينما وصلنا إلى بيت المهندس عبده مصطفى(إبن حينا و طالب كلية الهندسة والذى كان مقبوضا عليه مع مجموعة الشباب) كان الضحك هستيريا وصاخبا، فقد وجد عبده مصطفى أمه وقد حرقت جميع الكتب الدراسيه بتاعة الكلية فى أحد أفران خبيز العيش داخل المنزل. وقال عبده لأمه:

- ليه حرقتى الكتب؟ دى كتب المذاكره بتاعة الكليه.

قالت الأم وببساطة:

- خالك شعبان العسقلانى جه وقالى عبده اتقبض عليه من قدام المجلة فى ميدان الدقى.. وطالما مسكوه يبقى أحرقى الورق اللى فى البيت علشان زمان ضباط المباحث جايين يفتشوا البيت ويدورا ع الورق.

- طب يا أمه تقومى تحرقي كتب الدراسة؟!

- وأنا إيش عرفنى أنها كتب دراسة. خلاص فداك ياضنايا. المهم رجعتوا بالسلامة.

وقامت وأعدت الشاى لجميع الحاضري. أمهات بسيطات. أجمل الأمهات. بساطة وحنان وتلقائية. كم قاست معنا أمهاتنا؟ وعانت الكثيرات من العذاب والحيرة فى هذا الصراع. كانت أمى تقول لى دائما بعد كل خروج من السجن وقبل كل دخول:

- ياابنى الظلم فى البلد من زمان.. من زمان قوى. وانت بقى يا فالح اللى هتغير البلد. تروح فين ياصعلوك بين الملوك. دا أنت يتيم والدولة مفترية.

لم تكن أمى تعرف القراءة والكتابة مثل أغلب ألآمهات فى حينا. لم تقرأ فى الكتب الثورية: الدولة أداة قمع والدولة أداة سيطرة طبقة على طبقة.لكن فى تعبيرها البسيط التلقا ئى (ياإبنى الدوله مفتريه) (ويا إبنى الظلم فى البلد

من زمان. من زمان قوى). كانت تجسد رحلة المعاناة الطويلة لأمة بأسرها!!

خرجنا من مبنى المباحث فى المساء وفتحنا مقر المنظمة فاليوم التالى.لم تكن هناك أى ذرة خوف بين مجموعة الشباب(سواء من قبض عليهم أو من لم يقبض عليهم). كان حزننا الوحيد على المجلة وبروازها لإنها ظلت فى الأسر بينما نحن أصبحنا طلقاء !

لم يحولنا عادل أدم أو فريد عبد الكريم أو عبد المنعم خليل أو محمد خليل لأى تحقيق تنظيمى داخل المنظمة.. ولم يناقشونا حتى فيما كتبنا.. ربما جاءنى إحساس وقتها إنهم مبسوطين مما فعلناه..

لم يتعاملوا معنا كرجال سلطه أو رجال نظام، رغم إنهم جميعا كانوا ناصريين فكرا وعقيدة. ضحكوا معنا مثلما ضحكنا على شخير ضباط المباحث. وأخذوا يسمعون منا بروح الأخوة كيف صنعنا البرواز الخشبى؟ كيف سرقنا لوح الزجاج الكبير من مقر الإتحاد الأشتراكى؟ كيف رسمنا الكاريكاتير؟كيف حرقت أم عبده مصطفى كتبه الدراسية؟

سارت الأمور ببساطة ويسر. وانطلقنا فى العمل بحماس أكبر وجرأة شديدة. وكانت تلك قصة مجلتنا داخل الحى.

مجلة الحائط إسلوب جميل من أساليب الإلتحام بالجماهير. مجلة يدور من حولها حلقات النقاش. صحافة صادقة سريعة التحرير. سريعة الكتابة. الكاتب يعرف رأى الجمهور بصورة مباشرة فيما يكتبه. بعشرة قروش(وقتها) تستطيع أن تحرر مجلتك فى بضع ساعات. الحوار الدائر حول المجلة أهم من المجلة ذاتها. المجلة مجرد ورقة وجرس يدق لفتح باب النقاش. أن تدافع عن رأيك أمام الجمهور يكسبك ذلك المهارة على الإقناع ومجادلة الرأى الآخر.

المقالة القصيرة. الكاريكاتير السريع. والعبارة المختصرة المفيدة. والإسلوب البسيط الذى يجذب القارئ..هذه الأشياء سمات المجلة الحائطية الناجحة.

الكلمة الصادقة والكلمة الكاذبة سرعان ماتتضح فوق مجلة الحائط وأمام حلقة النقاش..

قوة مجلة الحائط. ثورية أفكارها ومدى صدقها. و المجلة وعى وفن.. فمجلة الحائط شكل ومضمون ولا ينفصل هذا عن ذاك.

كلاب أمن الدولة ومخبروها لا يهمهم الشكل ولا المضمون. يهمهم فقط من هم صانعوها؟ يهمهم فقط التقرير المرفوع إلى الرئاسات العليا. ويهمهم أيضا تمزيقها وتحطيمه. فكم من المجلات تمزقت وتحطمت تحت أقدامهم لكن الكلاب تعوى والقافلة تسير. والغربة عذاب ومتاهة والحلم أخضر وعنيد.

فصول التقوية وندوة قهوة السرساوى

أحداث ١٥مايو١٩٧١

فى الماضى كان البوليس الجنائى يدخل الحى كثيرا لتعقب تجار المخدرات. لم يكن حينا كحى الباطنية مثلا. لكن كان للحى نصيب أيضا فى تجارة المخدرات. هكذا دائما حيث يوجد الفقر والبؤس لابد من وجود المخدرات.

مع تبلور الشباب فى الحى. ومع ظهور مجلة للحائط بميدان الدقى، كانت تلك هى المرة الأولى التى يدخل فيها البوليس السياسى إلى حينا. وأعتقد أن هذه اللحظة كانت الميلاد الحقيقى لهذا الحي.

لقد أثرت ندوات الدكتور أنيس وجهود عبد المنعم ومحمد خليل، فى خلق مجرى جديد داخل الحى.(يكتشف البشر ذاتهم عند التحول) عبارة قالها لنا محمد خليل بعد حادث المجلة مازالت مطبوعة بالذاكرة لاتختفى.

- أنتم مجموعة الشباب اللى شقت مجرى التحول. فى الحى زمان كان البوليس يدخله علشان تجار المخدرات. دلوقتى البوليس يدخل الحى علشان يكافح السياسة مش يكافح المخدرات. الأحياء الغنية المجاورة للحى فاكرة أن داير الناحية عبارة عن شوية حشاشين وتجار مخدرات. لازم نثبت لهم أن داير الناحية فيها المهندس و فيها الطبيب وفيها العامل. وأيضا بها السياسى وأصحاب الرأى والعقيدة...

كلمات جميلة أيها الأسطى العزيز.

لم يأت محمد خليل بهذه الكلمات من الكتب. جاءت كلماته لنا من المعاناة. معاناة الواقع. كيف ينظر الناس إلينا وإلى حينا؟ وكيف ننظر إلى أنفسنا؟

هذه الكلمات كان أثرها عميقا فى نفوسنا. كنا نفتخر بشدة حينما يدخل أحد أبناء حينا الجامعة. العلم والتعلم بالنسبة لحينا أصبح معركة. معركة لإثبات الذات والوجود فى عالم لايعترف أصلا بوجودنا !

من هنا انطلقنا لفصول التقوية ومحو الأمية المجانية من أجل أن يصبح حينا بؤرة للمتعلمين لابؤرة للمخدرات...دخلنا معركة العلم والتعلم بالحى أيضا كنوع من الحرب ضد المخدرات فى هذا الحى. كانت فصولنا متسعة. منذ الخامسة مساء وحتى التاسعة بل أحيانا العاشرة. داخل مبنى المنظمة لاتخلو حجرة من الحجرات من درس للتقوية أو فصل لتعليم الكبار.وحينما ضاق مبنى المنظمة بعدد التلاميذ. أقمنا الفصول فى مدرسة مجاورة للحى. إمتدت فصولنا إلى بعض الجوامع. وامتدت (حينما كان يتم تضيق الخناق من قبل أحهزة الدولة علينا) إلى داخل المنازل. إستمرت فصول التقوية فى حينا منذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٥. مارسناها حتى بعد أن طردنا من مبنى المنظمة فى عام ١٩٧١. وفى الفترة من ١٩٧١ وحتى ١٩٧٥.. وهى الفترة التى ظللنا فى أغلب أوقاتها مطاردين من قبل أجهزة الأمن. كنا نحرص بشدة على إقامة الفصول وتوسيعها لأنها كانت بالنسبة لنا تعبيرا وإثباتا لجماهير الحى إننا لم ننفصل عنهم.

فى أعوام ١٩٦٩ـ ١٩٧١ كان أبناء ورجال ونساء الحى ينظرون إلينا نظرة إلي (الشبان الطيبين أولاد الحى بيخدمونا. عايزين عيالنا تتعلم زى ماهمه أتعلموا. مابيطلبوش فلوس. عيال جدعان. ربنا يحرصهم لشبابهم. ملهمش

غرض غير خدمتنا وتعليم عيالنا. حاسين بينا وبزنقة عيشتنا. عارفين أن احنا مانقدرش ع الدورس الخصوصية)

في أعوام ١٩٧٥،٧٤،٧٣،٧٢ كنا نمارس فصول التقوية بالحى. وكنا ندخل ثم نخرج من السجون، أو أحدنا بالسجن والآخر خارجه، ومباحث أمن الدولة ومخبروها مزروعين فى الحى. وكان أبناء الحى يشاهدونا فى المظاهرات التى تطوف بالجامعة وتدخل حى بين السريات المجاور لحينا. فى هذه الفترة كان جميع أبناء الحى ونسائه الفقيرات يعلمون جيدا أن من يقود المظاهرات بالجامعة هم أنفسهم الذين يعطون الدروس المجانية لأطفالهم. كان حديث الناس دائما. شاكر عرفة خرج من السجن. كمال لسه جوه. سمير الشربينى ومحمد عبد الخالق وجمال عبد الناصر وأسماعيل يوسف وبحبح ومحمد البدراوى وسيد عبد الرحمن بيدرسوا فى الفصول. بيقولوا ياختى عليهم شيوعيين. ياختى أنا مش عارفه يعنى إيه شيوعية؟. جوزى بيقول شيوعيي يعنى كفرة. هو معقول الكفرة يخدموا عيالنا؟ ياختى دا كلام المباحث. والنبى حاجه تحير.

حينما كنا نخرج من السجن أو تتفجر أحداث الجامعة، كنا نروى لشباب الحى ورجاله وأيضا للتلاميذ ماذا حدث؟ أين يكذب السادات وأين الحقيقة؟ ماذا تقول منشورات الطلبة؟ الطلاب يتحدثون عن أحوال معيشة شعبنا المتدهورة. الطلاب يطالبون بربط الأجور بالأسعار. الطلاب يطالبون برفع الحد الأدنى للأجور. الطلاب يتحدثون عن العمال. وإقتصاد الحرب كمان. وكانت الفصول بمثابة قناة اتصال بيننا وبين جماهير الحى. قناة مفتوحة دائما...

فى أعوام ٧٥،٧٤ درس معنا فى هذه الفصول الكثير من القيادات الطلابية بالجامعة.(شهرت االعالم- سمية عدلى- فاتن عبد المنعم)..

كان وجودهم معنا، والتدريس لأبناء الحى، يعطى صورة جميلة لشباب الحى عن الطالبات الثوريات بالجامعة.غير الصورة التى كان ينقلها ويروج لها ضباط أمن الدولة والصحافة وقتها. كنت تجد الشباب فى الحى يتحدثون عن (شهرت العالم):

- عارف البنت النحيفة اللى بتيجى تدرس فى الفصول. البنت بتاعة كلية العلوم. دى بتقودالمظاهرات فى الجامعة ياعم. شاكر عرفة قال لنا دى اتحبست ودخلت السجن.. سجن القناطر. ياراجل روح اتنيل. دانت جسم وعضلات ع الفاضى. تشوف ضابط بوليس تقوم تجرى.طب شهرت دى اللى ماتجيش كلها قد دراعك. بتقف فى الجامعة وتتكلم أجدع من ميت راجل.

كان شباب الحى فخورا بنا. وما أجمل أن يفتخر الفقراء ببعضهم.

مرة كنت أقود مظاهره تضم حوالى ٤٠٠٠ طالب. خرجنا من الجامعة ودخلنا بالمظاهره حى بين السرايات. كان (كامل الترجمان) أحد شباب حينا وعامل الكاوتش يسير فى حى بين السريات.

ولما وجدنى محمولا على الأكتاف وأقود المظاهرة دخل على المظاهرة فرحا ومهللا. دخل يزعق بأعلى صوته (ياصلاة النبى.. ياصلاة النبى على ولاد حتتنا)..

حمله المتظاهرون على الأكتاف، وكان مزهوا بنفسه وبأبناء حيه. أمسكت يدى بيده والدموع كادت تفر من عينى وعينيه وهتفت:

إحنا الطلبه مع العمال

ضـــد الظلم والاســـتغلال

ياعمال أنا وانتم واحد

اللى سارقنى وسارقك واحد

واللى ناهبنى وناهبك واحد

واللى ظالمنى وظالمك واحد

ياعـــــمال خطـوة لقدام.

تعانقنا فى نهاية الهتاف وانتهت المظاهرة. ورجع كامل إلى الحى يحكى عن المظاهرة وأبناء الحى الذين يقودون المظاهرات فى الصباح وفى المساء يدرسون فى فصول التقوية.

كانت الفصول فى حينا تقوم على عاتق (٥٠-٦٠شاب) من شباب الحى أغلبهم طلاب جامعات. وخريجين وشباب يحملون دبلوم تجارى أو صناعى.. وكان عدد التلاميذ فى الفصول يتراوح بين ١٠٠ —٥٠٠تلميذ..١٠٠فى أوقات الحصار وتضييق الخناق و٥٠٠فى أوقات الإزدهار.

كانت الفصول قائمة على العمل التطوعى. كانت روح التضامن هى المحرك الأول وراء العمل.. لم يكن جميع المدرسين على صلة بالسياسة مع الحركة الطلابية.بل غير المسيسين هم الأغلبية.لكن الجميع كان متفقا على أهمية وضرورة استمرار الفصول. كان هناك احتياج جماهيرى داخل الحى لهذه الخدمة. وكان هناك تضامن من أبناء الحى فى سبيل تلبية هذا الإحتياج الجماهيرى.

لم نمارس هذا العمل بأفق أن هذا حل لمشكلة التعليم. أو بأفق محاربة الدروس الخصوصية بالحى. لأن الشباب الذين كانوا يعطون دروسا خصوصية بالحى كانوا فقراء ويعولون أسراً.كانوا يلجأون إلى الدروس الخصوصية لحل مشاكل الحياة التى تواجههم.. كانوا يعطوا الدرس الخصوصى بجنيه فى الشهر لجميع المواد!!!!!!! بل كان كثير منهم يأتى ويدرس معنا فى الفصول المجانية بعض الحصص. وبالطبع فإن حالة الزخم والمد الجماهيرى وتأثيرات الحركة الطلابية أعطى لفصول التقوية فى الحى طابعا مختلفا. وخرج بها عن نطاق العمل الإجتماعى الخدمى.

لقد كانت الفصول محور صراع دائم داخل الحى. الجماهير تريد الفصول والمباحث تريد قفلها. الناس عايزه الفصول تستمر لأنها تلبى احتياجا عندها. والمباحث مش هبلة. طول ما بتوع السياسة وحركة الطلبه فى وسط ٥٠ شاب جامعى بيدرسوا فى الفصول، وفى وسط ٥٠٠ تلميذ من التلاميذ بالإعدادى والثانوى، والأهالى بتبارك هذا العمل يبقى السياسة مش ها تنقلع من داخل هذا الحى. الشيوعيون فى الحى إن كانوا أثنين بكره ها يبقواعشرة وعشرين. هكذا كانت تفكر أجهزة المباحث..

ندوة قهوة السرساوى

ندوة الرعب والتحول ٥ مايو ١٩٧١

أعوام ٦٨،٦٩،٧٠، وحتى ٥مايو ١٩٧١ كانت أعوام العمل الهادئ فى الحى. لم نصطدم بأجهزة الدولة إلا فى حادثة مجلة الحائط. كان يعرقل عملنا بعض عناصر وقيادات الإتحاد الأشتراكى بمناوشات من آن لآخر. لم نفهم مغزى تلك المناوشات وقتها. وكان هناك شئ يجعلك تقع فى الحيرة وأسئلة تدور فى الرأس لاتجد لها إجابة أو تفسيرا..

عادل آدم (أمين منظمة الشباب بالمحافظة)، فريد عبد الكريم (أمين الإتحاد الإشتراكى بالمحافظة) يتعاملان معنا بشكل سياسى ويدفعان عملنا إلى الأمام. وهناك عناصر أخرى تتنمى لنفس التنظيم السياسى تناوش معنا وتضع العراقيل!! لم نكن نعلم أن هناك تنظيما طليعيا سريا داخل الإتحاد الإشتراكي !! علمنا ذلك فقط بعد حل التنظيم الطليعى على الملأ فى أحداث ١٥ مايو ١٩٧١. يعنى يامحتـرم كنا طرابيش. وكمان يا محترم لازم تعرف أن فى الحياة بشكل عام مش عيب أنك تطلع طربوش. ياما الواحد فى مواقف كثيرة، إنسانية وشخصية وإجتماعية، طلع طربوش ومن غير ذر كمان. أما فى عالم السياسة أن تجد نفسك طربوشا. وفجأة. فذلك مؤلم بحق.

والآن ونحن فى عام ١٩٩٦ وبعد حل التنظيم الطليعى فى مايو ١٩٧١، أى

بعد ربع قرن من هذا الحل.

أتوجه بسؤالي الحائر(والذى لم أجد إجابة له حتى الآن) إلى كل الناصريين الذين كانوا داخل التنظيم الطليعى.لماذا كان التنظيم الطليعى سريا؟ أى سلطة كان يود أن يطيح بها؟!أى سلطة كان يود أن يأتى بها؟! حزب عبد الناصر كان يود أن يطيح بسلطة عبد الناصر من أجل أن يأتى بسلطة عبد الناصر!!! مش فاهم لحد دلوقتى. سلطة بحزبيين. حزب سرى وحزب علنى. وهل كان برنامج الحزب السرى يختلف عن برنامج الحزب العلنى؟ قد يكون للناصريين إجابة أود أن أفهمها. وإن لم يكن هناك إجابة فإن الإجابة الوحيدة الحاضرة فى ذهنى إن التنظيم الطليعى قد بنى من أجل هدف واحدوهو أن نكون طرابيش فى عالم السياسة. المهم. لقد كانت أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ بالنسبة لمجموعة الشباب فى حينا نقطة تحول جديدة فى وعينا وفى عملنا. ولكننا تعاملنا مع هذه الأحداث (رغم أننا كنا طرابيش) بشكل صحيح..

لم نخف وننعزل فى منازلنا. ولم نكمن أثناء الصراع الدائر لإنتظار الطرف المنتصر والسير فى ركبه.

أحداث مايو كان فضلها علينا أن دفعتنا إلى قلب السياسة. ودفعتنا للبحث عن الوعى الغائب.

فى أوائل شهر مايو تواردت لنا الأنباء من داخل المنظمة وداخل الإتحاد الإشتراكى.السادات هيبيع البلد للأمريكان (وقد باع).. السادات بيمهد لصلح مع إسرائيل (وقد فعل). وتواردت أنباء وحواديت كثيرة عن اجتماعات اللجنة المركزية فى الإتحاد الإشتراكى وقصر السادات بالجيزة وانقسام داخل أجهزة الدولة. وهذا الكلام بالطبع سمعناه داخل المنظمة وداخل الإتحاد الإشتراكى وكانت الناس فى الشارع مش عارفه أى حاجه. كان الصراع الدائر فى أعالى القمة. وبدأت تتسرب أخباره إلى داخل الإتحاد الإشتراكى ولسه الموضوع

لم يصل إلى الشارع.

طب إيه العمل ياجماعة؟؟

إذا كانت البلد ها تتباع للأمريكان. والصلح ها يتم مع إسرائيل، هنقف كده ساكتين؟ طب الكلام ده نقوله للناس !!!

وعندما اشتد الصراع فى القمة، طلب مننا عمل ندوات فى الشارع لشرح أبعاد الموقف للجماهير.وقد كان. فقد نظمنا وحشدنا لندوة جماهيرية على قهوة السرساوى(وقتئذ). وكانت القهوة تضم أكبر تجمع لشباب الحى. وحضر الندوة حوالى ٢٠٠شـاب من الحى. وجاءت قيادات من المنظمة والإتحاد الأشتراكى وشرحوا أبعاد الموقف. وكان وقع الكلام على نفوس أبناء الحى شديدا.

لم تكن الندوة ندوة تثقيف كندوات الدكتور أنيس. كانت الندوة إعلان حالة حرب على السادات قمة السلطة. وأثناء الندوة وقف صاحب القهوة وقال: ياجماعة حرام عليكم. المخابرات لو سمعت الكلام اللى بيتقال على القهوة هتقفلها. وهنا أجاب أحد المسئولين بالإتحاد الإشتراكى والمحاضر بالندوة، ماتخافوش المخابرات معانا.. وهنا بدأ الإندهاش والرعب على جميع الحاضرين. ازاى ياعم المخابرات مع اللى فى السلطة، والسادات فى السلطة وهو الحاكم تبقى المخابرات معاكم ازاى؟!!!

وبعد ساعة كان الحى كله يتحدث عن ندوة السرساوى. و انصرف المسئولون القادمون من الإتحاد الإشتراكى ومنظمة الشباب. ووجدنا أنفسنا وجها لوجه مع جماهير الحى.. إمتدت حلقات النقاش داخل الحى حتى الفجر.

أحداث ١٥ مايو ١٩٧١

توالت الأحداث فى الأيام التالية:

إستقالات وقبول استقالات. وإعتقالات وثورة تصحيح. وحرق شرائط ومراكز قوى وحل التنظيم الطليعي.. وأبو زيد فهمي والمدعي الإشتراكي. وقبض على عادل آدم وعلى فريد عبد الكريم. وبعد فترة وجدنا المخابرات تزحف على الحي وتقبض على محمد خليل.. في أول وأقوي هجوم لكلاب الدولة على الحي.

طابور طويل من الضباط و المخبرين يهاجم المنزل.. يفتشون فى كل مكان.. الكتب والمكتبة لم يقتربوا منها.. التفتيش فى الدواليب وتحت الأسرّة وفى خبايا المنزل.. التفتيش ليس عن أوراق ولا عن كتب.. عن ماذا تفتش الكلاب المسعورة؟

ـ مش عارفين بتفتش عن إيه؟!!

ـ أيوة مش عارفين.

ـ بنفتش عن سلاح.

ـ سلاح. سلاح إيه. هوه أحنا بتوع سلاح؟؟ وسلاح ليه؟!

ـ أما تيجى معانا هتعرف.

وخرج محمد خليل بين كتلة من الضباط والمخبرين فى موكب مهيب.. و فى مغرب هذا اليوم، تقريبا تجمع الحي بأكمله أمام المنزل. مشى الأسطى

محمد خليل وسط هذا الموكب رافع الرأس. هذه الإبتسامة وهذا الشموخ كانا لكسر حالة الرعب من نفوس أبناء الحي. تكرر هذا المشهد كثيرا فى حينا. أن يجدك أبناء الحي إنسانا صلبا قويا وقت اعتقالك ذلك شيئ مهم.. كنا نسير معتقلين شامخين. نطمئن الجميع بإننا عائدون. ذهب محمد خليل وتجمعنا فى المنزل كتلة من شباب الحى وصوت أم كلثوم فى الراديو:

مصر التى فى خاطري وفى دمى

أحبها من كل روحي ودمي

يا ليت كل مؤمن يحبها مثلي أنا

أطفأ عبد المنعم الراديو وساد الصمت. راح عبدالمنعم ينظر إلينا بدهشة و يقول:

- سلاح أيه؟ غريبة !! سلاح !!!! ربنا يستر..

وساد الصمت ثم وجدنا عبد المنعم خليل يضحك ويقول:

- سلاح !!!! السلاح مش عند محمد خليل. المصيبة السلاح عندي أنا !!!!.

وزعق الطرابيش فى نفس واحد:

- سلاح إيه اللي عندك؟

وأخذ عبد المنعم خليل يضحك ويقول:

ـ عارفين الحاج «أبو غالى» الراجل الصعيدي بتاع عزبة أولاد علام.

ـ أيوة عارفينه. أبو غالي بتاع كمبوديا.

وقال أحد الشباب:

ـ أيوة يا أخي. الراجل الضخم اللي كان من شهرين واقف فى المؤتمر يهتف بأعلى صوته الله معك.. الله معك ياكيم إيل سونج.

إستطرد عبد المنعم خليل:

- من شهر تقريبا السادات كان هيعقد مؤتمر فى طنطا. وكان الإتحاد

الاشتراكى عامل حشد من جميع المحافظات لإستقبال السادات فى طنطا. ولما جه الأتوبيس اللي كنا هنسافر فيه لطنطا. «كنا حوالي ١٠٠ فرد» لقيت أبو غالي طالع الأتوبيس ومعاه طبنجة محشية بالرصاص!! قلت له إيه ده يا حاج؟ واخد المسدس ده معاك ليه؟ قاللي المسدس مرخص ماتخافش.. طب واخده ليه معاك؟!!! الله مش واجب برضه نحييى السادات وهوه فى الموكب. أنا أول ما الموكب هيمر من قدامنا ها أضرب تلات طلقات فى الهواء تحيه للريس. تحية !! أنت عايز تموتنا! ليه. إحنا صعايدة. وتحية الريس واجبة. هات المسدس. دا أنت أول طلقة هتضربها فى الهواء هتلاقى رشاشات جهنم انفتحت ع الكل. وأخدت منه المسدس وكل الرصاص اللى معاه وحطيتهم فى درج المكتب وقفلت عليهم. وها هى الأيام مرت بسرعة والمسدس لسه جوه الدرج. المصيبة أن جميع مكاتب الإتحاد الإشتراكى اتشمعت من يومين. يبقى همه كسروا الدرج لقوا المسدس والرصاص جم قبضوا على محمد خليل. بس الدرج بتاعى أنا مش بتاع محمد. ربنا يستر. مين بقى ها يصدق حكاية أبو غالي؟ أكيد بقى المسدس ده هيبقى قصة وحكاية ورواية.

أخذ الجميع يضحكون. وإختتم أحد الشباب الضحك بقوله:

- الله معك يا كيم ايل سونج. واحنا وكمبوديا وفيتنام أبطال.

عاد محمد خليل بعد أيام. إيه الحكاية؟.أكيد طبنجة أبو غالي؟ قال:

- أبدا. بلاغ كيدى كان متقدم بأنى ومجموعة من الناس كان عندنا قنابل يدوية ورشاشات وبنجهز عملية لإغتيال السادات.

- طب وطبنجة أبو غالي؟

- أبو غالى مين؟

- أبو غالي بتاع كمبوديا.

- كمبوديا مين؟

- كمبوديا الشرقية.

والجميع يضحك وعبد المنعم خليل يوجه نصائحه:

- شوفوا بقى. السادات هيبيع البلد للأمريكان هيبيع. هيمشى على طريق عبد الناصر بأستيكه هيمشى..

بس مفيش داعى نقول الكلام ده دلوقتى. الصراع اللى فوق صراع على السلطة. مالناش فيه لا ناقة ولاجمل. وفيه ناس هاتروح ضحايا. أنا دلوقتى عايزكم تهدوا اللعب شوية. إحنوا الرؤوس حتى تهدأ العاصفة.

لكن العاصفة لم تهدأ. ووجد الطرابيش أنفسهم فى ميدان المعركة رغم إنهم كانوا طرابيش. لكنهم كانوا طرابيش مقاتلة:

ـ أيوه السادات هيبيع البلد. أيوه السادات هيصطلح مع اسرائيل.

_ طب والمخابرات اللى كانت معاكم.؟

_ ملعونة المخابرات.

_ يعنى أنتم تبع مراكز القوى؟

ـ إحنا مش تبع أى مراكز.

ـ تبقوا تبع فريد عبد الكريم.

ـ فريد عبد الكريم وعادل آدم ناس شرفاء ومحترمين.

حقا لقد كانت أحداث ١٥ مايوا ١٩٧١ وندوه قهوة السرساوى بداية التحول.

الغريب بين أحداث ١٩٦٨ ورطب نجم وجيفارا

دخل الغريب الجامعة عام ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨.. فى كلية الهندسة جامعة القاهرة تاه الغريب بين المبانى والمدرجات فى بداية العام. وفى فبراير ١٩٦٨ وفى أحد دروس الميكانيكا وصل إلى أسماع الحاضرين فى المدرج صوت الهتافات تدوى بفناء الكلية:

أنور أنور ياسادات

هيه فين الحريات؟

آل ايه مجلس أمة

واللى عاملينه همه

لاصدقى ولاالغول

عبد الناصر المسئول

عايزين صحافة حرة

دى العيشة بقت مرة

عايزين حكومة حرة

دى العيشة بقت مرة

يسقط كل مصرى جبان

يسقط كل مصرى جبان

نصح الأستاذ الطلاب بعدم المشاركة قائلا:

- إحنا بتوع علم مالناش دعوة بالسياسة.

لم يتحرك أحد من الطلاب من مقعده والهتاف يصل إلى الأسماع. «يسقط كل مصرى جبان»

قال الغريب لنفسه:

« أنا ابن حارة ولا يمكن أن أكون جبانا». جمع الغريب كتبه وكراساته وخرج من الباب الخلفى للمدرج وأخذ يهرول فى اتجاه المتظاهرين:

أمام النافورة بمدخل الكلية كان هناك حشد ضخم من الطلاب يتزعمه طالب كلية الهندسة «محمد فريد حسنين» وكان يخطب فى الطلاب «الحريات أولا. والحريات ثانيا. والحريات ثالثا» «حينما ضاعة الحرية جاءت الهزيمة».

بعد ذلك وقف أحدعمال مصانع الطائرات بحلوان يروى قصة خروج مظاهرات عمال مصانع الطائرات بحلوان. وإعتراضهم على الأحكام الصادرة على «المسئولين عن النكسة» وكيف تم قمع هذه المظاهرات؟ بعد ذلك تعالت الهتافات «يحيا الطلبة مع العمال».

خرج الغريب مع المتظاهرين.. حاول البوليس تفريق المظاهرة عند كوبرى الجامعة، لكن الطلاب تمكنوا من صده والتقدم على كوبرى الجامعة. والقنابل المسيلة للدموع تتساقط فوق الروؤس.كر وفر ومعارك وهتافات المتظاهرين تهز شارع القصر العينى وتقتحم ميدان التحرير وتحاصر مبنى الاهرام القديم. وعند مبنى الأهرام تدور المعركة ويتمكن البوليس من تفريق المتظاهرين..

فى اليوم التالى تم إغلاق الجامعة ومحاصرتها بقوات الشرطة. وكان هناك عدد كبير من الطلاب داخل كلية الهندسة تمكنوا من الإعتصام بالكلية لمده يومين..

أبرز الأسماء من قيادات الطلاب فى حركة ١٩٦٨ كانوا أربعة:

١ـ محمد فريد حسنين جامعة القاهرة

٢ـ عبد الحميد حسن جامعة القاهرة

٣ـ عاطف الشاطر جامعة الأسكندرية

٤ـ تيمور الملوانى جامعة الأسكندرية

- الأول والثانى سرعان ماتم احتوائهما من قبل النظام الناصرى وإنضما تحت لواء التنظيم الطليعى. الأول دخل التنظيم الطليعى ثم قبض عليه فى ١٥ مايووقضى حكما بالسجن لمدة عامين ضمن مجموعة شعراوى جمعة. والثانى سار فى مستنقع النظام بعد ١٥ مايووأصبح فيما بعد وزيرا تم انخرط فى فساد النظام.

الثالث والرابع تم فصلهما من الجامعة وترحيلهما إلى الجيش «أو بمعنى أصح تم إعتقالهما داخل الجيش مع مجموعة أخرى من الطلاب»

الثالث خرج من الجيش ليعود مرة أخرى إلى الجامعة،ولكنه فى السبعينات كان يعملً ضد حركة الطلاب.

ـ الرابع وهو تيمور الملوانى والذى عاد من الجيش للجامعة مناضلا شيوعيا صلبا وعنيدا. لم يهادن ولم ينضوى تحت مظلة أى نظام. وكان راية للإستمرار بين حركة الطلاب ١٩٦٨ وحركة الطلاب عام ١٩٧٢.

أيها الغريب..

حينما أتخذت قرارك بترك المحاضرة والنزول إلى المظاهرة كان ذلك هو يوم ميلادك الحقيقي.. الشجاعة هى نقطة البداية.. كسر حاجز الخوف والترددعند كل إنسان هوميلاد جديد.

لو كنت جباناً وفضلت محاضرة للميكانيكا على مظاهرة للحرية لكان هذا تاريخ وفاتك.

بأى معنى كنت ستحضر ندوات الدكتور أنيس على القهوة لو كنت جباناً..

بأى خطوات كنت ستسير داخل حارتك بعد أن تخاذلت أمام هتاف: يسقط كل مصرى جبان.

أيهما كان أهم:

إ تزان مجموعة من القوى المستوية فى محاضرات الميكانيكا.. أم إتزان مجتمع بأسره؟

أيهما كان أهم:

عجلة الجاذبية الأرضية فى محاضرات الميكانيكا. أم جاذبية عامل من عمال حلوان وهو يتحدث عن مظاهرة عمال مصانع الطائرات؟

أيها الغريب. لماذا لم تهتف حينما هز العامل وجدانك بكلماته. كان الهتاف بداخلك وعلى لسانك: « دم شهيدنا يقول ع الرملة.. عاش نضال الطبقة العاملة».

ترددت أيها الغريب. أحسست أنك ستكون قزماً أمام فريد حسنين وأمام عامل حلوان.

أيها الغريب لم يكن هذا التردد مقبولاً وفى يوم ميلادك. لم تخنك شجاعتك داخل المدرج.. إ نما خانتك شجاعتك وترددت فى نطق هذا الشعار الفورى الجميل الذى كان يتجول فوق لسانك. الجبن لم يكن خوفاً من الاعتقال لأنك سرت فى المظاهرة حتى النهاية..

أيها الغريب تغلبت على شعورك بالقزمية بعد ذلك فى مظاهرات السبعينات.. فهل تخلصت من هذا الشعور فى المعارك الأخرى؟

دقق فى البداية جيداً.. دقق فى الجذور..

بعد مظاهرة فبراير ١٩٦٨ أدار الغريب ظهره للجامعة. إنغمس فى ندوات الدكتور أنيس والعمل وسط مجموعة شباب الحى وفصائل خدمة الجيهة وفصول التقوية المجانية. كان شعور الغريب بأن الحى هو جامعته. وأن

العمل فى الحى وسط الفقراء أهم من العمل فى الجامعة وسط المثقفين..

فى الحى الحس الطبقى والوطنى يتبلور. أما فى الجامعة فهناك شيئ ما مفقود..

فى يوم وحينما كان الغريب يتجول فى الحرم الجامعى،جلس تحت نخلة عالية، ووجد أمامه وعلى النخلة المجاورة رزمة من الأوراق «حوالى ١٠٠ ورقة فولسكاب».. أخذ يتفحصها فوجدها قصيدة شعر مطبوعة بالإستنسل. أخذ يقرأ عنوان القصيدة فوجدها «جيفارا مات».

كان ذلك تقريبا فى أواخر عام ١٩٦٩.... ذهل الغريب!! جيفارا الذى تحدث عنه الدكتور أنيس موجود ايضا فى الجامعة...خبأ الغريب رزمة الأوراق تحت كتبه وسحب نسخة من القصيدة وأخذ يقرأها:

جيفارا مات.. جيفارا مات
آخر خبر فى الراديوهات
وفى الكنايس والجوامع
وع القهاوى وفي الحوارى وفي البارات
جيفارا مات واتمد حبل الدردشة والتعليقات
مارأيكم دام عزكم ياأنتيكات
ياغارقانين فى المأكولات والملبوسات
يادافيانين ومولعين الدفايات
يابتوع نضال آخر زمن فى العوامات
جيفارا مات
لاطنطة ولاشنشنة ولا إعلانات
واستعلامات
مات الماضل المثال. ياميت خسارة ع الرجال

مات الجدع فوق مدفعه جوه الغابات

جسّد نضاله بمصرعه ومن سكات

لا طبالين يفرقعوا ولا إعلانات

....

....

لكن أكيد بلا جدال

جيفارا مات موتة رجال

ياشغالين يا محرومين يا مسلسلين رجلين وراس

خلاص خلاص مالكوش خلاص

غير بالقنابل والرصاص

دا منطق العصر السعيد

عصر الزنوج والأمريكان

والكلمة للنار والحديد

والعدل أخرس أو جبان

صرخة جيفارا يا عبيد

فى أى موطن أو مكان

مفيش بديل مفيش مناص

ياتجهزوا جيش الخلاص

ياتقولوا ع العالم خلاص

وكانت «جيفارا مات» لأحمد فؤاد نجم أول منشور ثورى يقرأه الغريب فى الجامعة.

من هو أحمد فؤاد نجم؟ ومن الذى ترك هذه الأوراق تحت النخلة؟ أسئلة لم يجد الغريب لها إجابة..

ما أجمل هذه القصيدة المنشور.. إنها قد طبعت لكي توزع لا لكي تلقى تحت هذه النخلة.. أكيد هناك ظروف إضطرت من طبعها لأن يلقيها هنا تحت النخلة. فكر الغريب قليلا وقال لنفسه: طالما هذه القصيدة طبعت لكى توزع فلماذا لا أقوم بتوزيعها على الطلاب؟ فكرة جميلة بس ياترى مين أحمد فؤاد نجم؟ مش مهم.. المهم توزيع القصيدة..

أخذ الغريب رزمة الأوراق بين كتبه وذهب إلى كلية الهندسة.. ودخل إلى المدرج وقبل أن تبدأ المحاضرة قام بتوزيع رزمة الأوراق على الطلاب. أخذ يقلبها الطلاب لبضع دقائق ثم أ لقيت القصيدة فوق المدرجات وتحت الأقدام وبدأت المحاضرة.

حزن الغريب على هؤلاء الطلاب. مساكين فهم لم يحضروا ندوات الدكتور أنيس. وأكيد ما يعرفوش حاجة عن جيفارا. خرج الغريب من وسط المحاضرة ومن الباب الخلفى. خرج حزينا يجر أقدامه لكن فى هذه المرة لم يخرج إلى مظاهرة كالمرة السابقة. خرج يأسا من الطلاب ومن كلية الهندسة ذاهبا إلى حيه.. مدرسته الحقيقية.

الشئ المفقود داخل الجامعة وجده الغريب تحت نخلة. وقصيدة يجهل اسم صاحبها. أحمد فؤاد نجم؟ هل هو طالب بالجامعة؟! عرف الغريب جيفارا لكنه لم يعرف نجم. كلما مر الغريب أمام النخلة بالحرم الجامعي يدقق أسفلها لعله يجد رزمة ثانية !!! «أيتها النخلة العالية الغالية. هزى بجذعك. الغريب جائع. يشتاق لرطبك الجنى. رطب نجم وجيفارا».

المهزلة الأرضية
وجمهورية فرفوريا العظمى

أرفف المكتب خاوية إلا من عدة كتب فى المسرح. كان أخي «فاروق» يشتريها بانتظام ، وكان فاروق «أبى الثالث» قارئا وعاشقا للأدب والمسرح. بل ومؤلف أشعار وقصص. فى ليلة من الليالى كان اللقاء « بمحمد الثالث» و «فروفور» فى كتاب ضم مسرحيتي «المهزلة الأرضية» و «الفرافيز» للراحل العظيم يوسف إدريس. كنز حصل عليه الغريب داخل المكتبة. وكانت أجمل ليالي العشق ومتعة القراءة.

أضاف الغريب محمد التالت إلى جوار جيفارا ونجم الغير معروف الهوية.

محمد التالت المثقف العاشق للمعرفة والعدالة. المثقف الضائع بين الحلم بالمستقبل ومهزلة الواقع المعاش. محمد التالت الممزق بين الرومانسية الإ نسانية وبين الكذب والنفاق من حوله. المثقف العاقل جداً لدرجة أن الناس فاهمة أنه مجنون. أو المثقف المجنون جدا لدرجة أنه فاهم أنه عاقل. محمد التالت عاش ومازال يعيش معى حتى الآن..

أيها الغريبً:

دع محمد التالت يتكلم عن نفسه بدلا من أن تتكلم أنت عنه. أيها

الغريب دعه يتكلم لأنه عندما يتكلم سوف يتحدث عنك وأنت تعيش فى مستنقع الغربة. محمد التالت مازال حيا ويتكلم:

أصوات كتير بتحرضني وتنادينى وتقول لي يا محمد ياتالت ياخايب يا مثقف يا فاشل. يابو رسالة يابوريالة. طظ فيك يا خواف يا إنتهازى. إتلهي وعيش زى التنبل. الشمس. قد ايه الشمس تاعبانى. كل يوم أقول يارب ما تطلعش النهاردة أبص ألاقيها فى الميعاد بالضبط راحت طالعة. وهى تطلع من هنا والكذب يشتغل والسرقة والظلم والبوليس والنيابة والمحاكم وتتفتح السجون. كله يجرى ورا بعضه. يجرى قدام بعض. واللى ما يطلش يتشنكل. والجايزة إيه؟ لقمة وعشانها يتخربش وهدومه تتتقطع. باخاف م النمل. عمرك شفت نملة واقفة. باخاف أتقلب نملة.تصور لما الواحد مخه ده يطير. وإحساسه ينتهى. وعواطفه تنمحى. ويبقى كل شغلته أنه يفضل ماشى طول الصيف يخزن أكل للشتا. وطول الشتا يحفر ويخزن أكل. ويحفر ويحفر.

إمبارح كان السبت. والنهاردة السبت. وبكره السبت. الزمن مش مقياس للتغيير. طول ما مفيش تغيير يبقى مافيش زمن.

الأحد مش هاييجى إلا لما نحس أن النهاردة أختلف عن أمبارح. لما نحس أن الحياة اتحركت بينا خطوة لقدام. لما نشوف أن ظلم النهاردة أقل من ظلم أمبارح. وعدالة النهاردة أكتر من عدالة أمبارح. لما نحس اننا طلعنا درجة أو عقلنا همسة أو أترقينا سنة.

أنا يا مثقف خيبتى كبيرة قوى. شاملة بعدد كل حرف أتعلمته. وكل قانون من قوانين الكون عرفته. وكل سطر من كل كتاب أطلعت عليه.

هربت ساعة الجد. هربت من دورى ومنكم. فى وسط المعركة بدل ما أضرب فرّيت واستخبيت جوه نفسى. المصيبة أنى ماليش قضية حتى ولو خسرانة. حتى لو قضية باطل. أنا جريمتى كبيرة قوى.

أنا العين اللى الحياة قعدت عشرة مليون سنة علشان تعملها. فلما عملتها إختارت إنها تغمض. وإذا فتحت تدعى أنها مش شايفة. وإذا شافت تدعى إنها موش عارفة. وإذا عرفت تشك فى اللى بتعرفه.

أنا اللى حاطط الكلمة فوق الإنسان. والقانون فوق الحياة. أنا اللى مش عاجبه حد. والنتيجة أنى مش عاجب حد. أنا اللى من كتر لومى لنفسى أدمنت الغلط. ومن كتر ما أنا عايز أعمل حاجات كتير ما بأعملش حاجة خالص. ومن شدة تصميمى عايش متردد.

الحريقة زادت بين الأرض الكبيرة والناس الصغار. بين الحاكم والمحكومين. بين الظالمين والمظلومين. بين الظالمين لأنهم مظاليم. والخايفيين من ناس خايفيين. بين العلم والدجل. بين الحقيقة والكدب.

الكدب عينى عينك. وفى وشك و بالبنط العريض. وياويلك لو قلت تلت الثلاثة كام؟ هيه دى المهزلة الأرضية.

أنا مأساتى أنى لا قادر أغير الناس. ولا أرضى أن همه يغيرونى. أنا مش عارف أغمض. لا أنا عارف أرضى ضميرى ولا قادر أسكته وأرشيه. لا أنا شجاع علشان أقدر أنتحر ولا أنا جبان علشان أقدر أعيش.

لا أنا شمتان فيكم. ولا عايزكم تشمتوا فى. لا أعايركم بخيبتكم. ولا تعايرونى بقصر ديلى.

لا أدرى لمن أتوجه بالشكر. ليوسف إدريس خالق شخصية محمد التالت فى المهزلة الارضية.أم أتوجه لأخى فاروق الذى وجدت فى مكتبته «محمد التالت» المثقف المهزوم الذى عشقته وحفظت كل كلماته فى المهزلة الأرضية.

انقطعت عن الكلية وعشت مع محمدالتالت. حتى بكت أمى وقالت لى:

- أنا عارفة محدش لخبطك وهز كيانك غير كتاب «الهزة الأرضية». ما بتذاكرش وطول الليل عمال تقرأ فى الكتاب. أنا ما بأعرفش أقرا. بس خدت

الكتاب وانت نايم. وريته لأختك فاطمة وقالت لى دا كتاب «الهزة الأرضية» يا ابنى ذاكر دا أحنا غلابة.

جيفارا ومحمد التالت أصدقاء رحلتى.

أما فرفور الحدق الذكى الساخر. المضحك والمهرج والحكيم والفيلسوف. فروفور إبن البلد. الباحث عن حل لمسألة السيد والفرفور فقد حان الوقت الآن لكى يقدم نفسه: السيد يبحث عن وظيفة. فهل توجد وظائف خالية؟

السيد: ولد يا فرفور ياولد. أنا باشتغل إيه يافرفور؟

فروفور: بتشتغل سيدى عايز أكتر من كده إيه.

السيد: لا. لا. مادمت سيد لازم يكون لى شغلة. نقيلى شغلة محترمة قوى حاجة كده مودرن خالص.

فرفور: تشتغل رأسمالية وطنية؟

السيد: مفيش حاجة أحسن؟

فرفور: فيه. تشتغل مثقف؟

السيد: وبيعملوا إيه المثقفين دول عندكم؟

فرفور: ما بيعملوش حاجة.

السيد: طب وغيره فيه إيه كمان؟

فرفور: تشتغل فنان؟

السيد: فنان إيه ! أعمل إيه؟

فرفور: فنان من غير فن.

السيد: وهو فيه فى الدنيا فنان من غير فن؟

فرفور: يوه. عندنا منهم كتير.

السيد: لا أنا أفضل اشتغل وكيل نيابه.

فرفور: الراجل اللى بيعادى الناس ده لله ف لله.

السيد: مافيش يا ابنى شغلانة عندك الواحد ياكل منها عيش بعرق جبينه؟

فرفور: فيه. إشتغل حرامى. وتحب بقى تبقى حرامى كبير واللامتوسط واللا حرامى صغير على قد حاله؟

السيد: حرامى كبير طبعا ياولد، ودى عايزه كلام يافرفور.

فرفور: خلاص يبقى اشتغل فى التصدير والإستيراد والمقاولات.

السيد: والحرامى المتوسط؟

فرفور: ابقى افتح لك جميعة إسكان تعاوينة والا بوتيك.

السيد: طب والحرامى الصغير يا ولد؟

فرفور: ده الغلبان بقى. اللى بينشل محفظة وتطلع فاضية.

السيد: يبقى خلاص أشتغل مخبر.

فرفور: أيوه مخبر. الراجل اللى بتبقى كل الناس عارفه إنه مخبر وهوه الوحيد اللى مش عارف.

السيد: خلاص بقى يبقى أشتغل تربى.

فرفور: أعرف حد جه يتولد مات.

السيد: مسكين مالحقش يعيش.

فرفور: قصدك ما لحقش يموت.

السيد: قصدى يعيش يا ولد.

فرفور: ودى عيشة اللى الناس تعيشها عشان تموت؟

إضراب فرفور عن العمل وجمهورية فرفوريا العظمى:

فرفور: متى استعبدتم الناس يا دادى وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ أنا مضرب عن العمل علشان الراجل ده عايز يشغلنى عنده فرفورعلى طول. عايزين نقلبها. ليه أفضل فرفورعلى طول. عايزين العبيد يبقوا أسياد.

عايزيين جمهورية فرفوريا العظمى.

الصراع قديم منذ الأزل. مين يبقى سيد؟ ومين يبقى فرفور؟

وأنت سيد ليه؟ وأنا فرفور ليه؟

الخناقة شغالة مستمرة عمرها ماوقفت ثانية. لازم الجاموسة تفضل دايرة فى الساقية. وعشان تدور لازم يغموها. وأكل العيش هوه الغما بتاع الفرافير. طول ماهو ورانا لا حانشوف نفسينا. ولا حانعرف إحنا بنلف ليه عندهم؟؟

الحل إيه؟ الحل مش صعب. الحل مش مستحيل ياعالم. يافرافير. إلحقوا أخوكم فرفور. أنا صوتى ابتدى يتحاش. شوفوا لنا حل.حل ياهوه.أنا فى عرضكم. حل مش عشانى أنا. حل عشانكم أنتم.أنا بأمثل بس. إنما أنتوا اللى بتلفوا.

ومازال فرفور مربوطا ويدور فالساقية. ومازال ظلم اليوم أشد من ظلم الأمس. ومازال العدل نائما. ومازال محمد التالت يعيش فى رحاب المهزلة الأرضية. وجمهورية فرفوريا العظمى تعيش تحت مقصلةالطغيان.

يناير ١٩٧٢ و رجعوا التلامذة..
ياعم حمزة للجد تانى

فى صيف عام ١٩٧١ تحرك عمال الحديد والصلب من أجل مطالب اقتصادية تخص عمال المصنع.. وتم قمع اضراب العمال وإعتقال قياداتهم ثم تشريدهم بعد الإعتقال لمصانع اخرى.

كانت الجامعة مغلقة، والسادات فى رحلة خارج البلاد، وحينماجاء صرح على صفحات الجرائد:

« لو كنت فى مصر وقت الإضراب.. كان لى تصرف تانى مع هذا الإضراب». بالطبع كان يقصد تصرف أشد قوة !!فالديمقراطية كانت عنده لها أنياب!!!أنياب المقصلة.

حينما فتحت الجامعة وفى بداية العام الدراسى،كانت هناك عدة أحداث تؤثر فى حركة الطلاب وتعكس نفسها على مجلات الحائط المنتشرة فى أرجاء الجامعة مثل:

حريق دار الأوبرا بالعتبة تقريبا فى أواخر عام ١٩٧١.

إغتيال «وصفي التل» رئيس وزراء الأردن بالقاهرة.

وفى كلية الهندسة جامعة القاهرة كان نشاط جماعة أنصار الثورة الفلسطينية بالكلية نشاطا واسعا ومتنوعا. بين مجلات الحائط والمعارض

والندوات. والجماعة تضم أعدادا واسعة من الطلاب. وكان القارئون لمجلات الحائط بالآلاف. وحلقات النقاش ساخنة دائما أمام مجلات الحائط. الغريب كان يحوم حول الجماعة ليتعرف على بعضهم لكن جذور الثقة لم تتوطد بعد بين الطلاب. كتل من الطلاب تؤيد أفكار جماعة أنصار الثورة الفلسطينية وكتل تعارض. والنقاشات ساخنة دائما أمام مجلات الحائط التي تتنوع بمقالات نظرية مطولة. ومقالات سياسية سريعة تعلق على الأحداث الجارية. ومجلات كاريكاتيريةوأشعار. وكانت المجلات الحائطية مجاورة لمجلات الجماعة الدينية. فناء الكلية به أكثر من خمسين مجلة حائط. مجلات يقف عليها أفراد قليلون. مجلات تعج بالزحام الشديد. «القرع ـ بلدى ـ الأرض ـ ياسين ـ بهية ـ الكوسة ـ الإعتصام ـ الخ»

الكل يحرر ويكتب. مجلة يصدرها فرد واحد.. مجلة يصدرها مجموعة افراد. ومجلة تعبر عن لسان جماعة أوأسرة.. ولا رقيب على أحد. وتحرير المجلة لا يحتاج أكثر من فرخ ورق ولوحة خشبية وحامل وعلبة ألوان فوماستر وعدة دبابيس مكتب. أجهزة الأمن تمزق بعض المقالات أو المجلات فى المساء. يعاد نسخ المقالات الممزقة فى الصباح على الكافتيريا من قبل أصحابها. كل الأفكار تتصارع. ومع الصراع تتفتح الزهور.فى الربع ساعة « فترة الراحة بين المحاضرتين» يتجمع حول المجلات مايزيد عن ألف طالب. اثناء المحاضرات يكون العدد بالمئات «حين يحتدم النقاش» وفى بعض الأحيان يكون بالعشرات « فى الأحوال الهادئة».

حتى الخامسة مساءً لا تخف الأقدام من أمام مجلات الحائط.

حركة الطلاب عام ١٩٦٨، ١٩٦٩ كانت حركة فوران سريع وخروج سريع إلى الشارع وأيضا قمع سريع واحتواء سريع لمعظم قيادات الطلاب من قبل النظام.أما حركة الطلاب فى السبعينات فإن أهم مايميزها هو التراكم

والتدرج..

كانت مجلات الحائط وحلقات النقاش وإتساع تشكيل الأسر والجماعات الطلابية هى المنابع الحقيقية للتراكم وترسيخ الأفكار وبلورة المطالب وتمايز الاتجاهات.

فى السبعينات سيجد المرء نفسه أمام العديد من الأسر والجماعات بالجامعة. على سبيل المثال، جماعة أنصار الثورة الفلسطينية / جماعة جواد حسنى «بهندسة القاهرة» أسرة مصر «كلية آداب القاهرة» جماعة الدراسات الاشتراكية «كلية حقوق القاهرة» جماعة عبد الحكم الجراحى «كلية اقتصاد وعلوم سياسية جامعة القاهرة» جماعة عبد المجيد مرسى «زراعة القاهرة» نادى الفكر الاشتراكى / نادى الفكر الناصرى «جامعة القاهرة».

كانت هذه الأسر والجماعات أدوات تفريخ للقيادات الطلابية ومنظمات سياسية جماهيرية حقيقية للحركة وسط الطلاب.وكانت مجلات الحائط موجودة فى جميع جامعات وكليات مصرالمحروسة..مجلات يحررها شباب حين بدأ مشوار نضجه ووعيه وتفتحت عيناه على الدنيا، كان أول مشهد أمام عينيه هو و هزيمة يونيو ١٩٦٧. صناعة كبرى مزارع خضرا تماثيل رخام ع الترعة وأوبرا فى كل قرية عربية!!والبون شاسع ما بين الحلم والواقع..و سيد مرعى أمينا للإتحادالإشتراكى العربى!! وإشتراكية تبنى بقياة سيد مرعى !!

إعتصام كلية الهندسة جامعة القاهرة

أربعة أيام متواصلة (السبت/ الأحد/ الاثنين/ الثلاثاء) من العاشرة صباحًا حتى الخامسة مساءً. حلقات نقاش متواصلة في جميع الكليات بجميع الجامعات حول حالة اللا سلم واللا حرب...

خطاب السادات يوم الخميس (١٠ يناير ١٩٧٢) وحكاية الضباب الهندي الباكستاني كانا الشرارة المفجرة لإنتفاضة الطلاب.مرارة هزيمة يونيو ١٩٦٧، البقاء في الخدمة العسكرية لسنوات طويلة لكل خريجي الجامعة دون أمل في انتهاء حالة اللا سلم واللا حرب، ديكتاتورية الحزب الأوحد وسيطرته على الحياة السياسية في البلاد، غياب الحقائق وانعدام حرية الصحافة، وأمينًا عامًا للإتحاد «الإشتراكي» هو أحد كبار ملاك الأرض، والإحساس العام بأن البلد دي مش ملك ناسها.. كل ذلك كان بمثابة العوامل الموضوعية المفجرة لإنتفاضة الطلاب.

كان هناك فرق جوهري بين إنتفاضة الطلاب في عام ١٩٦٨، ٦٩ وإنتفاضتهم في أعوام ٧٢، ٧٣...

في الأولى كان التحرك سريعًا نحو الشارع والخروج بالمظاهرات. أما في الثانية فإن الخروج إلى الشارع كان يتم عقب تجهيز طويل نسبيًا بالندوات والمؤتمرات ومجلات الحائط وحلقات النقاش وإصدار البيانات والاعتصامات.. لقد أستخدم الطلاب المكسب الوحيد الذي انتزعوه في أعوام ٦٨، ٦٩ (وهو

إنتزاع حرية إصدار مجلات الحائط وحرية تشكيل الأسر والجماعات) إستخدامًا جيدًا في التعبئة الجماهيرية وتنظيم الصفوف قبل الخروج إلى الشارع.

كان المقال الذي فجر حلقات النقاش في كلية الهندسة جامعة القاهرة بعنوان:

«ليتك لم تتحدث يا سيادة الرئيس».....

كتبه أحد الطلاب والذي لم يكن ينتمي إلى أي أسرة أو جماعة سياسية بالكلية. ولم يكن أيضًا من كتاب مجلات الحائط المنتظمين والمداومين على الكتابة. كان طالبًا عاديًا بكل معنى الكلمة. لم يكن من قيادات الطلاب أعوام ٦٨، ٦٩ وما بعدها. وأيضًا لم يكن من قيادات الطلاب في حركة السبعينيات. سطر هذا الشاب الجميل مقاله في أكثر من عشرين صفحة فولسكاب بقلم من الفوماستر، وبالدبابيس علق المقال حيث كانت هناك كتلة ضخمة من الطلاب تلتف حوله تقرأ المقال.

لم يكونوا بالعشرات بل كانوا بالمئات وأغلبهم أيضًا من جمهور الطلاب الذي لم يظهر أمام حلقات النقاش والمعارض التي كانت تنظمها جماعة أنصار الثورة الفلسطينية وجماعة جواد حسني بالكلية (والتي كانتا تضمّان معظم الطلاب اليساريين بالكلية). وكان الزحام حول هذا المقال أشبه بالزحام على الجمعيات التعاونية أو على أفران الخبز. وكان بداية لتوافد المئات لساحة الكلية..

في الماضي كان يمكن أن ترى كل يوم خمسة حلقات نقاش أمام مجلات الحائط. وكل حلقة تضم حوالي ١٠ – ١٥ طالب. أما في هذه الأيام الأربعة كان من الممكن أن تشاهد أكثر من خمسة عشر حلقة وكل حلقة تضم أكثر من مائة طالب وطالبة. الجميع يتحدثون في كل شيء. إزدهر فناء الكلية

بمجلات الحائط القديمة والجديدة. والكل يطرح نفس التساؤلات: إلى متى تستمر حالة اللا سلم واللا حرب؟ ما معنى الضباب الهندي الباكستاني الذي تحدث عنه رئيس الجمهورية؟ ما مدى حجم المساعدات التي يقدمها الإتحاد السوفيتي للجيش المصري؟ هل الخبراء السوفيت بمثابة احتلال؟ كيف تكون هناك حرية صحافة ونجد كل صباح ثلاث جرائد متشابهه الأهرام، والأخبار، والجمهورية؟

سيد مرعي أمين عام الاتحاد الاشتراكي كيف يكون اشتراكيًا وهو من كبار ملاك الأرض؟ هل انتحر عبد الحكيم عامر أم مات مقتولاً؟

قال السادات العام الماضي أن هذا العام عام الحسم لحالة اللا سلم واللا حرب، واليوم يقول لنا بسبب الحرب بين الهند وباكستان أن هناك ضبابًا؟!! هية البلد دي بلدنا وألا بلد مين بالضبط؟ أخواتنا اللي أستشهدوا في ١٩٦٧ وفي معارك الاستنزاف ١٩٦٩ دمهم راح هدر!!! أستشهدوا بلا ثمن!!! ودار الأوبرا أتحرقت وقالوا ماس كهربائي. وكل يوم حريقة في حته ثانية وبرضه الماس الكهربائي!!! كيلو اللحمة بقى بجنيه!!! وسيد مرعي بيسمحوا له يبيع البطيخ اللي بيزرعه قبل ما تتحدد تسعيرة البطيخ علشان يضاعف أرباحه. طبعًا ما هو أمين الاتحاد الاشتراكي!! والقرع مزروع في كل حتة في البلد. إذا كان مجلس الأمة «اللي عاملينه همه» أتغير اسمه من مجلس أمة إلى مجلس شعب بتصريح رئاسى!!! يا عم دا مجلس قرع وكوسة. مجلس تصفيق وموافقون!!!

وكما كان خطاب السادات هو المفجر الذي أدى لهذه التجمعات والنقاشات الطلابية، والتي لم تكن في كلية هندسة القاهرة فقط، بل في كل الجامعات تقريبًا. فإن السيد/ كمال أبو المجد وكان وقتها (أمين عام منظمة الشباب الاشتراكي) هو مفجر اعتصام طلاب هندسة القاهرة. فحينما حضر إلى مدرج

الساوي (أضخم مدرج بالكلية) وإستمع إلى تساؤلات الطلاب وأرائهم، لم تكن لديه أية إجابة. ولم يكن لديه سوى جملة واحدة:

سأنقل وجهة نظركم للجهات العليا وللقيادة والسياسية.. فواجهه أحد الطلاب من قلب كتلة لا تقل عن ثلاثة آلاف طالب غير المحتشدين خارج المدرج. كيف لا تمتلك أي إجابة أو نصف إجابة على تساؤلات الطلاب وأنت أمين عام منظمة الشباب. إننا نقول لك: إننا معتصمون هنا في هذا المدرج حتى تأتي إلينا بالإجابة والرد من القيادة السياسية العليا.

صفق الطلاب المحتشدون وخرج أمين الشباب مهرولاً من المدرج. بدأ الطلاب في الاعتصام بعد أن تم التصويت على قرار الاعتصام.. وكان التصويت بإجماع الطلاب (أكثر من ثلاثة آلاف طالب) ما عدا مندوب الجماعة الاسلامية الذي أعلن رفضه للاعتصام على استحياء وخجل. بدأ الطلاب في تشكيل ثلاث لجان للاعتصام:

لجنة إعاشة.. لجنة دعاية وإعلان.. لجنة نظام و اتصالات بالكليات الأخرى.

جمعت التبرعات لشراء سندوتشات العشاء (فول وطعمية وبطاطس)، وتم خلال ساعة واحدة عمل لافتة من القماش كتب عليها بالخط العريض.

«إعتصام مفتوح لطلاب كلية الهندسة جامعة القاهرة»

تم تعليق اللافتة على الباب الرئيسي لكلية الهندسة لإعلام باقي طلاب الكليات الأخرى. بدأنا في المساء بالكتابة بالخط العريض بالحجرالجيري على أرصفة الأسفلت بكافة الشوارع المحيطة بالكلية وحول صينية النصب التذكارى معتصمون. آل أيه مجلس أمة واللي عاملينه همه.

أنور أنور يا سادات هيه فين الحريات. عايزين نعرف إيه حكاية الضباب الهندي الباكستاني. ليتك لم تتحدث يا سيادة الرئيس. أمين منظمة الشباب بوسطجي لا أكثر ولا أقل.

أنا وبعض الشباب من حيّ داير الناحية كتبنا بالخط العريض الأبيض على الإسفلت بالطباشير: (فلترفع أجور العمال).

جاء إلينا أحد القيادات الطلابية المسيسة ومسح ما كتبناه قائلاً:

- لا.. دي شعارات طبقية. أحنا حركة طلابية ديمقراطية. خلّوا الشعارات وطنية ديمقراطية.

غاظنا ما قاله وأستأنا من تصرفه. قلنا له: احنا نكتب اللي يعجبنا مش اللي يعجبك. أكتب ما تريد. وسنكتب ما نريد.

ذهبنا إلى أحد المحلات في بين السرايات وأشترينا علبة من بوية اللاكيه الحمراء وفرشاة عريضة وعدنا إلى ساحة الجامعة وكتبنا بالخط العريض على الأسفلت:

«فلترتفع أجور العمال والإفراج عن عمال حلوان» والمقصود كان عمال الحديد والصلب الذين أضربوا عن العمل عن ١٩٧١ وتم إعتقالهم. ولم نكن نعرف إن كان أفرج عنهم أم لا؟. ولما جاء هذا المسيس الطلابي عجز عن مسح الشعار فلقد جف اللاكيه على الأرض.. إبن الحارة لا يمكن أن يكون وسط الطلاب وطنيًا ديمقراطيًا وفقط. هذا ما أدركناه وقتها بوعينا الفطري. وعيّ البؤس والفقر في حينا.

هاجم «موسي صبري» صحفي النظام إعتصام طلبة كلية الهندسة في جرائد الحكومة ووصفنا بـ «القلة المنحرفة» ووصف القاعدة الطلابية بالقاعدة السليمة. ثم جاء بعدها ليتناقش مع الطلاب. طردناه من على باب كلية الهندسة. قلنا له: «إذهب أولاً صحح ما كتبته على صفحات جريدتك الحكومية ثم تعال لنتناقش. كيف تشتمنا وتشوه صورتنا أمام الشعب ثم تأتي للنقاش؟ في الماضي قد قلت نعم أطبل وأزمر للسادات فأذهب لمواصلة الطبل والزمر بعيدًا عن أدمغتنا»

أستمر الإعتصام ليلة الثلاثاء ويوم الأربعاء. وفي مساء يوم الأربعاء حضر إلينا وفد من طلاب الكليات المختلفة بجامعة القاهرة. قال رئيس الوفد وزهرة شباب الحركة الطلابية والذي لم يكن يعرفه أحد وقتها والذي أصبح فيما بعد رئيس اللجنة الوطنية العليا للطلاب. تحدث أحمد عبد الله رزة قائلاً بصوته المهيب والجليل:

- أنا زميلكم بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية. لقد اتفقنا جميعًا وبعد مشاورات طويلة داخل الحرم الجامعي والتي ضمت إناسا من كليات مختلفة كما ضمت زملاءكم من لجنة الاتصالات بالإعتصام: على نقل الاعتصام من كلية الهندسة إلى الحرم الجامعي.

وفي صباح الخميس غدًا سندخل جميعًا قاعة الإحتفالات الكبرى لجامعة القاهرة من أجل توحيد الاعتصام ليصبح إعتصام طلاب جامعة القاهرة بدلاً من اعتصام طلاب هندسة القاهرة.

قوبلت هذه الكلمات بالتصفيق والترحيب من الآلاف من طلاب كلية الهندسة وواصل أحمد عبد الله كلماته:

- ولقد اتفقنا أيضًا على أن يقوم طلاب كل كلية بإنتخاب خمسة طلاب إنتخابًا حرًا مباشرًا. ليكون هؤلاء الخمسة هم اللجنة الوطنية للكلية. على أن ينتخب الخمسة واحدًا من بينهم ليكون ممثلاً عن الكلية في اللجنة الوطنية العليا لطلاب جامعة القاهرة والتي ستتكون من المندوبين المنتخبين عن جميع الكليات.

إنصرف أحمد عبد الله. وعقدنا مؤتمرًا ضخمًا لجميع المعتصمين بالكلية. قمنا بانتخاب اللجنة الوطنية لطلاب كلية الهندسة. وكانوا الخمسة كما يلي:

١- أحمد بهاء الدين شعبان

٢- سهام صبري

٣- محمد أبو الوفا

٤-طالب لا أتذكر أسمه لعب دورًا بارزًا في الاعتصام. وكان هذا الطالب هو الذي أعلن الاعتصام في وجه كمال أبو المجد.

٥-كمال خليل.

وتم انتخاب أحمد بهاء الدين شعبان لكي يمثل كلية الهندسة في اللجنة العليا الوطنية لطلاب جامعة القاهرة.

في صباح يوم الخميس ١/١٧/ ١٩٧٢ زحف الطلاب كالنمل على قاعة الإحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة.

تم إحتلال القاعة بجميع أدوارها. شكلنا اللجنة الوطنية العليا لطلاب جامعة القاهرة. عرفنا بعد ذلك أن نفس الشيء حدث بجامعة عين شمس. شكلنا نفس الثلاث لجان السابقة:

لجنة الدعاية والإعلام. لجنة الإعاشة. لجنة النظام والاتصالات.

قمنا باحتلال مطابع جامعة القاهرة. إستولينا على بدروم قاعة الاحتفالات الكبرى حيث توجد به جميع ماكينات الطباعة وأيضًا توجد الآلاف من رزم ورق الطباعة والأحبار.. دارت ماكينات الطباعة بواسطة طلاب كانت لهم دراية بأعمال الطباعة (أكيد ولاد حواري زي حالاتنا. كان يعملون بالمطابع لمساعدة أسرهم) ومنذ هذه اللحظة أصبح الإعتصام اعتصام جامعة القاهرة بعد أن كانت شرارته من طلاب هندسة القاهرة.

إعتصام جامعة القاهرة والكعكة الحجرية

مطبعة الجامعة التي جرى إحتلالها سلميًا من قبل الطلاب، أخذ الطلاب يطبعون عليها منشورات سريعة تعلن عن اعتصام الطلاب بجامعة القاهرة وتوحد الطلاب في إعتصام واحد وتدعو إلى الإنضمام وتعلن عن تشكيل اللجنة الوطنية العليا للطلاب واللجان الوطنية بالكليات.

كان توزيع هذه البيانات يتم على كافة المناطق المجاورة من حي بين السرايات وحي أبي قتاته ومدرسة السعيدية وكليات الزراعة والطب البيطري البعيدة عن الحرم الجامعي وحي الجيزة الشعبي. توافد كثير من المثقفين والشعراء من خارج الجامعة على قاعة الاحتفالات. العشرات في حلقات النقاش بكل طرقه وردهة من الجامع.شعارات على الأسفلت. لافتات من ال قماش.

نقل الإعتصام من كلية الهندسة إلى الحرم الجامعي أعطاه قوة دفع هائلة.. كل كلية انتخبت لجنتها الوطنية وأنتخب ممثلها في اللجنة الوطنية العليا.. تميزت مجلات الحائط بالجمل القصيرة المختصرة أو الكاريكاتير.. والخبر السريع الذي يدعم الاعتصام.

مازال يعلق بالذاكرة. نصف فرخ من الورق كتب عليه بالخط العريض «السادات مخلص.. مخ... لص» وآخر «العسكري مظلوم في الجيش. يا كل عدس ويلبس خيش» وآخر «سرقوا الكستور م العريانين... سرقوا الدواء م العيانين.

هنحارب أمتى مش عارفين»   وثالث
«ما تفرحنيش بكوبري. والعدو بيبني قبري. أنا مش عايز كباري. أنا عايز أعود لدواري» توقيع شاب من السويس.وكانت في هذا الوقت قد بدأت موضة الكباري العلوية.

ورابع «يا مصر الوالي بيغشك. عينه على قرشك عينه على فرشك»

كانت مجلات عبقرية متميزة. كلمات مختصرة بسيطة تعبر إلى الهدف والمعنى.. إختفت المقالات الطويلة والتي تميل إلى التحليل. الوقت وقت إنتفاض. خير الكلام هنا ما قل ودل.

طوال أيام الخميس والجمعة والسبت تقريبًا كان هناك نقاش طويل أعلنت عنه اللجنة الوطنية العليا من أجل صياغة «وثيقة الحركة الطلابية». كان النقاش ديمقراطيًا. والمنصة مفتوحة لكل من يرغب في الكلام وعرض وجهة نظره. أيضًا تم الإستيلاء على الإذاعة ومكبرات الصوت وإدارتها بشكل جيد حتى لا يتم تخريب المؤتمر المنعقد بشكل مستمر بالقاعة، ويحضره بالداخل أكثر من سبعة آلاف طالب. كان عرسًا ديمقراطيًا.

في الإضرابات والإعتصامات يكون للجماهير قوتها وإبداعها. شيئ عظيمً لا تحسه إلا وأنت بينهم.

تقريبًا في يوم الأحد ثم قراءة إقتراح بوثيقة الحركة الطلابية. صاغته اللجنة الوطنية العليا تتويجًا لنقاش الأيام السابقة. أخذ التصويت على الوثيقة وتمت الموافقة عليها بإجماع الطلاب لأنها عبرت عن روح النقاش الذي دار. تم طباعة الوثيقة ببدروم القاعة وبكميات هائلة وتم توزيعها على جميع طلاب الجامعة وعلى جميع المناطق المحيطة بالجامعة وتم توصيلها لجميع صحف الحكومة والتي امتنعت عن نشرها. تشكل وفد من اللجنة العليا للطلاب لمقابلة رئيس الجامعة وقتها(دكتور/ حسن إسماعيل أستاذ

الهيدروليكا بكلية هندسة القاهرة).. وكان رجلاً شديد الإحترام، فبعد أن قرأ الوثيقة التي حوت تساؤلات ومطالب الطلاب لم يكتف بموافقته عليها، بل أصدر بيانًا موقعًا بتوقيعه كرئيس للجامعة بتأييد مطالب الطلاب وتساؤلاتهم المشروعة. وأخذ الطلاب بيان رئيس الجامعة وطبعوه ووزعوه بنفس طريقة توزيع الوثيقة الطلابية...

سلام مربع للطلاب:

في إعتصام طلاب الجامعة يبرز الفارس والشاعر زين العابدين فؤاد بقصائد الثورة الجميلة:

إحنا المساجين المساجين

إحنا ولاد مصر الجايين

إحنا أخوات الشهداء

إحنا الشهداء الجايين

اخواتنا ماتوا على الكباري

وإحنا ولاد نفس الحواري

وعرابي لما انكسر على الحصان

ما انهدت الخيل ولا قلت الفرسان

وتبرز أسماء كالقمر في سماء الجامعة والمجتمع. «أحمد عبد الله رزة» و«سهام صبري» قائدان جماهيريان حينما يتحدث أى منهما في قاعة الجامعة ينصت إليهما الجميع. (بجد لو رميت إبرة تسمع رنتها). إحساس عالي بالبشر. صدق في الكلمات. تتعلم منهما يا من تريد أن تتعلم. تتعلم فن التحريض وفن المخاطبة.

ويبرز أبناء الحركة الطلابية كالورد المفتح في جناين مصر:

«أحمد بهاء شعبان – سمير غطاس – شوقي الكردي – محمد الشبّه –

محمد توفيق – أحمد شرف الدين، شاكرعرفة – العليمي الخ»

بدأ الإعتصام في صباح يوم الخميس ١٧/ ١ / ١٩٧٢ وتم فضه بالقوة الجبرية في فجر يوم الخميس ٢٤ يناير ١٩٧٢.. سبعة أيام هزت مصر كلها. كانت بمثابة عودة الروح. ظللنا من صباح الخميس حتى الثلاثاء تقريبًا نردد كلمة واحدة قاعة ومنصة:

«لن نفض الإعتصام إلا بشرط واحد هو مجيء رئيس الجمهورية هنا إلى القاعة للإجابة عن التساؤلات الطلابية وتلبية المطالب».

لم تكن هناك خبرة كافية فقد كنا شبابًا في سن العشرين والثلاثة والعشرين عامًا. طبعًا كان هذا شرطًا مستحيلاً. لكن هذا الشرط أطال من عمر الاعتصام وهذا شيء جيد.

في صباح الأربعاء عرض على اللجنة الوطنية العليا عرض بإرسال وفود من الطلاب لمناقشة أعضاء مجلس الشعب في مطالبهم. إستجابت اللجنة لهذا العرض وطرحته للمناقشة فلاقي ترحيبًا من جماهير الطلاب. وجهزت إدارة الجامعة عدة أتوبيسات لنقل وفود الطلاب إلى مجلس الشعب.. حرصًا على أن يكون الوفد كبيرًا، فقد كان الوفد يضم كل لجنة وطنية تم إنتخابها من كل كلية (يعني خمسة طلاب من كل كلية). ركبنا الأتوبيسات (اللجان الوطنية بالكليات مع اللجنة العليا) وظل الاعتصام قائمًا. ذهبنا إلى مجلس الشعب بشارع القصر العيني. دخلنا إلى قاعة مجلس القرع والكوسة. وكان رئيس مجلس الشعب في ذلك الوقت هو الدكتور جمال العطيفي. ودارت مناقشات حامية بين قادة الطلاب وبين أعضاء مجلس الشعب الذين كانوا يتحدثون بلغة رجال السلطة وحراسها. بينما الطلاب كانوا يتحدثون بلغة الوثيقة الطلابية وضمير الشعب. إنتزع المتحدثون من قيادات الطلاب التصفيق الحاد حتى من كتلة النواب التي حضرت اللقاء. برز دور أحمد عبد

الله وسهام صبري فى هذا اللقاء. وإنتهى النقاش بطلب متواضع من الطلاب: «نحن مستعدون لفض الاعتصام فورًا إذا أخذنا وعدا بنشر الوثيقة الطلابية في الجرائد الحكومية حتى يعرف الشعب مطالبنا والتي ليست مطالب فئوية للطلاب وإنما هى مطالب عامة تخص المواطنين جميعًا عن حالة اللا سلم واللا حرب وحرية الصحافة والإفراج عن المعتقلين... الخ»

صفق رئيس مجلس الشعب والحاضرون معه من النواب. وعدونا بنشر الوثيقة الطلابية في جرائد الصباح. بل زادوا على ذلك وسنذيع نص الوثيقة في نشرة أخبار الحادية عشرة مساءًا. وقالوا لنا: أتركوا وفدا منكم من ثلاثة أشخاص لكي يرسل الوثيقة للإذاعة ولرؤساء تحرير الصحف..

إنتهى الإجتماع. صفقوا لنا وصفقنا لهم. إعتبرنا إننا وصلنا إلى حل مُرضي. تركنا معهم ثلاثة من زملائنا في اللجنة الوطنية العليا من بينهم رئيس اللجنة. رجعنا في الأتوبيسات إلى الجامعة والاعتصام. لم نكن نعرف أن هناك خديعة. وثقنا فيهم حينما صفقوا لنا. لم نكن ندري أن لهذه السلطة مخالب شرسة وأن أعضاء مجلس الشعب كانوا أمامنا أظافر ناعمة.

أعلنا لجميع الطلاب المعتصمين (وكنا في حوالي الساعة العاشرة مساءًا وكان المعتصمون بالآلاف) ما توصلنا إليه مع أعضاء مجلس الشعب ووعودهم بنشر الوثيقة الطلابية في الصحافة والإذاعة. أإعتبر الطلاب المعتصمون ذلك نصرًا هائلاً بأن تصل مطالبنا للشعب. أعلنا عدم فض الإعتصام إلا بعد حضور زملائنا الثلاثة. إنصرف عدد هائل من المعتصمين. لم يتبق بالقاعة غير ألف طالب. والذين أنصرفوا اعتقدوا أن الاعتصام حقق نتائجه. فتحنا المذياع على صوت القاهرة في انتظار نشرة الحادية عشرة لنستمع للوثيقة الطلابيةحين تذاع. نشرة عادية كجميع النشرات المملة التي تعودنا عليها. لا شيء عن الوثيقة الطلابية ولا شيء عن لقاء اللجان الوطنية بأعضاء مجلس الشعب ولا

شيء عن الوفد الذي لديهم. إنها بداية إكتشاف الخديعة. إتجه تفكيرنا في أنهم اعتقلوا زملاءنا الثلاثة لديهم. لكن بعد وقت قليل حضر الزملاء الثلاثة. وأعلن أحمد عبد الله لبقية المعتصمين إنه عقب إنصراف زملاءنا قال لنا أعضاء مجلس الشعب ورئيسهم، ليس أمامكم إلا أن تعودوا وتعلنوا فض الاعتصام!!! والوثيقة لن تنشر في صحف ولن تذاع في إذاعة!!! لقد كانت خديعة...

ولقد كان هدف السلطة من هذه المناورة هو كسب الوقت، فعيد الأضحى المبارك على الأبواب خلال أيام قادمة.

كان الغيظ يملأ الجميع. آه يا بلد الكدابيين. افترشنا الأرض في طرقات القاعة. لم يكن أمامنا سوى انتظار مجيء زملائنا في الصباح، الذين انصرفوا إلى منازلهم بعد أن أعتقدوا أن الإعتصام قد حقق أغراضه، لعرض الأمر عليهم واتخاذ قرار موحد. لم نكن ندرك أن لهذه السلطة أنياب. ولم يفكر أحد منا في أن قوات الأمن المركزي تستعد لاقتحام الجامعة وفض الاعتصام بالقوة!!!

رحنا في نوم عميق. كانت هذه الليلة باردة. كنا ننام على الأرض ونفرد السجاجيد كبطاطين فوقنا لتلافي برد الشتاء. كانت الليلة هي فجر ٢٤ يناير ١٩٧٢.. وفجأة جاءت مجموعة من فرق الحراسة والنظام من الطلاب التي كانت تراقب بوابات الجامعة. ثلاثة زملاء يصرخون بأعلى صوتهم:

- إصحوا يا زملاء. مجنزرة ضخمة بتقتحم باب الجامعة. قفلنا باب الجامعة بالجنزير لكن المجنزرة تقتحم الباب الآن وخلفها المئات من جنود الأمن المركزي.

أخذنا نصحو من النوم وكل طالب يهز زميله لكي يصحو. إصحي إصحي. الأمن المركزي يقتحم الجامعة. وقفنا جميعًا في القاعة ونحن نشاهد العديد

من طوابير الأمن المركزي المدججين بالبنادق والرشاشات يقتحمون طرقات القاعة في صيحات همجية. وقفت على قدمي. في هذه المرة كنت أرتعش من البرد ومن الخوف أيضًا. إنها معركة حربية. طلاب عزل في مواجهة جحافل مسلحة. (عملتوا إيه في الدنيا دي. آه يا ولادي). صرخ بعض الطلاب: لا بد أن نقاوم. لن نستسلم. أحضروا بعض الشوم والفئوس من مخزن لمعدات الدفاع المدني ببدروم القاعة. دخل ضابط جنرال برتبة حمار. يعلن أنه العقيد أو العميد الفولي من خلال مكبر الصوت:

«كله يسلم نفسه. كل واحد يرفع ايديه الاثنين لفوق. وتخرجوا من القاعة في طابور فردي. أوعدكم بشرفي أنكم هاتروحوا حالاً على بيوتكم. الأوامر عندي من أعلى الجهات بفض الاعتصام»

وهنا أمسك زعيمنا وقائدنا أحمد عبد الله رزة ميكرفون المنصة وألقى أجمل الكلمات في الطلاب:

«أيها الشباب. لن نقاوم. ألقوا العصى والفئوس القليلة على الأرض. القوة غير متكافئة. نحن عزل وهم مدججون بالسلاح. نحن أصحاب كلمة وقلم وفكر. نحن أصحاب مبادئ. معركتنا مستمرة معهم. سنراهن على جماهير الطلاب وعلى الحركة الطلابية. قد نستسلم لهم في هذه اللحظة أمام جحافل قواتهم. لكن الحركة الطلابية لن تستسلم ولن تلين. العقيد الفولي. نقول لك لا تحلف بشرفك. لأن أحنا عارفين كويس أنك معندكش شرف. لا أنت ولا السلطات العليا اللي أعطت الأوامر بإقتحام الحرم الجامعي. لو كان عندهم شرف كانوا نفذوا الإتفاق معاهم بنشر وثيقة الطلاب على الرأي العام!!! «اخواني الطلبة. مشوارنا لسة في أوله. ومادام بدأنا نكمله...»

ورفع أحمد عبد الله يديه إلى أعلى ليشكل أول طابور للمعتقلين. خرجنا جميعًا رافعين الأيدي والرؤوس. وسط الجنود المدججين بالسلاح. خرجنا من

القاعة إلى الحرم الجامعي في طابور فردي طويل وشابورة الصباح تملأ المكان. وفجأة انطلق وبدون ترتيب من أحد وبشكل تلقائي صفير بالفم من أحد الطلاب أتبعه الجميع. نغمة الصفير تنطلق من بين شفاة الألف معتقل. تغرد:

«بلادي بلادي بلادي. لك حبي وفؤادي»

لم يكن سيد درويش يدرك حينما خلق هذا اللحن الجميل أن ذلك اللحن وعلى نغماته سوف يحشر الطلاب المعتقلين كل ٤٠ فرد في عربة أمن مركزي. وما زالت الشبورة قائمة. ما زال الصفير مستمرًا داخل العربات. خمسة وعشرون عربة تسير في طابور طويل.. منطلقة من أمام باب الجامعة إلى تمثال نهضة مصر إلى كوبري الجامعة إلى شارع صلاح سالم إلى معسكر أمن مركزي بالدراسة.. طوال الطريق لم تنقطع نغمة الصفير «بلادي... بلادي» لم نكن نعرف إلى أين نحن ذاهبون؟ بشكل عام نعرف إننا ذاهبون وراء الشمس.

دخلنا إلى أحد إسطبلات الخيول في معسكر الدراسة. مكان فسيح حشرنا فيه ورائحة الروث تنبعث من المكان. والأسطبل له حائط خارجي تتخلله عدة شبابيك. وعلى كل شباك من الخارج يقف عدد من الجنود مدججين بالسلاح للحراسة. الشيء الوحيد الذي كنا نعرفه وقت أن وصلنا لمعسكر الأمن المركزي هذا أن العقيد الفولي ليس عنده شرف. كانت كلماته ترن في أذن الجميع «بشرفي كلكم مروحين حالاً لبيوتكم»!!!

جلسنا في مجموعات متجاورة. طلبة وطالبات نتجاذب أطراف الحديث. كان السؤال المطروح في ذهن كل منا ماذا سيفعل زملاؤنا حينما يذهبون إلى الجامعة ويعرفون أننا اعتقلنا في الفجر؟ هل سيتحركون؟!! هل سيخافون؟!! في تلك الليلة لم ننم. في التاسعة صباحًا حضر إلينا أحد الجنرالات بزي مدني

وأخذ يحدثنا: «الجامعة فتحت صباح اليوم. الدراسة منتظمة بالجامعة. القاعدة الطلابية سليمة وأنتوا فعلاً مظلومين. إحنا عايزين منكم فقط ٣٠ طالب همه المشاغبين. وبعد كده كل واحد هيروح لبيته. وعلى فكرة كل اللي كانوا معتصمين معاكم منتظمين في الدراسة!!!!»

ثم قرأ علينا أسماء الثلاثين المطلوبين. عقب هذه الكلمات أمسكنا جميعًا بأيدي بعض. جعلنا الثلاثين مشاغبًا في وسط الدائرة. أحطناهم كحائط صد. خرج الهتاف الشهير:

«يا نعيش سوا... يا نموت سوا» يهز أركان الأسطبل. وأخرج سمير غطاس من جيبه كتيبا صغيرا كان هو نص الدستور المصري وأخذ يقرأ بسخرية:

«حرية الرأي مكفولة للجميع!!! لا يجوز اعتقال مواطن بسبب أرائه ومعتقداته السياسية!!! الخ»

لم يستطيعوا أن ينتزعوا طالبًا واحدًا من بين الألف طالب. تشابكت السواعد وشكل الألف طالب سلسلة بشرية متصلة. من حين لآخر كان بعضنا يذهب للعساكر على الشبابيك نسألهم:

هل توجد مظاهرات بالخارج؟ وكانت الإجابة جاهزة: الأمور عادية ومفيش أية مظاهرات.

في الواحدة ظهرًا شاهدنا من الشباك أحد الجنود مصابًا ومحمولاً من زملائه وكانوا قادمين به من الخارج لداخل المعسكر.سمعنا أحد الجنود يقول لزميله:

- يا عم تعال شيل معايا. المظاهرات مولعة الدنيا برة. المظاهرات وصلت لميدان التحرير.

سرى الخبر كالهشيم وسط الألف معتقل. تعالت الهتافات:

«حركة طلابية واحدة. وكلنا يد واحدة. يا نعيش سوا يا نموت سوا». استنتجنا

إن الستة آلاف طالب الذين غادروا الاعتصام بالأمس على أن الاعتصام حقق أغراضه، قد تحركوا حينما جاءوا في الصباح وعرفوا أنه تم اعتقالنا في الفجر.

والذي حدث ولم نكن نعرفه أنه بعد إعتقالنا ظهرت جرائد الصباح وطبعًا ليس بها وثيقة الطلاب. وإنما تحتوي على خبر إغلاق الجامعات المصرية لمدة شهر. وأحيطت الجامعة بقوات ضخمة من الجنود لمنع الطلاب من دخول الجامعة ومواصلة الاعتصام. ولما تجمع الطلاب خارج الكردونات العسكرية التي تمنعهم من دخول الجامعة انطلقوا بالمظاهرات نحو ميدان التحرير. وتم نقل الإعتصام من جامعة القاهرة أو عين شمس إلى ميدان التحرير، وشكل إعتصامهم كعكة حجرية من البشر تلف صينية ميدان التحرير. وكانت أيام الأربعاء والخميس والجمعة (٢٤،٢٥، ٢٦ يناير ١٩٧٢) من الأيام الجميلة في تاريخ شعبنا بميدان التحرير. لكننا كنا في هذه الأيام الحلوة داخل الاسطبل خلف الأسوار. وقلوبنا كانت في التحرير. واصحى إصحى يا جماهير. ورد بلادك في التحرير.

عند المغرب جاء إلينا الجنرال الكداب مرة ثانية. واعترف في حديثه بأن هناك مظاهرات من أجلنا في ميدان التحرير. وأنه صدر قرار بالإفراج عنا. تم تجميعنا في الـ ٢٥ عربة أمن مركزي مرة ثانية. كل ٤٠ في عربة. سارت العربات إلى مبنى مكون من عدة طوابق يحيط به فناء. عرفنا بعد ذلك أنه معهد أمناء الشرطة بمنطقة سجون طره.

كل ٤٠ طالب أدخلوا في عنبر من عنابر المبني بأحد الطوابق. كل عنبر به أسرّة نظيفة. أحضروا لنا طعاما من مربى وعسل نحل وبيض وجبن. إعتبرنا أن ذلك من مقدمات الإفراج (أسرّة وطعام جيد) وكان الأمر كذلك، لكن أمورهم دائمًا لا تخلو من خديعة. لماذا تم نقلنا من الإسطبل إلى عنابر معهد أمناء الشرطة؟

في الإسطبل تشابكت الأيادي وكون الألف معتقل سلسلة بشرية لم يتمكنوا من خلالها انتزاع الثلاثين طالبًا. (كان بالطبع يمكن إنتزاعهم بالقوة. ولكن بمعركة سوف يسقط فيها ضحايا من الطرفين).

أما في معهد أمناء الشرطة والذي يتكون تقريبًا من سبعة طوابق، فإنه تم تفريقنا على مجموعات متباعدة ليسهل عليهم إنتزاع الثلاثين من بيننا. جلسنا نأكل الطعام بعد يوم من العناء الطويل. وهنا سمعنا صوتًا جميلاً من الطلاب وقف يغني على شباك أحد العنابر. توجهنا ناحية الشبابيك. عرفنا أننا في مكان واحد لكننا متفرقين داخل العنابر. صاح زميلنا:

ومنين أجيب ناس لمعاني الكلام يتلوه

الطالب في البلد دي

لما اتكلم يا ناس أعتقلوه

الحادثة اللي جرت على شاب مصراوي

الإسم طالب لكن في الأصل مصراوي

مواله شعبه وشعبنا ظلموووووه.....

واسترسل في الموال بنفس طريقة محمد رشدي في موال أدهم الشرقاوي لكنه قد قلبه على الطلاب وقال:

الطالب دخل المعتقل سنة تمنتاشر

وقعد في المعتقل لما بلغ مية وتمنتاشر

وفي السن ده جاله خبر أنور

زعق الطلاب من الشبابيك أنت عايزنا نعقد هنا ١٠٠ سنة كمان. ورد آخر وعايز أنور السادات يحكمنا ١٠٠ سنة كمان»!!!

ولم يدرك الطلاب وقتها أن هناك حاكمًا سيأتي ليحكمنا أكثر من ربع قرن و... وياعالم!!

كانت ليلة جميلة وكان مصدر جمالها إن زملاءنا يواصلون القضية في الشارع في ميدان التحرير.. وعرفنا أن أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام نزلا إلى إعتصام ميدان التحرير. وهنا فقط عرفت من هو أحمد فؤاد نجم الذى وجدت قصيدته تحت النخلة (رطب نجم). وقرأنا بعد ذلك عندما أفرج عن الجميع قصيدة الكعكة الحجرية للشاعر العظيم أمل دنقل. وقرأنا أيضًا البيانات السبعة لإعتصام التحرير. شاهدتها مع من شاركوا في الإعتصام. كان العنوان دائمًا (بيان رقم ١) أو (بيان رقم ٥). وكل بيان لا يزيد عن سبعة سطور تمت كتابتها بالورق والكربون تحوي مطالب سريعة مثل الإفراج عن الطلاب المعتقلين. حرية الصحافة. رفض حالة اللا سلم واللا حرب.

غنى إمام ونجم مع المعتصمين «جيفارا مات». الحياة تتفتح. والجسور تتلاحم. وأخرج نجم وإمام قصائد وأغنيات جديدة:

«رجعوا التلامذة يا عم حمزة للجد تاني. رجعوا التلامذة ورد الجناين»

وكان أشهر الشعارات للطلاب في ميدان التحرير:

«العيد ده مش عيدنا. دا بياكلوا ف لحم اخواتنا. يا نعيش أحرار في بلدنا. يا نموت ويا اخواتنا»

كنا من حي داير الناحية أربعة طلاب من كلية الهندسة نشارك في الاعتصام. شاكر عرفة – سمير الشربيني – عبده مصطفى – كمال خليل. عبده مصطفى شارك طوال أيام الاعتصام وانصرف في ليلة الخديعة مع الستة آلاف طالب (ليلة اللقاء مع أعضاء مجلس الشعب). أما نحن الثلاثة فتم إعتقالنا مع الألف طالب. كنا دائمًا نسير خلف بعض. ونحرص على أن نكون في عربة واحدة. وأيضًا حرصنا على أن نكون في عنبر واحد داخل معهد أمناء الشرطة. كنا نتوقع أن نكون نحن الثلاثة من الثلاثين المطلوبين.

دخل على عنبرنا أحد الضباط ونادي على أسم (محمد توفيق) وأخذوه من بيننا جميعًا، وخرج توفيق وهو ينشد قصيدة محمود درويش:

وطني يعلمني حديد سلاسلي

عنف النسور ورقة المتفائل

ما كنت أعلم أن تحت جلودنا

ميلاد عاصفة وعرس جداول

وكان توفيق من أبرع رسامي الكاريكاتير. وكان من أبرز أعضاء جماعة أنصار الثورة الفلسطينية. فقد كان قادرًا على عمل معرض كامل بالرسومات والأشعار والأفكار عن قضية ما خلال نصف ساعة، وكان يصنعها أمامنا في ساحة الكلية بعدة زجاجات من الحبر ذي الألوان المختلفة وبضعة أخشاب من البوص وقطع قليلة من القطن.. كان شخصًا دمثًا رقيقًا تحس فيه بالأخلاص. كان من محافظة الدقهلية وكان فقيرًا فقيرًا لذلك كنت أحس أنه من أبناء داير الناحية. واحد من نفس طبقتنا (أين أنت يا توفيق الآن؟ كم أحبك وأفتقدك) بعدما أخذوا توفيق رجع الجنرال ثانية ونادي شاكر عرفة فودعنا شاكر وذهب معهم. أما أنا فكنت متأكدًا أن الجنرال سيعود ثانية وينادي كمال خليل، لكن ذلك لم يحدث.جلسنا أنا وسمير الشربيني على الأسرّة والدموع في عيوننا. لقد أخذوا توفيق ثم شاكر. عرفنا وقتها لماذا فرقونا وتمت تجزئتنا في هذه العنابر اللعينة!! لقد اقتطعوا من جسدنا الثلاثين.

وطوال الليل كنا نأخذ أربعين أربعين إلى مبنى في وسط القاهرة عرفنا فيما بعد أنه مبنى مباحث أمن الدولة بلاظوغلي. في الدور الرابع كان يجلس جنرال مع الأربعين القادمين من معهد أمناء الشرطة ويلقى عليهم نفس الأسطوانة المشروخة:

«القاعدة الطلابية سليمة. فيه مخطط أجنبي ضد مصر. الثلاثين اللي

أخذناهم طلعوا عملاء لكوريا الشمالية. وبتوع كيم إيل سونغ. دول مخربين. دول شيوعيين. إنتو ناس وطنيين. علشان كدة أفرجنا عنكم ومش في كل مرة بتسلم الجرة. بصوا بقى لدراستكم وأهاليكم ولما تتخرجوا أبقوا اعملوا اللي أنتو عايزينه. الطالب طالب علم فقط»

كنا جميعًا نستقبل تلك الكلمات بإستهجان ونقول لهم الثلاثين اللي اتاخدوا مننا أشرف ناس، وها تشوفوا. بس لما الجامعة تفتح.

سجن القلعة و الإستئناف

دخلنا (أنا وسمير الشربيني) إلى حي داير الناحية بعد الإفراج عنا من مبنى لاظوغلي. كنا حائرين والحزن يملؤنا. هل نذهب إلى بيوتنا؟ أم نذهب إلى بيت شاكر عرفة؟ ماذا سنقول لأمه؟ ماذا سنقول لأبيه؟ أخذوا شاكر وأفرجوا عنا !! لكنا قررنا أن نذهب لبيت شاكر أولاً. ذهبنا. كانت الدموع تترقرق في عيني أمه الحنونة وأخواته. أما أبوه فقد كان رجلاً شامخًا وحنونًا أستقبل كلامنا بابتسامة هادئة قائلاً:

- وماله طالما يا كمال أنت وسمير رجعتوا كأن شاكر رجع. اوعى اشوف دمعة في عينيكم. وشاكر راجع راجع يعني همه هيعملوا فيه إيه؟!. زيه زي الثلاثين إخواته. هيرجعوا..

كان رجلاً عظيمًا وكنا نتعامل معه جميعًا كأب لنا لأنه كان رجلاً حكيمًا. ورغم كبر سنه كنت أشعر معه أثناء الحديث بالحيوية والشباب (رحمك الله يا أبا شاكر).

بعد ذلك توجهنا أنا وسمير إلى بيتي وتجمع جميع أبناء الحي في ٢٩ شارع داير الناحية حارة سيدي الأربعين. أمي وأخواتي وأبناء الحي جميعنا نشعر بلوعة شديدة على عدم عودة شاكر عرفة. أنا وسمير نحكي عما حدث. نحكي ونبكي.

محمد خليل يحاول أن يلطف من الجو ويحكي لنا عن مظاهرات التحرير

والكعكة الحجرية. أحد أبناء الحي يقول:

- لقد شاهدت إعلانا سينمائيًا كبيرًا بأحد الميادين لفيلم أجنبي أسمه «عشيقة نفسها». ذهلت عندما لمحت طالبًا يصعد على عامود نور بجانب الاعلان ويكتب بجوارإعلان الفيلم جيهان السادات ليصبح أسم الفيلم «جيهان السادات عشيقة نفسها». لقد صفق له جميع الواقفين أسفل الإعلان وصاروا يهتفون «العيد ده مش عيدنا».

كان هذا يوم الجمعة تقريبًا ليلة وقفة عيد الأضحى أو أول أيامه لا أتذكر. أحضرت أمي شوربة ولحم وقالت:

- كلوا يا ولاد تلاقيكم هافتنين. بكرة شاكر يرجع هو واخواته كلهم.

سهرنا حتى الصباح ثم نمت. نمت نومًا عميقًا أحلم بشاكر وبأحمد عبد الله وبأسطبل الأمن المركزي بالدراسة.. ويا نعيش سوا يا نموت سوا. والطالب دخل المعتقل سنه ١٨ وقعد في المعتقل لما بلغ ١١٨. وكيم إيل سونغ الزعيم المحبوب من الشعب الكوري بالإضافة إلى ٣٠ طالب بجامعة القاهرة. والسادات مخ لص. وجيهان السادات عشيقة نفسها. وشبورة الفجر في الحرم الجامعي. وشرف العقيد الفولي. والكعكة الحجرية.

قمت من النوم في المغرب. إرتديت ملابسى. قالت أمي مداعبة:

- على فين يا ابو عرام؟ خد بالك أخوك عبد المنعم بيقول أنك لازم هتكون من الـ ٣٠.

قلت لها:

-يا ريت كنت أستريح وأكون مع شاكر..

قالت:

- يا واد بكرة شاكر هيرجع. بس خد بالك من نفسك.

نزلت إلى الشارع. سرت إلى ميدان الدقي. دخلت أحد محلات العصير.

خرجت من المحل. لاحظت أن هناك سيارة تسير خلفي. سرت في الإتجاه العكسى لحركة سير السيارة. لاحظت أن هناك من يتعقبوني خارج السيارة. جريت ناحية فرن الجهاد. جريت مسرعًا داخل حواري داير الناحية. عدت إلى البيت. رويت لأمي وأخي عبد المنعم ما حدث. أخذ أخي يهدأ من روعي. أروي له ما حدث لكنه كان يقول لي:

- دي تهيؤات.. محدش كان وراك...

وفجأة وجدنا نصف دستة من تيران المخبرين والضباط يقتحمون المنزل ويقبضون عليّ،وأمي ترفع يديها للسماء مهددة للضباط:

- يا رب اللي يمد أيده على ابني تتقطع ايده. يا رب اللي يعذب ابني. يفرمه ترماي. أنا ابني يتيم واللي هيعمله حاجة هتقعد له في عياله.

رغم بساطة هذا الدعاء والذي كانت تعتقد أمي أن سيحميني من أي أذى لضباط أمن الدولة لاحظت أنه يبث الرعب حقا في قلوبهم...

كانت أمي تقاوم بطريقتها (يا سلام يا أم عبده يا ست الكل)

أخذوني في سيارة ملاكي. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أركب فيها سيارة ملاكي تسير داخل حواري الحي. أجلس في الكنبة الخلفية وحولي اثنان من المخبرين. وفى الأمام أحمد همام ضابط أمن الدولة والذى أصبح محافظًا لأسيوط فيما بعد. سارت السيارة إلى طريق صلاح سالم ومنه اتجهت إلى مرتفعات القلعة. إنه سجن القلعة المخيف. كنت أسمع عنه من أخي ومن الطلاب. الرعب كان يملأني. لماذا سجن القلعة؟ أكيد فيه تعذيب. أنا لا أخاف التعذيب. لكني أخاف أن ينتزعوا مني اعترافات على زملائي. أي اعترافات يريدونها؟!!! كل شيء كان معلنا داخل قاعة الاحتفالات الكبرى. وثيقة الطلاب كانت معلنة. مجلات الحائط معلنة. خلاص يبقى مفيش غير حكاية كيم ايل سونغ. طلع لنا منين ده سي كيم مش عارف. يمكن يقولوا قول أن

أحمد عبد الله وأحمد بهاء وسهام دول خونة. لأ دول ناس أشرف من الشرف. ووطنيين أكثر من السادات وعصابته. يا ترى إيه سجن القلعة ده؟ العربة الملاكي تصعد إلى منحنيات وسط الظلام. وجنود يحرسون بوابات. والعربة تمر من بوابة لأخرى. بيت الرعب. حتى وصلنا إلى بوابة خشبية مغلقة. فتحت البوابة. وضعت العصابة السوداء على الأعين. ضلمت خلاص. إمسك أعصابك. يا نعيش سوا. يا نموت سوا. الخوف يكاد يخلع قلبي. سمعت صوتًا يقول:

- ده كمال خليل الأصلي.

لم أفهم شيئًا من الجملة. سترك يا رب. أحسست بيد خشنة تأخذني من ذراعي. دخلت زنزانة. رفعت العصابة من على عيني وعين طالب آخر أدخل معي إلى الزنزانة. ثم قفل باب الزنزانة. وجدنا شخصًا عملاقًا جالسًا على الأرض. أسود اللون طويل القامة عيناه محمرتان. وقف ناهضًا. الطالب الذي كان معي أخذ يصرخ:

- أنا ما عملتش حاجة... أنا ما عملتش حاجة.

لقد اعتقد أن هذا العملاق الأسمر هو الذي سيقوم بتعذيبه. وأنا اعتقدت كذلك. لكننا فوجئنا بهذا العملاق ينطق في طيبة شديدة:

- متخافوش أنا طالب معتقل زيكم. أنا إسمي بشير من طب عين شمس.

أخذنا نضحك نحن الثلاثة. لقد كان بشير شخصًا جميلاً ورائعًا. كانت عيناه محمرتان من شدة الإرهاق. أخذ يحكي لنا عن إعتصام جامعة عين شمس وكيف تم القبض عليه. ونحكي ونحكي ويتم نقلنا كل يوم من زنزانة لأخرى، وفي كل زنزانة نتعرف على طلاب جدد من جامعات أخرى وكليات أخرى. كانت السجون فرصة للتعارف وتكوين الصداقات والعلاقات الحميمة..

ظللت مع أكثر من أربعين طالبا في سجن القلعة. لم نتعرض لأي تعذيب سوى عمليه الصعود المرعب للسجن. والزنازين العالية التي لا يوجد ببابها

سوى ثقب واحد. استنتجنا داخل سجن القلعة أن قصة الثلاثين هي قصة وهمية. وأن الأمور تقترب على الأقل من مائة شخص، ويا عالم!.

بعد ثلاثة أو أربعة أيام تم نقلي مع خمسة من الطلاب في عربة ترحيلات إلى سجن آخر. بعد أن قالوا لنا: إفراج.

وجدت نفسي أمام بوابة سجن كتب عليها «دار الإصلاح والتقويم. سجن الاستئناف»

إعتقدت إنها إصلاحية وليست سجنا. إصلاح وتقويم تبقى إصلاحية. فتح باب السجن. في فناء السجن وبعد أن عبرت البوابة وجدت أمامي كل من أحببتهم. شاكر عرفة/ أحمد عبد الله/ زين العابدين فؤاد/ أحمد بهاء شعبان/ وآخرين لم أكن أعرفهم. أحمدك يا رب. أخيراً التقيت بهم.

أخذت أحكي لهم قصة لاظوغلي ومحل عصير القصب والقبض عليّ، وهم يبتسمون. فهمت من شاكر أنهم كانوا قد قبضوا من الدور الأول بمعهد أمناء الشرطة على طالب أسمه كمال خليل من كلية الزراعة. لذلك لم يتم نده أسمي في الدور السابع. وأثناء التحقيق اكتشفوا أنه طالب بكلية الزراعة وليس الهندسة فأفرجوا عنه ثم ذهبوا لإعتقالي. مكثت مع شاكر في زنزانة واحدة. كان معنا في هذه الزنزانة بعض الطلاب والدكتور نادر فرجاني أحد أساتذة الجامعة في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية والذي كان يؤيد الحركة الطلابية. وأيضًا كان معنا المحامي النبيل محامي الشعب نبيل الهلالي. بدأنا نتعرف على سجن الاستئناف ودرب سعادة الممر الخلفي للسجن. ومكان تهريب الرسائل السرية لخارج السجن. يكفي أن تكتب رسالتك وتضعها في نصف رغيف مثل شقة الفول والطعمية وتربطها بخيط. وتطوح شقة الخبز بيديك لتمر من فوق سور السجن لتكون في يد صديقك الذي ينتظر الرسالة في درب سعادة. تعرفنا أيضًا على غرفة الإعدام بسجن الاستئناف. يشنق

الرجال بسجن الاستئناف. تشنق النساء في سجن الحضرة. السجن بجوار محكمة الاستئناف. في الليل كان يأتي إلينا بعض الأقارب ويحدثونا من أسفل ونحدثهم ونحن مشعلقون على الشبابيك الحديدية للزنازين. تعلمنا كيف نربط البطانية السوداء بحديد الشباك في الزنزانة ونجلس عليها كمرجحية. طبعًا يا ابني بقينا رد سجون خلاص. شاهدنا التوتو والمبسم واللي يعيش ياما يشوف. وسمعنا أناشيد واحد يا ورد وأتنين يا فل. بقينا عيال كفاحتية.

قبل أحداث اعتصام هندسة القاهرة كنت قد قدمت على سلفة من بنك ناصر. وأخذت سلفة عشرين جنيه (مرة واحدة) اشتريت بوتاجاز لأمي أربع عيون بدون فرن (بـ ١٨ جنيه). واتشبرقت بـ ٢ جنيه. لما حضر أخي محمد خليل من عند محكمة الاستئناف ينده عليّ أنا وشاكر ركبت البطانية وقلت له:

- أنا كويس. متخافش عليّ أنا مع شاكر ودكاترة الجامعة. قول لأمي تخلّي بالها من البوتاجاز.

كنت أقصد أن أخفف عن أخي محمد لأنه كان عاطفياً وشديد التأثر عندما يرانا داخل السجن. كنت أقصد أن أرسل رسالة لأمي مازحًا معها بموضوع البوتاجاز. أنا مش عارف دلوقتي البوتاجاز ده راح فين؟ ولسة عايش ولا لأ..

إستمرت هذه الحبسة بالنسبة لي لمدة عشرة أيام. بعدها دخل الزملاء في مجموعات إفراجات متتالية. وحينما انتهى الشهر الذي أغلقت طواله الجامعة بدءا من يوم ٢٤ يناير كان الجميع قد أفرج عنهم جميعًا. وفي الأسبوع الأول من افتتاح الجامعة نظمنا مظاهرة كبرى طافت بالحرم الجامعي. في هذه المظاهرة اكتشفت نفسي. بشكل تلقائي وفوري أخذت أهتف دون ورقة مكتوبة ودون إعداد سابق للشعار. وكانت هذه أول شعارات ينطقها لسانى:

من حقوقنا يا جماهير

حق النشر والتعبير

مش هنخاف مش هنخاف

لا من قلعة ولا استئناف

مش هنخاف مش هنخاف

دا احنا بناكل العيش الحاف

خلوا الفقرا تشوف النور

زودوا لهم الأجور

سيد مرعي يا سيد بيه

كيلو اللحمة بقى بجنيه

قولوا للنايم في عابدين

العمال بيناموا جعانين

شربوا الفقراء المر سنين

يا ما ليالي باتوا جعانين

شربوا المر وشربوا القهر

وبيستلفوا طول الشهر

وجاءني المسيس الذي مسح شعار (فلترتفع أجور العمال) من أعلى أسفلت الشارع مع بدء اعتصام هندسة القاهرة. يا زميل خلّي الشعارات وطنية ديمقراطية.. فابتسمت له قائلاً:

الشعب اتهان. الشعب اتذل

بقت العيشة خل في خل...

ضحك وقال:

- أنت مفرزه شعارات.

قلت له:

- سيد مرعي دا يبقي مين
يبقى حرامي الفلاحين

وانتهى عام ١٩٧٢، ومع نهايته اختفى شيء أسمه اللجنة الوطنية العليا للطلاب. واختفت اللجان الوطنية التي انتخبت من مؤتمرات جماهيرية. تم حلها بدون إعلان. لماذا لم تستمر اللجان الوطنية كشكل تنظيمي جماهيري للحركة؟. ظل هذا السؤال يراودني دائمًا. لا أجد سوى الصمت من قادة الحركة. كنت أرى أننا نهدم ما بنيناه بسهولة وبدون سبب مفهوم؟. وكان البعض يجيب أن الحركة ستفرز أشكالاً جديدة. دخلنا في موسم الامتحانات. ثم الأجازة الكبيرة. وكان صيفًا ساخنًا. وقل لي إلى أين المسير في ظلمة الدرب العسير؟

خريطة الحلقات
والتنظيمات الماركسية بالجامعة

في يوليو ١٩٧٢ إنضممت إلى حلقة (الطليعة الثورية الإشتراكية) وكانت هذه الحلقة تصدر مجلة شهرية سرية تسمى «شروق»، وقد شاع اسم هذه الحلقة بأسم المجلة، وكان يطلق عليها مجموعة شروق، وإنضم إلى هذه الحلقة عدد غير قليل من أبناء الحي (داير الناحية وعزبة أولاد علام). وعرفت فيما بعد أثناء الحركة الطلابية عام ١٩٧٣ وداخل سجن القناطر (من١١ فبراير ١٩٧٣ حتى ٣ أكتوبر ١٩٧٣) أن هذه الحلقة تضم عددا كبيرا من الطلاب داخل جامعة القاهرة وعلى الأخص بكلية هندسة. وكانت جميع أفكار هذه الحلقة ورؤيتها السياسية قد طبعت في كتاب خارج مصر بقلم (ط. ث. شاكر) و(ط) يعني طليعة و(ث) يعني ثورية ولا أدري حتى الآن ما العلاقة بين كلمة شاكر واشتراكية. ربما أضيفت كلمة شاكر للدلالة على أن شخصًا ما هو مؤلف هذا الكتاب، فتم الخلط بين الحروف التي تشير لإسم الحلقة والإسم الحركي للمؤلف. عرفت بعد سنوات أن مؤلف هذا الكتاب هو المناضل (ميشيل كامل) رحمه الله...

إطلعت على أعداد مجلة شروق لشهور (من يوليو حتى يناير ١٩٧٣) حوالي سبعة أعداد تقريبًا. بعد ذلك كنت في سجن القناطر. علاوة على وثيقتين

أتذكر عنوان أحدهما «التحريفية هي الخطر الرئيسي في الحركة الشيوعية المصرية».

هذه الحلقة كان لها بعض رموز من قيادات الحركة الشيوعية القديمة. كانوا يكتبون مقالات علنية بأسمائهم الشخصية في مجلة الكاتب. هذه الحلقة إعتقل عدد غير قليل من قياداتها أثناء الحركة الطلابية في عام ١٩٧٣ وكان من أبرز الأسماء المعتقلة في ذلك الوقت (نبيل الهلالي – أديب ديمتري – فوزي حبشي – جميل حقي وآخرين)... هذه الحلقة اندثرت من الوجود في أكتوبر ١٩٧٣ لأنها دخلت (قبل ذلك بشهور) في محادثات للوحدة وإندمجت مع مجموعات أخرى لتكوين ما يسمى بالحزب الشيوعي المصري.. لكن عند الإندماج رفضت مجموعتان من داخلها هذا الإندماج وأعتبرت كل مجموعة (بشكل منفرد) أن الرؤية السياسية الناشئة عن الإندماج رؤية يمينية ولا تمت بصلة للرؤية السياسية التي تبنتها حلقة شروق.

تنظيم شروق هذا كان عمره قصيرًا. ولأي باحث يريد أن يحدد المنظومة الفكرية والسياسية لهذه المنظمة ينبغي أن يرجع إلى ما يلي:

١- كتاب ط. ث شاكر.

٢- الأعداد السرية لمجلة شروق الشهرية من بداية صدورها حتى شهر أكتوبر تقريبًا.

٣- مقالات لبعض رموز وقيادات هذا التنظيم بمجلة الكاتب وعلى الأخص مقالات أديب ديمتري عامى ٧٢،٧٣.

٤- بعض الوثائق التي أصدرها التنظيم وأعتقد أنه لا توجد حاليًا (عام ٢٠٠٧) نسخ منها سوى في أرشيف أجهزة المخابرات ومباحث أمن الدولة.

من خلال عملي بتنظيم شروق عرفت أن هناك تنظيماً ماركسياً آخر يسمى (ت. ش. م) تنظيم شيوعي مصري وكان يطلق عليه اسم (تشم). وكان هذا

التنظيم أوسع وأكبر من «شروق» وقد تحول بعد ذلك هذا التنظيم إلى حزب العمال الشيوعي المصري. وكانت مجلته «الإنتفاضة» تصدر بشكل منتظم. وقد أصدر هذا التنظيم عددا من الكتيبات الهامة والتي كانت تطبع خارج البلاد وتهرب إلى الداخل، وكان حزب العمال الشيوعي أو «تشم» في ذلك الوقت يمثل الإتجاه الراديكالى و الأكثر جذرية في مواجهة الدولة، ويمكن التعرف على المنظومة الفكرية والسياسية لهذا التنظيم من خلال:

١- كتيب طبيعة السلطة والتحالف الطبقي بقلم شيوعي مصري.

٢- المسألة الزراعية (مناظرة مع كتاب إبراهم عامر الأرض والفلاح) بقلم صالح محمد صالح.

٣- ورقة حدود أكتوبر.

٤- أعداد مجلة الانتفاضة والتي كانت تصدر في وتيرة سريعة ومنتظمة تقريبًا كل أسبوع.

إستمر هذا التنظيم أو حزب العمال الشيوعي فعالاً وحيويًا حتى انتفاضة يناير ١٩٧٧، لكن حدثت إنشقاقات بداخله منذ تقرير صدر في مايو ١٩٧٦.. ومر بعد ذلك بحالة من الأزمة التنظيمية الداخلية سميت داخل التنظيم بمرحلة الإنحراف البيروقراطي.

وإذا تحدثنا عن الحركة الطلابية (من أكتوبر ١٩٧٢ إلى أكتوبر ١٩٧٣) فإن التواجد الفعلي والمؤثر للتنظيمات الماركسية في الجامعة كان لمجموعتين رئيسيتين هما:

مجموعة «شروق» ومجموعة «تشم» عدا ذلك لتجمعات ماركسية ذات تواجد ضعيف وغير مؤثر.أو أفراد ماركسيين مستقلين.

بعد عام ١٩٧٣ إندثرت شروق وإنضم غالبية عضويتها للحزب الشيوعي المصري عدا المجموعتين اللتين رفضتا خط الحزب الشيوعي المصري وهما:

مجموعة كنت أنتمي إليها ودخلنا بعد ذلك إلى «حزب ٨ يناير»
ومجموعة أخرى أطلقت على نفسها اسم «المطرقة».

وحتى لا يحدث أي إختلاط على القارئ في خريطة التنظيمات الماركسية في الحركة الطلابية فإنه يمكن تلخيصها كما يلي:

* (أكتوبر ٧٢ – أكتوبر ٧٣): كان التواجد المؤثر لمجموعتين: «تشم» + «شروق»

* (أكتوبر ٧٣ – أكتوبر ٧٤): كان تواجد الحلقات الماركسية فى الجامعة كما يلى:

حزب العمال الشيوعي + حزب ٨ يناير + المطرقة + تواجد شكلي للحزب الشيوعي المصري وجماعة التيار الثورى.

* (أكتوبر ٧٤ – أكتوبر ٧٥):كانت الحلقات كما يلى:

حزب العمال الشيوعي + ٨ يناير + المطرقة + (العصبة....تنظيم مصطفى خميس)+ تواجد شكلي للحزب الشيوعي المصري وجماعة التيار الثورى.

* (أكتوبر ٧٥ – أكتوبر ٧٦):كنت الحلقات كما يلى:

حزب العمال الشيوعي + ٨ يناير + المطرقة + التروتسكيين (العصبة) + المؤتمر + الحزب الشيوعي المصرى وجماعة التيار الثورى (تواجد شكلي).

أي أن الجامعة في الفترة من أكتوبر ٧٢ وحتى أكتوبر ١٩٧٦ شهدت تواجدا لسبعة منظمات ماركسية. كانت العلاقة بينهم تناحرية. وورثت كل أمراض ماسمى بالحركة الشيوعية الثانية في العصبوية والإنقسام.

ومع النصف الأول من الثمانينات كان مصير جميع هذه المنظمات إما التحلل أو الإنفجار إلى شظايا أو التواجد الغير مؤثر. ومع منتصف التسعينات كانت جميع هذه التنظيمات في الباي باي.

أقول ذلك والدمع نازف وأبتلع ريق المر وطعم الرزايا.

شباب الإسلام وقدامي الطلبة
وتكتيك حرب العصابات

عام ١٩٧٣ كان عاما ساخنا جدًا. النظام الحاكم وجنرالاته في لاظوغلي مصممين على وأد أي تحرك طلابي في مهده. كان الهدف هو استئصال مجلات الحائط وتفريغ حلقات النقاش من الطلاب.

شهد هذا العام التحالف والتنسيق المباشر بين مباحث أمن الدولة والتيار الاسلامي. فقد كان هذا التيار بمثابة العصا الغليظة ضد الحركة الطلابية داخل الجامعة. كان الأمن المركزي خارج الجامعة مسلحا بالخوذات والعصى والقنابل المسيلة للدموع. وكان التيار الاسلامي داخل الجامعة مسلحا بالمطاوي والجنازير...

دخلنا الجامعة في أكتوبر ١٩٧٢. فى الأسبوع الأول علقت لافتة ضخمة كأفيش السينما داخل فناء كلية الهندسة جامعة القاهرة كتب عليها بالخط العريض « حزب الله في مواجهة حزب بالشيطان»

وكان مفهومًا لنا أن حزب الله هو الدولة ومخبريها وجنرالاتها في تحالفهم مع التيار الإسلامي الذي كان السادات أفرج عن معتقليه من الإخوان المسلمين في بداية حكمه وأعاد لهم إصدار مجلة الدعوة. ومغازلة لهذا التيار كان السادات يبدأ خطابه بكلمة «باسم الله». وينهي خطابه بالدعاء

الديني. أما حزب الشيطان فهو كان مفهوما لنا أنه الحركة الطلابية والطلاب الماركسيين والتيارات الديمقراطية. في ذلك الوقت كان المعلوم للجميع وحتى للسلطة ذاتها أن التيار الإسلامي هو الإخوان المسلمين وفقط. لكن الخافي والمختفي(وقتها) هو أن هذا التيار كان يتشكل بداخله أنوية لتنظيمات إسلامية جديدة مثل التكفير والهجرة والتبليغ والدعوة والجماعة الإسلامية وغيرها. لم يكن أحد يعلم عنها شيئًا. وجد النظام في التيار الإسلامي وبحكم عداءه للشيوعية وللتيارات اليسارية أفضل حليف له في مواجهة الحركة الطلابية، وتحويل الصراع من صراع حركة طلابية ضد دولة ديكتاتورية إلى صراع بين (طلبة من الشيوعيين) و(طلبة من الإسلاميين) بما أطلق عليه (طلبنة الحركة) مثل (فتنمة الحرب بين فيتنام شمالية وفيتنام جنوبية)..

لقد استلهم النظام خبرة ودرس الحركة الطلابية في عام ١٩٤٦ حينما تحالف إسماعيل صدقى مع الإخوان المسلمين، وجعلهم يشكلون «اللجنة القومية للطلاب» في مواجهة «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» واستخدموا الأسلحة والجنازير ضد الطلاب.

دخلنا الكلية والعديد من الملصقات تدعو للإنضمام لجماعة «شباب الإسلام». وخلال أيام تشكلت الجماعة ووجدنا قائدًا لها يدعى «عدلي مصطفى». طالب بكلية الهندسة يقف أمام مجلات الحائط يبدأ كلمته ب «بسم الله الرحمن الرحيم».. ثم ينتقل بكلامه لعبارات: قال الله وقال الرسول. ثم يحرض ضد الشيوعية والشيوعيين. ثم يأمر أتباعه بتمزيق مجلات الحائط بالكلية. وضرب الطلاب الشيوعيين الذي يصدرون هذه المجلات.

كان يلتف حول (عدلي مصطفى) هذا حوالي مائة شخص نصفهم من أتباعه والباقي عناصر من خارج الكلية بعضهم مدرب جيدًا على أعمال الكاراتيه. بعد أن ينتهي عدلي من كلماته يبدأ الضرب وتنقلب ساحة الكلية. ومع

الضرب يتم تمزيق مجلات الحائط وفض حلقات النقاش.

لم يكتف النظام بذلك داخل هندسة القاهرة، بل إلى جوار جماعة (شباب الإسلام) تشكلت جماعة أخرى تحت إشراف مباحث أمن الدولة وهي جماعة (قدامي الطلبة) وكان عمل جماعة (قدامي الطلبة) يكمل عمل (شباب الإسلام) فمن المعروف أن حوالي ٣٥٪ فقط من الطلاب الذين يدخلون كلية الهندسة هم الذين يحصلون على بكالورويوس الهندسة بعد ٥ سنوات. أما ٦٥٪ من الطلاب فهم يتخرجون بعد ٦، ٧، ٨، ٩ أو ١٠ سنوات وأكثر. تمكنت أمن الدولة من تجنيد بعض الطلاب من قدامي الطلبة وكان ذلك إبداعًا مباحثيًا. حيث يقف أحد هؤلاء القدامى بعد تمزيق مجلات الحائط وضرب الطلاب يرتدي طربوشًا أحمر بذر. يقف على أحد الكراسى ويلقي قصائد شعر عامية تتندر من عدد السنوات العشرة الذي قضاها بالكلية وما زال طالبًا في السنة الثانية. وقصائد زجل ساخرة من الدراسة وصعوبتها. وكان الزجل مصاغا بطريقة شيقة وجميلة. وكان الهدف بعد معارك الكاراتيه وتمزيق المجالات نقل الطلاب إلى حالة من السخرية والضحك لفض حلقات النقاش بشكل طبيعي. كان المشهد اليومي طوال شهري نوفمبر وديسمبر داخل هندسة القاهرة هو مشهد متكرر:

تظهر جماعة شباب الإسلام في فناء الكلية. يبدأ (عدلي مصطفى) في إلقاء خطبته الدينية. تنتهي الخطبة بتمزيق مجلات الحائط ومطاردة الطلاب اليساريين بفرق الكاراتيه. جمهور الطلاب في البداية لم يكن يفهم ما يحدث. يعتقد البعض أنها مشاجرة بين الإخوان والشيوعيين. والكل يفر جاريًا أمام فرق الكاراتيه.

بعد ربع ساعة تبدأ جماعة (قدامي الطلبة) في ارتداء الطرابيش وإلقاء الأشعار الساخرة. يقف الطلاب حولهم يضحكون على حالهم وعلى سنوات

رسوبهم!!!

الهدف هو: وأد مجلات الحائط وحلقات النقاش اللتين يؤديان إلى تجمع الطلاب.

كان لحزب الله جماعتان: (شباب الإسلام) و(قدامي الطلبة)

وكان لحزب الشيطان جماعتان: (أنصار الثورة الفلسطينية) و(جواد حسني)!.

كان هذا في هندسة القاهرة. أما في باقي الجامعة والجامعات فقد أثبتت الوقائع والأحداث قصة التنظيم الذي كان يقوده محمد عثمان أحد رجالات الدولة بالاتحاد الاشتراكي بمحافظة أسيوط والذى كان يسلح عناصره ويخطط لهم لضرب القيادات الطلابية الماركسية وكانت أغلب عناصر هذا التنظيم من التيار الإسلامي.

سلاح التكفير أستخدمه النظام الحاكم (هو والتيار الإسلامي) ضد الطلاب المعارضين وضد التيارات الماركسية داخل الحركة. لم يكن النظام يدرك أن نفس السلاح سوف يستخدمه التيار الإسلامي في إغتيال رأس النظام وذبحه في ظهيرة ٦ أكتوبر ١٩٨١ لإنه كافر لم يحكم بما أنزل الله!!!.

في كلية الحقوق جامعة القاهرة ومع استقبال إتحاد طلاب الكلية لطلبة السنة الأولى، أخذ رئيس الإتحاد الموالي للدولة ولأجهزة الأمن يحذر الطلاب من الشيوعيين الكفرة. والناس اللي ليهم لون محدد بتوع الحركة الطلابية. ولما وقفت طالبة من طلبة السنة الأولى لتطلب منه سماع وجهة النظر الأخرى تقدم أحمد شرف الدين عضو جماعة الدراسات الإشتراكية بالكلية ليشرح مطالب وأهداف الحركة الطلابية، فإستطاع إجتذاب الغالبية العظمى من الحاضرين من الطلاب للتعاطف مع الحركة الطلابية. ومع تصفيقهم له بدأت مطاوي وجنازير فرق محمد عثمان في الظهور والضرب وإرهاب

الجميع. على أثر ذلك تم طعن أحمد شرف بمطواة في فمه وأصيب بجرح قطعي في شفاه ظل واضحًا طوال عمره فوق فمه (٣ غرز خياطة) وصلاح موسى جرح قطعي في الجبهة (٤ غرز) وشاب من الإسماعيلية طالب بكلية الحقوق (لا أتذكر أسمه الآن) جرح قطعي في الجانب الأيسر (٦ غرز) كادت تصل المطواة إلى كليته اليسرى. نقل الطلاب الثلاثة من جماعة الدراسات الاشتراكية إلى المستشفى. لقد كان الضرب بجنون ووحشية من خلال إتحاد الطلاب ومخبريه مع فرق التيار الإسلامي التي شكلها محمد عثمان. الغريب في الأمر أن السادات ذاته روي هذه القصة في أحد خطبه بالمقلوب.قال كاذبا:

«كان فيه مؤتمر في كلية الحقوق وقفت طالبة في المدرج تقول: إين هو الله؟ حد يقدر يثبت إنه موجود؟ وحطت ايديها في جيبها وقالت: لا يوجد شيء أسمه الله. طبعًا الطلبة ثارت وقامت الخناقة والضرب»

كذب ما بعده كذب واستخدام سلاح التكفير عند العجز السياسي وتشويه المعارضين بأي صورة وأية وسيلة. بشر ينوبون عن الله لمحاسبة الآخرين. محاكم تفتيش فاشلة أبتدعها الإسلاميون بالتحالف مع النظام الحاكم طيلة سنوات السبعينات. وكانت أعمال الغدر والدسيسة هي النمط السائد من قبل أجهزة الأمن تجاه الطلاب. فلقد كان هناك مجلتا حائط اسم كل منهما «الإعتصام»...

الإعتصام الأولى: كان يصدرها الطالب والشاعر والمهندس عصام الغزالي. ويكتب تحت عنوان المجلة الآية الكريمة (واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا). وكان عصام ذاميول إسلامية لكنه كان إنسانا دمث الخلق يعبر عن خلافه السياسي بصراحة ويرفض التعامل مع أجهزة الأمن. بإختصار كان إسلاميًا صادقًا.

الإعتصام الثانية كنت أصدرها أنا وبعض زملائي نسبة إلى إعتصام الجامعة

في العام السابق.

في المساء وبعد إنفضاض الطلاب إلى منازلهم. أعطت المباحث أوامرها لأحد عملاءها بتمزيق الإعتصام الأولى مع المحافظة على الإعتصام الثانية. وتم استدعاء الطالب عصام الغزالي لمباحث أمن الدولة. فلما ذهب قالوا له:

- الشيوعيين مزقوا مجلتك لأنهم كفرة. ولدينا معلومات أنهم سيمزقون أي مجلة تصدرها باسم الإعتصام.

أما المخبر الذي أخذ التكليف فلم يستطع التميز بين الإعتصام الأولى والإعتصام الثانية فمزق جميع المجلات التي عليها كلمة الإعتصام. وفي الصباح وجد الغزالي مجلته ممزقة. فأتجه نحوي بغضب شديد صارخًا:

- لماذا تمزقون مجلتي؟ لأنني مختلف فكريًا معكم.

فقلت له:

- أنظر.. إن مجلتنا أيضًا ممزقة..

ولصدق عصام الغزالي (أبن المنصورة) والشاعر الرقيق فإنه عقد مؤتمرًا طلابيًا أعلن فيه كل ما دار معه من حديث داخل مبنى مباحث أمن الدولة حينما أستدعوه ليلاً، وفضح أكاذيبهم ومحاولتهم للوقيعة بين الطلاب. ولهذا السبب تم إعتقال عصام الغزالي مع زملائه الطلاب حينما بدأت حملة الاعتقالات في ٢٩ ديسمبر ١٩٧٢.

عقلية جنرالات الداخلية لا تعرف سوى أسلوب المؤامرة. ودائمًا يجنون الخيبة الثقيلة...

(طبقة سطيحة...... وعاملة فصيحة..... وجايبة العار)

النفخة الكذابة والغرور والغباء والسطحية تلك هي سماتهم الأصيلة... جنرالات لاظوغلي لا يفلحوا إلا في تنفيذ أوامر الاعتقال والتعذيب. لقد كان يصدر داخل كلية الهندسة ما لا يقل عن عشرين مجلة حائط أشهرها:

* القرع مجلة كاريكاتير كان يصدرها طلعت فهمي.

* الكوسة كان يصدرها محمد محمد فتيح.

*بلدي كان يصدرها شاكر عرفة وكمال خليل.

* والاعتصام مثل بلدى.

* الثورة مجلة حائط لسان حال جماعة أنصار الثورة الفلسطينية يحررها سهام صبري ومحمد توفيق وماجد أدريس وإبراهيم عزام.

* الكلمة كان يصدرها ناهد سعد زغلول ومحمد عابدين.

* جواد حسني مجلة حائط لسان حال جماعة جواد حسني يحررها أحمد بهاء شعبان وعبد العزيز شفيق وماجد الصاوي وعماد عطية ومنير مجاهد.

* الأرض تصدرها جماعة الأرض المهندسة عزيزة والمهندسة خديجة.

* بهية كان يحررها أحد الطلاب لا أتذكر أسمه وكانت مجلة جميلة ومتجددة.

* ياسين مجلة يحررها المهندس ياسين وكنت إتجاهاتها يمينية وضدالتيارات اليسارية.

* مجلة الجماعة الدينية كانت لسان حال الجماعة الإسلامية.

* مجلة حائط كان يصدرها الطلاب المسيحيون.

* الاعتصام يصدرها عصام الغزالي.

* أراء حرة يصدرها وائل عثمان والذي أصدر كتابا بعنوان أسرار الحركة الطلابية وكان ذاميول يمينية..

كان فناء كلية الهندسة يمتلأ بمجلات الحائط لكل من يريد أن يحرر مجلة.

ظللنا لمدة أسبوعين نتلقى الضرب الموجع من فرق الكاراتيه بعد خطبة عدلي مصطفى. وكان الضرب يبدأ مع تعليق مجلات الحائط، ودائمًا يبدأ بطلعت فهمي محرر مجلة القرع لأن المجلة كانت تجذب جمهور الطلاب

نحوها. وكان مشهد طلعت فهمي وهو يجري مهرولاً وضاحكًا أمام فرق الكاراتيه منظرًا معتادًا فى تلك الأيام...

طرد الخبراء السوفيت
وبعض التساؤلات

عندما أتخذ السادات قرارا بطرد الخبراء السوفيت تمكنا من عقد مؤتمر طلابي حول قرار السادات وساعدنا فيه زملاؤنا الطلاب من الحرم الجامعي. كشفنا في المؤتمر تناقض السادات بين ترديده الدائم في جميع خطاباته بأن الاتحاد السوفيتي وقف إلى جانبنا في أحلك الظروف. وبين ما قام به السادات من طرد الخبراء السوفيت. وهذا الحادث يطرح صدق ما جاء في تساؤلات الطلاب في وثيقة يناير حول حجم مدى مساعدات الاتحاد السوفيتي لنا.

الحقيقة كان هناك إنقسام في الرأي بين الطلاب حول هذا الموضوع بين مؤيد لقرار السادات ومعارض له. وكان تقريبًا جميع فرق اليسار بالجامعة تعارض هذا القرار وكان إنحيازها للمعارضة من منطلق مواجهة المحتل وأيضا من منطلق إنحيازها الأيديولجى.

هل كانت خطوات السادات (وقّف يا صادق) ثم طرد الخبراء السوفيت هي خطوات خداعية للعدو الصهيوني من أجل التحضير لحرب أكتوبر؟ هل كان قرار طرد الخبراء السوفيت خطوة في اتجاه مغازلة الإدارة الأمريكية والغرب بشكل عام؟ أم هو خداع ومغازلة في نفس الوقت؟! لا أحد كان يدرى فى الماضى.ولا فى الحاضر. فحينما تغيب الحرية عن مجتمع. ويحكم

البلاد حزب أوحد وديكتاتور أوحد. لن يكون هناك مجال للنقاش والمعرفة. ولن يكون هناك مجال للجماهير لأن تلعب دورًا في تحديد مصيرها. مصيرنا دائمًا يحدده ديكتاتورأعلى وقيادة عليا...

السادات كان يناورويخادع ولكن من أجل ماذا؟

من أجل أهداف بعيدة أوصلتنا إلى سفارة للعدو الصهيوني على أرض مصر وتطبيع واتفاقيات استسلام للعدو الصهيوني. ونعم كان يغازل الإدارة الأمريكية من أجل تدعيم نظام حكمه والطبقة الحاكمة. ثم سار مبارك على طريقه بصدق وأصبحت مصر تدار تقريبًا من البيت الأبيض.

الشىء الوحيد الذى كان صادقا فى ذلك الوقت هو تساؤلات الطلاب التى طرحت فى وثيقة يناير والتى لم يجبهم أحد عليها(حتى الآن) عن مدى حجم المساعدات السوفيتية لنا؟؟؟ لاشك إن هذا الحجم كان يخضع لظروف الحرب الباردة ولمصالح الإتحاد السوفيتى.

ففى عام ١٩٥٦ كان الإنذار الروسى، وفى عام ١٩٦٧ لم يكن هناك إنذار روسي ولا يحزنون رغم أن عدوان ٦٧ كان هو الأخطر،وكان عدوانا على ثلاث دول عربية!

المهم بعد المؤتمر الذي عقد بمدرج الساوي حول قرار السادات بطرد الخبراء السوفيت، قام البلطجية من أنصار جماعة شباب الإسلام وعناصر المباحث بالكلية بالإعتداء على زميلنا أحمد بهاء الدين شعبان بالشوم والعصي. وكاد الضرب فوق الرأس أن يدفع ببهاء إلى حافة الموت. حملناه سريعًا إلى مستشفى القصر العيني مغشيًا عليه. فعلاً ديمقراطية لها أنياب كما كان يتحدث السادات.

ماذا نفعل؟ ضرب مبرح من فرق البلطجية بشكل يومي!!! إتهامات بالكفر

والإلحاد!!! إتهامات بالعمالة للاتحاد السوفيتي!!!

لولا الصمود لتمكنت الدولة من مصادرة مجلات الحائط وفض جمهور الطلاب عنها. كان الصمود كل يوم يكشف أبعاد المخطط المباحثي ويفضح عناصر التيار الإسلامي لجمهور الطلاب. لكن طاقتنا كانت بدأت على النفاذ. فمجلة الحائط التي يجري إعدادها في أربعة ساعات على الأقل، يتم تمزيقها في دقائق قبل أن يقرأها أحد. كثفنا من اجتماعاتنا خارج الكلية. عند النقاش كان هناك وجهتا نظر:

الوجهة الأولى: أن نتسلح في مواجهة فرق الكاراتيه بالشوم للدفاع عن أنفسنا وعن مجلات الحائط. لكن الأغلبية رفضت هذا الاتجاه لأنه سيعزز من مخطط أجهزة الأمن. والطلاب لن ينحازوا لأي طرف من طرفين مسلحين بالشوم. سيرى الطلاب أن الأمر خناقة بين طلاب من اتجاهات مختلفة (إسلاميون وشيوعيون)...

الوجهة الثانية: كانت ترى أن الصمود أمام البلطجة وعدم التسلح هو الذي سيكشف المؤامرة. وهو الذي سيجعل الطلاب يكتشفون المخطط. وحينما يتحقق ذلك سيتمكن الآلاف من الطلاب الذي اشتركوا في اعتصام يناير ١٩٧٢ ومظاهرات التحرير (الكعكة الحجرية) بسحق فرق الكاراتيه. وحينئذ تكون المعركة معركة جماهير الطلاب ضد عملاء أجهزة الأمن بما فيهم الإسلاميين.

تمخض هذا الرأي عن أهمية تشكيل لجان من الطلاب بكل كلية للدفاع عن الديمقراطية، والدفاع عن مجلات الحائط وحلقات النقاش. كما أتبعنا تكتيك الإنتشار الواسع.بمعنى عدم تركيز مجلات الحائط في منطقة واحدة (فناء الكلية) لأن ذلك يسهل على عملاء الأمن سرعة تمزيقها وأمام الطلاب المتواجدين في الفناء فقط...

قررنا نشر مجلاتنا ودعايتنا بين جميع مباني الكلية وفي المدرجات. فحينما

يمزقوها سيكون ذلك أمام الآلاف من الطلاب في أماكن متعددة. كما أتبعنا أسلوب العبارات السريعة التي تكتب في دقائق وذلك لسهولة كتابتها مرة ثانية وبسرعة بعد تمزيقها.

إنها حرب قررنا أن تكون حرب عصابات. انتشار واسع. دعاية سريعة. خفة في الحركة. تشتيت لقوة العدو. إذا تصدى البلطجية لدعايتنا ومزقوها في مكان ما، ففي أماكن أخرى دعايتنا لم تمزق. وعندما يمزقون دعايتنا في مكان وينتقلون لمكان آخر سوف نزرع دعايتنا في المكان الأول بسهولة وكتابتها في دقائق معدودة.

بدأنا نطبق هذا التكتيك لمدة ثلاثة أسابيع متتالية. وكل يوم كنا نكشف المخطط الإجرامي أمام جماهير الطلاب ونكشف لهم عن العلاقة بين (جماعة شباب الإسلام) و(جماعة قدامي الطلاب). شيئًا فشيئا بدأت جماهير الطلاب داخل الكلية وفي الجامعة تكتشف الحقيقة. وفقدت أزجال قدامى الطلبة بريقها لدى الطلاب. وعرف الطلاب إنها دعوة للمسخرة بدلاً من حلقات النقاش. تحددت وجوه العناصر المباحثية الإسلامية لجمهور الطلاب. بدأ الطلاب في التصدي لفرق الكاراتيه بالهتاف: «مباحث.. مباحث». وأصبح عدلي مصطفى وأعوانه يتلقون الإهانات من الطلاب مثل: «هوه الإسلام أمرك بالبلطجة وتكفير الناس». «انتوا عملاء لأجهزة المباحث تتستروا بالإسلام».

نجحت لجان الدفاع عن الديمقراطية بالجامعات والكليات المختلفة في إفشال المخطط الأمني لإجهاض الحركة الطلابية. تصدت جماهير الطلاب لعملاء المباحث وفرق الكاراتيه والتيار الإسلامي. عادت مجلات الحائط تزدهر في الكليات ومن حولها حلقات النقاش والندوات والمؤتمرات.

واجتمعت جماعة جواد حسني وأنصار الثورة الفلسطينية. وقررنا تنظيم زيارة لمدينة السويس. والإلتقاء بالأهالي الصامدين داخل مدينتهم وبفرقة

أولاد الأرض. تحدد ميعاد الزيارة يوم الجمعة ٢٩ ديسمبر ١٩٧٢. وفي يوم الخميس ٢٨ ديسمبرألقى السادات خطبة سياسية على الشعب كانت جميعها عن الأحداث في الجامعة. ذكرنا في الخطاب بالديمقراطية ذات الأنياب وأخذ يتحدث قائلاً: «اليسار جوه الجامعة بيحرض. واليمين مبسوط وبيضحك في كمه. اليسار المتطرف بيتحالف مع اليمين المغامر. والقاعدة الطلابية سليمة»

لم يتوقع أحد أن يقوم النظام في فجر الجمعة ٢٩ ديسمبر وعقب الخطاب بساعات قليلة بالقبض على الصف الأول من قيادات الحركة الطلابية.

لقد فشل مخطط طلبنة الحركة وشباب الإسلام وقدامي الطلبة. لم يكن أمام النظام سوى الإعتقال.

في الصباح الباكر ذهبت إلى منزل صديقي وزميلى بالكلية شاكر عرفة لكي نسافر معًا إلى السويس. خرج أبوه إلى الشباك يشاور لي بالإبتعاد عن المنزل قائلا «المباحث عندهم فوق جايين يقبضوا على شاكر».

أطلقت قدمي للريح. ذهبت إلى مكان الأتوبيس الذي كان سينقلنا إلى السويس. عرفت هناك أن سهام صبري وأحمد فتيح وأحمد بهاء شعبان وأحمد هشام وعصام الغزالي وغيرهم قد تم القبض عليهم في الفجر. قمنا بزيارة مدينة السويس. وفي هذا اليوم توالت الأخبار بإعتقال أحمد عبد الله رزة رئيس اللجنة الوطنية العليا وحوالي ٩٥ طالبا من الجامعات المصرية المختلفة.

إعتصام يناير ١٩٧٣
ومظاهرات الشوارع وإغلاق الجامعة

من صباح السبت ٣٠ ديسمبر ١٩٧٢ وحتى الأربعاء ٣ يناير ١٩٧٣ كانت الحركة الطلابية تموج بالمظاهرات الواسعة التي استمرت يومي السبت والأحد بالكليات المختلفة والحرم الجامعي. بدأت المظاهرات تتجه نحو الحي الشعبي المجاور للجامعة (بين السرايات). وبدأت تربط في شعاراتها بين قضايا الحريات والعداء للصهيونية وتحرير سيناء وبين القضايا الاجتماعية:

أصل الوالي يا ناس مش داري
بهم الفقراء في الحواري
شربوا الفقرا المر سنين
يا ما ليالي باتوا جعانين
شربوا المر وشربوا القهر
وبيستلفوا طول الشهر
هنحارب امتى؟ مش عارفين!!!.

دكتور حسن يا اسماعيل
بص وشوف أول رعيل

الرعيل الأول راح
واحنا هنضم الجراح
والرعيل التاني طالع
وإن خطفونا من الشوارع
كل شباب الجامعة طالع
تاني وثالث رابع طالع
بكرة ها ييجي الدور عليك
ويحطوا الحديد في أيديك
بكرة تردد جوه الحلق
شباب الجامعة كان على حق
شوفوا تنظيمهم السياسي
ضد أهلى وبلدى وناسى
سيد مرعى دا يبقى مين
يبقي حرامى الفلاحين.
وسى محمد بيه عثمان
دا إقطاعى من زمان.
ومحمود عبد الآخر
ما هو حرامي هوه راخر
يا أساتذتنا يا أساتذتنا
المباحث نايمة في بيتنا
يا بتوع روجرز يا بتوع سيسكو
بكرة الشعب الواعي يدوسكو
حرب التحرير الشعبية

دي سياسية الشعب الثورية.

ضد امبريالي ورجعية

ضد الهليبة الحرامية

ضد سياسية الرأسمالية

سلحونا سلحونا

على سيناء وابعتونا

«الدكتور حسن عثمان هو رئيس الجامعة ذلك الوقت، ومحمد عثمان طبعا هو منسق أعمال البلطجية مع الاسلاميين ضد الحركة الطلابية. أما التنظيم فهو تنظيم الإتحاد الإشتراكي ومحمود عبد الآخر أحد قياداته بينما روجرز وسيسكو وزيرا خارجية اميركا.

وفي هندسة القاهرة كانت بداية الشعارات:

ماتقول لنا ياسيادة الوالي

فين عصام الغزالي؟

(حيث تم القبض على عصام الغزالي ضمن قائمة الرعيل الأول)

فين فتيح؟ فين سهام؟

فين بهاء؟ فين هشام؟

(فتيح: أحمد فتيح – سهام: سهام صبري – بهاء: أحمد بهاء الدين شعبان – هشام: أحمد هشام عبد القادر).

وتم إقتحام قاعة الإحتفالات الكبرى بجامعة القاهرة يوم الأحد أوالاثنين بإعداد غفيرة من الطلاب.

تم الإعتصام بالقاعة لمدة ٣ أو ٤ أيام، لكن هذا الإعتصام لم يكن بنفس قوة إعتصام يناير ١٩٧٢.

حيث تأثر هذا الإعتصام باعتقال الصف الأول من القيادات الطلابية. وتقريبًا

الغالبية العظمى من أعضاء اللجنة الوطنية العليا للطلاب، ومعظم العناصر الهامة والنشطة بالكليات المختلف، مما أثر على الحركة وعلى الإعتصام ذاته. لكنه علي أى حال لم يكن إعتصامًا ضعيفًا، لكن كان أقل قوة من الإعتصام السابق. هذا علاوة على أن الإعتصام السابق سبقه اعتصام طلاب هندسة القاهرة مما أعطاه قوة أكبر، حيث أن كلية الهندسة بجميع أقسامها المختلفة (ميكانيكا – كهرباء – مدني – كيمياء – تعدين – طيران الخ) وفرقها المختلفة، تعادل عددا من الكليات مجتمعة من حيث أعداد الطلاب ذلك الوقت. كما كانت كليات الهندسة تضطلع بالدور القيادي للجامعات في القاهرة وعين شمس والمنصورة وأسيوط..

تم طرح وثيقة «البرنامج الوطني الديمقراطي» للحركة الطلابية من خلال الإعتصام. وكانت هذه الوثيقة أرقى وأعمق من وثيقة اعتصام يناير ١٩٧٢، حيث طرحت الأمور بشكل أكثر وضوحًا. ففي نظرتها لقضية الديمقراطية، تحدثت الوثيقة عن حق الجماهير في تشكيل تنظيماتها السياسية والنقابية بشكل مستقل عن الدولة.

وحرية إصدار الصحف المستقلة. ورفض أن تكون عضوية الإتحاد الإشتراكي العربي شرط لعضوية النقابات المهنية. وعن حق الجماهير في الإعتصام والإضراب والتظاهر. بينما وثيقة يناير ١٩٧٢ كانت تتحدث عن رفض مبدأ التعيين فى الإتحاد الإشتراكى ولم تتطرق لحق التنظيم المستقل خارج الإتحاد الإشتراكى.

كذلك طرحت جانبا متقدما فى القضايا الإجتماعية مثل: الحديث عن ربط الأجور بالأسعار ووضع حد أدنى للأجور لا يقل عن ٣٠ جنيه (بأسعار هذا الوقت) والحديث عن وضع حد أعلى للأجور بعشرة أمثال الحد الأدنى. مثل هذه القضايا لم تكن مطروحة فى وثبقة يناير١٩٧٢.

كذلك تحدثت وثيقة يناير ١٩٧٣ عن أهمية المواجهة مع الكيان الصهيوني من أجل تحرير الأراضي العربية المحتلة وسيناء. وإعداد الإقتصاد كإقتصاد حرب. وأن حرب التحرير الشعبية هي الطريق الوحيد للإنتصار على العدو الأمريكي الصهيوني. بينما كانت وثيقة ٢٤ يناير ١٩٧٢تطرح القضية الوطنية في صورة تساؤلات.

كان من الطبيعي والمنطقي أن تكون وثيقة إعتصام يناير ١٩٧٣ أكثر نضجًا وأكثر عمقًا من حيث الطرح السياسي، فتفاعل الطلاب معًا يطور من رؤيتهم للواقع، وفي الحركة تنضج الرؤى والبرامج.

لكن كان هناك فارق بين اعتصام ١٩٧٢ و إعتصام ١٩٧٣. إعتصام ٧٢ كان فعل طلابي وكانت السلطة فى حالة رد الفعل. أما اعتصام ١٩٧٣ فكان رد فعل طلابي على إعتقالات ٢٩ ديسمبر ١٩٧٢ التي شملت عشرات الطلاب من الجامعات المختلفة.

كان اعتصام ١٩٧٢ يطلب الطلاب فيه مسئولين للمناقشة. أما في يناير ١٩٧٣ فإنهم كانوا أمام مهمة الإفراج عن زملائهم الذين أودعوا بالسجون.

تم إقتحام القاعة. وتم تشكيل لجنة عليا لقيادة الإعتصام. وتم صياغة «وثيقة البرنامج الوطني الديمقراطي الطلابي». وتم أيضًا الإستيلاء على مطابع الجامعة. تكرر كل ما حدث في يناير ١٩٧٢. لكن الأمور ساءت على عجل وبشكل سريع.

كان الخروج إلى الشارع يلح على المعتصمين من أجل الإفراج عن زملائهم. وبالطبع كان إعتقال قيادات الصف الأول له تأثيره في تقليل قوة الدفع للحركة. أيضًا كان إعتقال الطلاب من القاعة في فجر ٢٤ يناير١٩٧٢ هاجسًا قائمًا في أذهان جميع الطلاب المعتصمين. وفي ظهر الأربعاء ٣ يناير ١٩٧٣ قرر المعتصمون فض الإعتصام والخروج إلى الشارع.

خرجت مظاهرة كبرى ضمت أكثر من ١٥ ألف طالب. بدأت بثلاثة آلاف من قاعة الاحتفالات، ثم طافت بالحرم الجامعي واتسع عددها. كان الطلاب في المقدمة يحملون العلم المصري بطول أكثر من ٢٠ مترا، وهو العلم الذي كان منصوبًا فوق منصة قاعة الاحتفالات الكبرى. عند النصب التذكاري أنقسمت المظاهرة إلى قسمين كبيرين:

قسم اتجه ناحية تمثال نهضة مصر ليسلكوا طريق كوبري الجامعة نحو ميدان التحرير.

وقسم اتجه للباب الرئيسي لحديقة الأورمان من ناحية شارع الدقي ليسلك طريق شارع الدقي فميدان الدقي فشارع التحرير فميدان التحرير.

وعند كلية الفنون الجميلة تشكل قسم ثالث من الطلاب حاول أن يتجه إلى حي بين السرايات فشارع ملاعب الجامعة فشارع التحرير فميدان الدقي فميدان التحرير.

كانت أجهزة الأمن قد أعدت عدتها طوال الأيام السابقة، وهي تختزن في ذاكرتها كيف تجمع الطلاب في صباح ٢٤ يناير بعد اعتقال زملائهم من الإعتصام في الفجر، واستطاعوا أن ينطلقوا من أمام حديقة الأورمان وتمثال نهضة مصر إلى ميدان التحرير وشكلوا إعتصام الكعكة الحجرية في صينية ميدان التحرير.

حشد الأمن قواته بكثافة في الثلاثة محاور السابق ذكرها مستهدفًا عدم وصول الطلاب إلى ميدان التحرير سواء من جامعة القاهرة أو من جامعة عين شمس. (لأنه تقريبًا كانت تدور نفس الأحداث بجامعة عين شمس). ودارت معركة ساخنة بين قوات الأمن المركزي وطلاب جامعة القاهرة من الواحدة ظهرًا حتى الواحدة مساءًا، تمكن الأمن فيها من حصار الطلاب خلف أسوار الجامعة. كانت معركة طاحنة أستخدم فيها الأمن الهروات والقنابل

المسيلة للدموع وبعض الرصاص المطاطى. واستخدم الطلاب ما توفر لديهم من طوب للمقاومة. ١٢ ساعة وحرب طاحنة أستماتت فيها قوات الأمن على ألا يصل أي طالب لميدان التحرير.

لكن رغم هذا الحصار تمكنت كتيبة مقاتلة قوامها ١٥٠ طالب من أن تفلت من هذا الحصار. وتصل لميدان العتبة في أغرب مظاهرة. سوف أسميها مجازًا «مظاهرة البرغوث».

تبدأ قصة هذه المظاهرة عند الباب الرئيسي لحديقة الأورمان من ناحية شارع الدقي. كنت أتقدم المظاهرة في هذا المحور ومعنا علم مصر. وفي هذه المنطقة هاجم الأمن بشدة بالعصي والقنابل المسيلة للدمع التي كان يطلقها من منصات إطلاق داخل حديقة الأورمان، فاتجهت أنا ومجموعة من الطلاب ناحية سور منخفض الارتفاع (حوالي ١,٥ متر) كان يحيط بقطعة أرض خالية لا يوجد عليها بناء كانت تسمى وقتها «أرض السفارة التشيكوسلوفاكيه ومكانها الحالي هو المدرسة الألمانية». صعدنا فوق السور حوالي ١٥٠ طالب وفررنا من قوات الأمن داخل هذه الأرض الخالية والمليئة بالأحجار. ولما كان هدف الأمن إطباق الحصار على الطلاب فإنه تركنا نجري خلفه وتوجه ناحية الأمام لحصار الطلاب. أخذنا نجري في الأرض الخالية إلى أن وصلنا إلى شارع الدقي. تجمعنا وسرنا بمظاهرة البرغوث في شارع الدقي حتى وصلنا إلى المتحف الزراعي ثم توجهنا ناحية مدرستين هناك (مدرسة إعدادية ومدرسة ثانوية). حاولنا إخراج الطلاب معنا في المدرستين. جرت ورائنا بعض قوات الأمن بالعصي تطاردنا في الشوارع. جرينًا ناحية نادي الصيد وشوارعه الفرعية. كانت المنطقة منطقة أثرياء شبه خالية من البشر. تجمعنا ناحية محطة بولاق الدكرور. جاءنا خبر كاذب مفاده أن جامعة عين شمس قد وصلت لميدان العتبة. قررنا ركوب الأتوبيسات مجموعات

مجموعات على أن نلتقي في ميدان العتبة لنشارك جامعة عين شمس بعد أن تم حصار جامعة القاهرة. تجمعنا بعد ساعة في ميدان العتبة أمام محطة الترام القديمة. بالطبع لم نجد أية مظاهرات لطلاب عين شمس. أحبطنا في البداية. لكننا قررنا الاستمرار في التظاهر في ميدان العتبة. ١٥٠ طالب عدد قليل بس مش مهم. المهم أن إحنا نعلن عن حصار جامعة القاهرة والمعركة الدائرة هناك. أخذنا نكتب منشورا مختصرا من أربعة أسطر يشرح ما يدور من قتال حول جامعة القاهرة. كتبنا المنشور على ورق بالكربون. أخذنا نوزعه على المارة. كان العلم المصري (الذي خرجنا به من الجامعة) ما زال مع طالبين. لفه أحدهم على صدر زميله وساعده في إرتداء ملابسه فوقه. فردنا العلم بطول عشرين متر وسط الميدان عند محطة الترام.

إلتف الناس حولنا. توجهنا بالعلم بمظاهرة البرغوث ناحية محطة الأتوبيس بميدان العتبة. في المحطة أخذنا نردد هتافات الحركة الطلابية. ونوزع المنشور القصير. حدث تجمهر كبير من حولنا. لكن فجأة وجدنا قوة ضخمة من قسم الأزبكية جاءت ووقفت في مواجهتنا. ظللنا نهتف وكان الناس معنا في حالة تجاوب. أصدر قائد القوة الأوامر بتفريقنا. إنهالت علينا العصي. جرينا جميعًا في اتجاه واحد ناحية سوق جوهر بمدخل الموسكي. وقفنا نملأ المنطقة بالهتافات. رفع بائعو الموسكي العصي والشوم على قوات قسم الأزبكية وقالوا لهم الطلبة في حمايتنا وإحنا هنا هندافع عن البضاعة اللي بنرزق منها. (وكانت هناك معركة شديدة قبل شهور جرت في هذه المنطقة بين الباعة والشرطة). لقد تصدي الباعة للشرطة وأعلنوا تضامنهم مع الطلاب. خرجنا من خلف سوق جوهر. من الشوارع الضيقة الخلفية إلى أن وصلنا لشارع الجيش. سرنا بمظاهرة البرغوث في شارع الجيش. وظلت المسيرة تتسع وظلت المظاهرة تقريبًا من الثالثة إلى الخامسة مساءًا وكنا نركز فيها على الشعارات

الاجتماعية خاصة: خلوا الفقرا تشوف النور، سرقوا الكستور، هم الفقراء في الحواري. الخ

كانت هذه الشعارات تلقي قبولاً من الشعب، وتدفع على انضمام البعض للمظاهرة. في الساعة الخامسة وعندما وصلنا تقريبًا لميدان باب الشعرية، كان الأمن أعد عدته لتحطيم مظاهرة البرغوث. فوجئنا بقوات أمنية مجهزة بالعصي والقنابل المسيلة للدموع من أمامنا ومن خلفنا وأخذت تطاردنا بشراسة. تفرقنا للشوارع الجانبية وكان الليل قد بدأ ينسج خيوطه. حمانا الكثير من الأهالي وأصحاب الدكاكين من قوات الأمن وهربونا منهم وأطعمونا. كنا نحكي لهم عن حصار الجامعة ومطالب الطلاب. كان هناك تعطش للسمع ومعرفة الحقيقة. كانوا أكثر إستجابة لكلامنا عند الحديث عن المطالب الاجتماعية، أما عند الحديث عن الحرب فكانوا ينقسمون ما بين مؤيد ومعارض. كان الذين يعارضون يتحدثون عن فداحة ومآس الحروب الماضية في ١٩٤٨، ١٩٦٧.

تفرقت مظاهرة البرغوث لكنها كانت مبادرة شجاعة وإيجابية سارت بشكل تلقائي وعفوي. وكانت لي وللبعض بداية للتمرس على مظاهرات الشوارع، وكيف نمارس الدعاية وسط الجماهير بأعداد قليلة، وكيف بشعارات وكلمات قليلة وبسيطة تستطيع أن تنفذ فكرتك كالسهم في عقول البشر.

في الفجر، وفي جرائد الصباح، أعلنت الحكومة عن قفل الجامعات المصرية لمدة شهر. وتم بالفعل إغلاق الجامعة بعد إضافة عشرات المعتقلين إلى المعتقلين السابقين، وبعد إصدار قائمة ثانية للمطلوبين من قيادات الصف الثاني والثالث. وكانت أعداد المطلوب القبض عليهم واسعة، وكان الشهر الذي تم فيه إغلاق الجامعة هو شهر المطاردات للقبض على الهاربين قبل أن تفتح الجامعة. ترك الكثيرون منازلهم وهربوا وأصبحوا مطاردين. وكانت

المشكلة كيف تلتقي القيادات الهاربة أثناء إغلاق الجامعة لتنسق وتعد سويًا لما بعد افتتاح الجامعة.

هل ستفتح الجامعة في ٣ فبراير ١٩٧٣؟

ماذا سيكون رد فعل الطلاب؟

مد طلابي أم جذر طلابي؟

ماذا سنفعل في كل حالة؟

كانت الإجابة الوحيدة، لن نترك زملائنا في السجون مهما كانت الظروف.

خلال هذا الشهر نشطت حركة أمهات الطلاب المعتقلين (أروع الأمهات). والدة أحمد هشام عبد القادر خريج هندسة القاهرة (أم الطلاب جميعًا) والتي فتحت بيتها لكل هارب من الطلاب. كانت سيدة شجاعة وصلبة (رحمها الله) قدمت إبنها هشام وأبنتها المهندسة (عزة) وأبنتها الطبيبة(هدى) لساحة الطلاب المعتقلين. كانت سيدة عظيمة نزلت إلى النقابات المهنية وللنائب العام ولكافة الجهات تطالب بالإفراج عن الطلاب المعتقلين، وكان يسير معها كوكبة من السيدات المحترمات: والدة الطالب عصام الشهاوي طالب كلية طب الأسنان، ووالدة أحمد عبد الله رزة. ووالدة الجميعي وآخرين لا أتذكرهم الآن.

هؤلاء السيدات نظموا مظاهرة في ميدان العتبة كان يتقدمها لافتة من القماش الأصفر كتب عليها بالخط الأسود:

«هدية العيد اعتقال أبناؤنا الشرفاء. دم أولادنا فداء تحرير سيناء وليس للسجون والمعتقلات»

تصدت قوات الأمن لمسيرات الأمهات. وكان عيد الأضحى في هذا العام على الأبواب. لقد كان نصيب الطلاب الاعتقال في عيد الأضحى عام ١٩٧٢، وعيد الأضحى عام ١٩٧٣ مما أعادطرح الشعار الشهير من جديد:

العيد ده مش عيدنا

دا بياكلوا في لحم أخوتنا

يا نعيش أحرار في بلدنا

يا نموت ويا اخواتنا

قبض لعدة ساعات على بعض الأمهات. لكن حركتهم ظلت مستمرة، وكانوا همزة وصل بين الطلاب المعتقلين والطلاب الهاربين المطلوب القبض عليهم. لقد أصبح خلال هذا الشهر الذي تم فيه إغلاق الجامعة المعتقلون وأسرهم والهاربون ومن يشاركون في حمايتهم من بطش السلطات، أصبح هؤلاء جميعًا أسرة واحدة تجمع التبرعات وتنقل الأطعمة للسجون وتوفر المكان الآمن للهاربين.

توزع المعتقلون على سجون طرة المختلفة وسجن القناطر وسجن الاستئناف وسجن القلعة.وكانت هذه الأيام هي تاريخ الميلاد لجيل السبعينات وبداية التعارف بين أبناء هذا الجيل داخل السجن وخارجه.

إضراب كلية الهندسة
ومظاهرة ١١ فبراير ١٩٧٣ بميدان الجيزة

طوال شهر يناير ١٩٧٣ وبعد إغلاق الجامعة، كانت المهمة الأساسية للهاربين من كلية الهندسة جامعة القاهرة كيف يلتقون ببعضهم لإدارة النقاش والحوار حول ماذا سنفعل عند افتتاح الجامعة؟.

هرب كل منا إلى مكان ما. إما بمساعدة أسرته. أو بمساعدة المتعاطفين مع حركة الطلاب. أو بتدبير مكان للإقامة عند صديق (يكون غير معروف للأجهزة الأمنية).

بدأ ت تتوارد الأخبار أو الشائعات عن أن فلانا سيسلم نفسه وفلانا يفكر في ذلك. تمكنا من إيصال رسالة لمعظم الهاربين من هندسة القاهرة وخارجها مفادها ،لن نتخلى عن زملائنا المعتقلين. أى هارب يسلم نفسه للسلطات يرتكب خطأ جسيما في حق زملائه. يجب أن ننظم طريقة هروبنا وطريقة نزولنا للجامعة عند الإفتتاح. لن ننزل جميعًا مرة واحدة في يوم واحد. سننزل أفرادا أو مجموعة صغيرة حتى إذا تم القبض عليها تنزل مجموعة أخرى وهكذا. يجب بقدر الإمكان الحفاظ على الهاربين لأطول فترة ممكنة ودون تخاذل ودون تراجع.

إستطعنا خلال فترة إغلاق الجامعة عمل عدة لقاءات للهاربين من طلبة

كلية الهندسة. ووضعنا خطة لعملنا داخل الكلية عند إفتتاح الجامعة. كان ملخص هذه الخطة يدور حول ما يلي:

١- سيتم افتتاح الجامعة يوم السبت (تقريبًا ٣ فبراير). وفي هذا اليوم اتخذنا قرارًا بألا ينزل أي من الهاربين إلى كلية الهندسة لأن يوم الأحد التالي كان يوافق عيد رأس السنة الهجرية وهو يوم أجازة رسمية. فمن سينزل لن يستطيع أن يفعل شيئا في يوم واحد واليوم التالي أجازة. واتفقنا على أن نبدأ عملنا يوم الإثنين، وسيبدأ العمل العناصرالغير مطلوبة حتى نوحي لأجهزة الأمن أن الهاربين لن ينزلوا إلى الجامعة (وأنهم خافوا واستكانوا) من أجل تضليلهم.

٢- تبدأ خطة عملنا في الكلية بإصدار مجلات الحائط وإقامة حلقات النقاش من حولها والدعوة بعد يومين لعقد مؤتمر جماهيري بمدرج الساوي. وكان مضمون الخطة فى البداية هو:

مطالبة مجلس الشعب بتشكيل لجنة لتقصي الحقائق عن أوضاع المعتقلين بالسجون من الطلاب. وتقصي الحقائق عن العدوان الهمجي على الجامعة يوم ٣ يناير قبل إغلاق الجامعة.

قال البعض إن هذا الموقف يميني وفيه توجه نحو السلطة القمعية بطلب لجنة تقصي حقائق.

لكننا كنا نعلم جيدًا أن السلطة لن تستجيب لهذا المطلب على الإطلاق وعند رفضها سيكون ذلك ذريعة منطقية وطبيعية لإعلان الإضراب عن الدراسة داخل كلية الهندسة.

كنا ندرك أن صدام الجامعة وطلاب كلية الهندسة مع قوات الأمن يوم ٣ يناير ثم قفل الجامعة كان بسبب حالة إحتقان وغيظ شديد لدى جمهور الطلاب، وأن الطلاب لديهم أسباب منطقية للإضراب عن الدراسة.

٣- إتخذنا قرارًا بإستئجار شقة تكون لإجتماع الهاربين من هندسة القاهرة لإتخاذ القرارات المناسبة في الوقت المناسب ومواجهة أي تغيير يطرأ على الخطة.

إستأجرنا شقة مفروشة خلف كازينو الأندلس بشارع الهرم كان إيجارها الشهري ٢٥ جنيه، وكان الجميع يشتركون في إيجارها. أحتفظ كل هارب بمكانه الذي هرب فيه. كان يقيم بالشقة المجموعة الأولى التي ستقوم بالنزول للكلية حينما تكون اللحظة مناسبة. كل أسبوع كنا نعقد إجتماعا للهاربين لإتخاذ القرارات المناسبة.

كان هذا هو الإتفاق بين الهاربين من طلاب كلية الهندسة (وكان غالبيتهم العظمى ينتمي إلى تنظيم شروق). وقد لعب تنظيم شروق دورًا مهمًا في هذه الفترة وعلى الأخص داخل طلاب كلية الهندسة بجامعة القاهرة.

في يوم السبت نزل الطالب/ ماجد أدريس (رحمه الله) إلى كلية الهندسة، وهو لم يكن عضوًا بشروق، ولم نتمكن من إبلاغه بخطتنا لأننا لم نكن نعرف مكان هروبه، نزل ماجد وحده، وأعتقد أن الهاربين قد تخلوا عن قضية زملائهم، وتم القبض عليه من قبل ضباط مباحث أمن الدولة أثناء خروجه من الكلية في يوم السبت وتم ترحيله إلى سجن القناطر.

بدأنا خطتنا في العمل بدءا من يوم الاثنين ٥ فبراير، وخلال أيام (٥، ٦، ٧، ٨، ١٠، ١١ فبراير ١٩٧٣) تمكن الزملاء من حشد وتجميع وتعبئة طلاب الكلية لبدء الإضراب عن الدراسة بكلية الهندسة.

(مجلات حائط – حلقات نقاش – مؤتمر ضخم بمدرج الساوي) صب كل ذلك في طلب لجنة تقصي الحقائق. تم رفض الطلب وكان مجلس الشعب يشكل لجنة صورية لتقصي الحقائق، ولما طلبنا حضورها للكلية رفض طلبنا، فتم إعلان بدء الإضراب عن الدراسة يوم ١١ فبراير وأستمر الإضراب حتى يوم

٢١ فبراير (يوم الطالب العالمي)

كان الطلاب يتجمعون في مسيرة تطوف الكلية وتدخل إلى المدرجات فيصفق الطلاب. وينضمون إلى الإضراب. كان من أبرز الشعارات:

سيب الكمرة والعمود
لاجل أخونا م القلعة يعود
أول نقطة ع الـ SPAN
اللي هيسكت يبقى جبان
يا أخونا في كيمياء وتعدين
فين أخواتنا المعتقلين
يا أخونا في الميكانيكا
سيب القلم والأسيتكا
يا أساتذتنا يا أساتذتنا
المباحث نايمة في بيتنا
عملوا ليكوا ولينا مجالس
هيه حضانة والا مدارس
ما تقول لنا يا سعادة الوالي
فين عصام الغزالي؟
فين فتيح؟ فين سهام؟
فين بهاء؟ فين هشام؟
مضربين. مضربين
لحد ما مايبجي المعتقلين
أنور أنور يا سادات
هيه فين الحريات

مجلس شعب دا قرع وكوسة

والحرية يا ناس محبوسة

يا مجلس شعب ماء الطين

أنت رئيسك قط سمين

يا مجلس شعب صباح الخير

وانت رئيسك مليونير

قولوا للنايم في عابدين

حكمك زفت وزي الطين

نزلت إلى الكلية يوم الأربعاء أو الخميس حينما أقتضت الحاجة لبدء المسيرات وقيادة المظاهرات داخل الكلية. كنت أقود المسيرة داخل الكلية. وفي نهايتها أتخفي بين المباني ودورات المياه. وأدخل دورة مياه في الدور الأرضي من الباب وأخرج منها من الشباك. ثم أهرب من داخل كلية الهندسة (من عند الكافتيريا القديمة) إلى داخل حديقة الحيوان. ثم أهرب من حديقة الحيوان. وكان هناك طريق آخر من الحرم الجامعي. بعد قفز عدة أسوار تجد نفسك في ملاعب السعيدية الثانوية أو في مزارع واسعة لكلية الزراعة خلف أبي قتاتة.

كان الإضراب يسير بنجاح في كلية الهندسة، وكنت أقود مع زملائي بكلية الهندسة (رياض رفعت، فاتن عبد المنعم فضة، محمد سلام وغيرهم) المسيرات داخل الكلية. وكان الطلاب أحمد شرف الدين وصلاح موسو الطيب وعمران يقودون المظاهرات في الحرم الجامعي.

لقد كانت مظاهرة ١١ فبراير ١٩٧٣ مقطوعة موسيقية رائعة. جاءت من العزف الجماعي لتفاعل المتظاهرين.

فى الساعة الثانية عشرة ظهرا خرج حوالى ٢٠٠٠ طالب من المضربين عن

الدراسة بكلية الهندسة بمظاهرة نحو الحرم الجامعى. طافت المظاهرة بالحرم الجامعى وأصبح عدد المتظاهرين حوالى ثلاثة آلاف طالب تجمعوا أمام النصب التذكاري لجامعة القاهرة. وقف الطلاب يرددون شعاراتهم:

«أصل معدش فيها رجوع

جه ميعادنا للطلوع».

وكان الطلاب محاصرين من جميع الجهات. حاصرت قوات الأمن منطقة بين السرايات. ووضعت آلاف الجنود على مشارف كوبري الجامعة ومنطقة تمثال نهضة مصر وحديقة الأورمان. لم يخطر في بال رجال الأمن أن هناك منفذا آخر يمكن أن يخرج منه الطلاب، فهم قد تعودوا منذ مظاهرات ١٩٦٨، ومظاهرات الكعكة الحجرية عام ١٩٧٢،ومظاهرات ٣ يناير١٩٧٣ إما أن تتجه المظاهرات لحي بين السرايات أو حي الدقي من عند حديقة الأورمان أو من ناحية كوبري الجامعة. فقادة الأمن ما هم إلا بيروقراطيون يحركون قواتهم حسب ما اعتادوا وتعودوا وبالتالي فالمفاجأة المدروسة والممكنة يمكن أن تشتت شملهم. لذلك حينما انطلق الشعار أمام النصب التذكاري:

«مصر يا خلق علينا عزيزة

بينا ياله ميدان الجيزة»

كانت المفاجأة الكبرى. وبدأ عزف السيمفونية. توجه الطلاب بسرعة البرق ناحية ميدان الجيزة. وأثناء توجههم خرجت مجموعة من بينهم واستطاعت أن تضم للمظاهرة طلاب مدرسة السعيدية. ومجموعات أخرى لذات الغرض توجهت إلى كلية الزراعة وكلية طب بيطري. وفي خلال نصف ساعة كانت المظاهرة حوالي ستة آلاف مواطن بميدان الجيزة.

حاول الطلاب التوجه لعمال الشركة الشرقية للدخان والسجائر بالجيزة، فطاردتهم قوات الأمن التي كانت قد استيقظت من غفوتها ووجهت قواتها

تجاه ميدان الجيزة.

توجهت المظاهرة نحو حواري الجيزة الشعبية وحاول الجنرالات وجنودهم دخول الحواري وراء المتظاهرين فكانت الأحجار نصيبهم. لا من قبل الطلاب، ولكن من قبل سكان حى الجيزة الشعبية ومن فوق أسطح المنازل،واستمرت المظاهرة حتى العاشرة مساءاً.

سجن القناطر
١١ فبراير ١٩٧٣ - ٣ أكتوبر ١٩٧٣

مازالت المظاهرة تسير في حواري الجيزة. الليل بدأ يزحف وغابت الشمس. قرر الزملاء إنسحابي من المظاهرة لمواصلة العمل فى البوم التالى لكن الأمن كانت عيونه ترصدني بدقة. سرت على الجانب الأيمن للمظاهرة. انسحبت إلى شارع جانبي أنا وطارق صلاح (أحد زملائي بكلية الهندسة).

ما إن سرنا عدة أمتار في الشارع حتى أندفع نحونا شخصان كل منهما في وزن ثور. جرينا بسرعة. عرجنا وتعرجنا في العديد من الشوارع والحواري والثوران من خلفنا، إلى أن اتسعت المسافة بيننا وبينهم بدرجة كبيرة. في إحدي التعريجات ولسوء حظنا دخلنا في شارع مسدود. لم ندرك أنه مسدود إلا في منتصف الشارع. كانت قدمانا تسابقان الريح ولكن الوجه كان دائماً ينظر إلى الأرض. وكان الثوران في الشارع العمودي على الشارع المسدود وشاهدانا ونحن ندخل إليه. لما وجدنا الشارع مسدودا لم يكن هناك مفر أمامنا إلا دخول أحد المنازل وعدم الرجوع للخلف فالثوران آتيان. وبالفعل دخلنا أحد المنازل قبل أن يحضر الثوران إلى قمة الشارع المسدود. صعدنا إلى الدور الأول. طرقنا بعنف على الباب. خرج إلينا صاحب الشقة. قلنا له:

- إحنا من مظاهرة الطلبة والبوليس يطاردنا. ياريت تدخلنا عند سيادتك

لمدة خمس دقائق لحد ما يمشوا.

وعينك ما تشوف إلا النور. صاحب الشقة رزع باب الشقة وقفله في وشنا قائلاً: في داهية. بوليس. ونروح إحنا في داهية.

صعدنا دورين إلى أعلى وكررنا المحاولة مع شقة ثانية وطرقنا الباب. خرجت إلينا شابة سنها «٢٢ - ٢٥ سنة».قلنا لها نفس ما قلناه لصاحب الشقة أسفلها. فتحت لنا الباب وقالت وهي مرتبكة:

- ادخلوا انتوا زي اخواتي برضه.

دخلنا إلى الصالة. ومن شدة التعب جلسنا على الأرض ونحن نتنفس الصعداء وننهج بشدة فوجدناها تقول لنا:

- معلش أنا ممكن أستضيفكم لمدة ربع ساعة بس، لأن أنا عروسة ولسة متجوزة جديد. ولو جه جوزي هيتخرب بيتي. أنا اخواتي معاكو في حركة الطلبة بس جوزي ما يفهمش حاجة في السياسة.

شكرنا هذه الفتاة العظيمة. وقلنا لها افتحي شباك البلكونة وأوصفي لنا ماذا يدور في الشارع. خرجت ووقفت على سور البلكونة لمدة خمس دقائق وجاءت وقالت لنا:

- مفيش حد في الشارع غير اثنين زي الثيران واقفين على رأس الشارع. واحد لابس بنطلون أزرق وبلوفر بني، والتاني تقريبًا نفس اللبس.

عرفنا من كلامها إنهما الثوران اللذان كانا يجريان خلفنا. وإنهما حينما وصلا إلى قمة الشارع ووجداه مسدودًا و لم يجدا أي أثر لنا استنتجا إننا مختبئان في أحد المنازل. لكنهما لم يحددا في أي منزل دخلنا لذا فهما واقفان على قمة الشارع في إنتظارنا.

شكرنا الفتاة وقررنا الإنصراف حتى لا نضرها. بعد أن شربنا كوبين من الماء قلت لزميلي:

- هيا بنا نصعد إلى سطح المنزل. سننام على السطح حتى الصباح. والثوران لن يستطيعا تفتيش كل بيوت الشارع، فالشارع طويل.

صعدنا نحو الدور الأخير لكن السلم لا يصل إلى السطح. السلم مغلق على الدور الأخير. جلسنا لفترة طويلة على بسطة وسلالم الدور الأخير. أخيراً أدركنا الإرهاق والتعب فقررنا الخروج من المنزل وإحنا وحظنا. ما أن خرجنا من المنزل حتى توجه الثوران نحونا. كل منهما يمسك بطبنجة: أوعى حد يتحرك. هنضرب في المليان.

إستسلمنا ووقعنا في أيديهما. حاصرانا. كل منا في ناحية ظهره إلى الحائط ومحاط بنصف دستة من الثيران. أشحت بنظري إلى أعلى وجدت الفتاة الكريمة واقفة في البلكونة وهي تبكي. فرت الدمعة من عيني. بعد دقائق وجدت نفسي محشوراً في تاكسي مغمي العينين وأجلس قرفصاء في دواسة عربة ملاكى وأقدام الثيران فوق جسدي وكمامة أخرى على فمي. لكن السيارة كانت تسير قريبة من المظاهرة فكنت أسمع الهتافات:

أصل الوالي يا ناس مش داري

بهم الفقرا في الحواري

شربوا الفقرا المر سنين

يا ما ليالي باتوا جعانين

شربوا المر وشربوا القهر

وبيستلفوا طول الشهر

حينما سمعت صوت المظاهرة أدركت لماذا تم وضعي في الدواسة تحت الأقدام. لأنه لو كنا جالسين في السيارة وشاهدنا زملاءنا في المظاهرة لانتزعونا من بين أياديهم خارج السيارة. طارق فى الدواسة الأمامية، وأنا فى الدواسة الخلفية.

دخلنا إلى مبنى المباحث بشارع جابر حيان المجاور لحينا. حينما دخلت المبنى تذكرت كل ما حدث في حادث مجلة الحائط «مجلة من صنع أيدينا». تذكرت عادل آدم وفريد عبد الكريم وشخير الضباط. دوارة سنين الزمن دوارة. سمعت صوت المخبرين مهللاً بفرح:

- قبضنا كمان على أحمد شرف الدين.

وصوتًا لضابط آخر:

- كمال خليل وأحمد شرف في ليلة واحدة. يادي الهنا.

لم نمكث طويلاً بمبنى جابر بن حيان «فرع مباحث أمن الدولة بالجيزة و كان وقتها يختص بالدرجة الأولى بطلبة جامعة القاهرة». تم ترحيلنا بسرعة إلى مبنى مباحث أمن الدولة – فرع القاهرة – بميدان لاظوغلى.

كانت أعداد المقبوض عليهم بالعشرات. وضعنا أنا وأحمد شرف الدين وطارق صلاح بأحد الزنازين في بدروم لاظوغلي. استدعيت لأحد الأدوار العلوية. دخلت إلى أحدى الحجرات. عاملونى بلطف «طبعًا في البداية»

أجلسوني على كرسي أمام مكتب كبير يجلس عليه حوالي أربعة من ضباط أمن الدولة. وضابطان من الخلف وباب الغرفة في ظهري. بدءوا الحديث تشرب إيه؟ شاي قهوة سجاير. أقولك بلاش الكلام ده. أحكي لنا عن نفسك.

كانت هذه أول مواجهة بيني وبين كلاب أمن الدولة. بادرتهم بالقول:

- أنا ساكن في الدقي القديم. وكنت عضو في منظمة الشباب.

والحكاية والرواية. وأي كلام فارغ كنت عمال أقوله بعيدًا عن الدخول في أي موضوع عن الطلبة وزملائي اللي كانوا هاربين معايا. كان هذا كل شاغلي. ألا أتحدث عن زملائي. ولا عنوان الشقة التي بها الهاربين. وبدأت الأسئلة تطاردني:

- فين طلعت فهمي؟ فين عماد عطية؟ فين حلمي المصري؟ كنت هربان

معاهم فين؟

وأنا أجيب كل مرة:

- أنا ما عرفش حد أسمه طلعت. أنا م الدقي القديم. وأنا كنت عضو في منظمة الشباب. الخ.

وأكرر ذلك في كل مرة وأزيد عليه أية معلومة هايفة لدرجة أن أحد الضباط وقف يصرخ في وجهي:

- خلاص يا ابن الكلب. عرفنا أنك أنت من الدقي القديم وعضو في منظمة الشباب. خلاص. قول حاجة جديدة. خلاص أنا ورمت.

وبدون أن أدري كان الباب من خلفي قد فتح. في لمح البصر وجدت كفًا غليظًا ينهار على قفاي من الخلف. عندما التفت خلفي انهارت على وجهي مجموعة من الأقلام. ومن الخلف مجموعة من الشلاليت. وبعد هذه العجنة بادرني من ضربني من الخلف والذي استنتجت أنه قائدهم:

- هتنكر يا أبن الكلب أنك كنت في المظاهرة. أجيب اللي كان شايلك.

وأشار بيده على أحد المخبرين التابعين له وكان يرتدي بنطلون بني وفانلة بيضاء. وفعلاً هذا الشخص كان يحملني في المظاهرة وكاد يسلمني لعساكر الأمن المركزي لولا إننى أدركت في اللحظات الأخيرة أنه مخبر مندس وليس طالبا فضربته من أعلى على رأسه وأذنيه، ومن أسفل بقدمي في منطقته الحساسة فإ ستطعت أن أفر من بين يديه « وهو يحملني لشدة الألم الذي أصابه. لقد كان فعلاً يحملني في وسط المظاهرة. ولما هاجم أمن المركز الطلاب جرى الطلبة إلى الأمام أما هو فقد ثبت في مكانه وأصبحت أنا وهو على بعد أمتار من عساكر الأمن وأنا أصرخ فيه. «نزلني يا صاحبي. نزلني يا صديقي». وهو ثابت. حينها أدركت أنه لا صاحبي ولا صديقي فضربته من أعلى ومن أسفل. وهربت من بين يديه مندفعًا نحو زملائي الطلاب.

عجنة من الأقلام على الوجه والقفا مع مجموعة من الشلاليت أدركت فيها أننا قد بدأنا ندخل في الجد.

صرخت منفعلاً وباكيًا قائلاً لقائدهم:

- أنا مش أبن كلب. أنت أبن ستين كلب. يا ابن ويا ابن. أيوه الكلب ده كان شايلني. بس مقدرش يمسكني. أنا مش خايف. أيوه كنت في المظاهرة.أيوه أنا ضد السادات. وضد إسرائيل. ولو كنت جدع يا حضرة الضابط واجهني راجل لراجل. بتتحامي في المخبرين بتوعك يا خول.

كنت وقتها طويلاً نحيفًا لا يزيد وزني عن ٥٢ كيلو جرام. بالطبع شعرت بالإهانة الشديدة عندما صفعت على القفا والوجه. وكان هذا العامل الأساسي وراء بكائي. لم يكن بكائي تعبيراً عن انهيار وتخاذل. لكنه كان بكاء مع تحدي، وهذا هو ما عملته لي الحارة التي تربيت فيها. حينما كنا نتشاجر وتكون وسط المعركة ضعيفًا والخصم قويًا.غير مصرح لك أن تستسلم. إبكي واضرب وقاوم لكن غير مقبول أن تستسلم. هذا ما جعلني أخاطب قائدهم بألفاظ نابية وأنا أبكي. رغم بكائي إلا أنهم شعروا بقوتي رغم هزال جسدي. أما الأهم عندي في هذه اللحظة، أن قائدهم بغباءه قد حول خط سير الاستجواب من السؤال عن زملائي والمكان الذي كنت أهرب فيه. إلى السؤال عن هل أشتركت في المظاهرة أم لا؟

كان هذا شيئًا جيدًا بالنسبة لي. وبعد عجنة الأقلام والشلاليت بدأ الضباط يوجهون الأمر إلى الدفة الأخرى «ترهيب ثم ترغيب ثم ترهيب وهكذا»

- لا. لا يا ماجد بيه. كمال طيب وهيتكلم وهيقول على كل حاجة.

عرفت بعد ذلك وبعد حبسات كثيرة أن قائد هؤلاء الضباط والذي صفعني من الخلف. والذين يقولون له ماجد بيه. هو ماجد الجمال أحد الجنرالات الكبار(وقتها) في جهاز مباحث أمن الدولة.

بعد أن جفت دموعي وهدأت جلست صامتًا تمامًا لاأنطق بأي كلمة، يسألون وكأنني لا أسمع. وأخيرًا قال أحدهم:

- نزلوه الزنزانة تحت لما نشوف آخرتها إيه؟!!

نزلت إلى الزنزانة، وحكيت لأحمد شرف كل ما دار بيني وبينهم فأخذ ينصحني ويعلمني:

- القانون بيقول جهاز مباحث أمن الدولة سلطة تحريات وضبط وإحضار. ليس من حقهم أن يجروا معك أية تحقيقات. التحقيقات قدام النيابة وفي مبنى النيابة مش في مبنى مباحث أمن الدولة.

وهكذا تعلمت على يد أخي أحمد شرف «رحمه الله» أول الدروس في قصة مواجهة سلطات التحقيق.

إستعدوا مرة ثانية. فجلست أمامهم قائلاً بكل ثقة:

- مش ها أجاوب على أي سؤال أنا عايز النيابة. القانون بيقول أن النيابة هي سلطة التحقيق. أنتم سلطة تحريات وضبط وإحضار.

ضحكوا وقالوا لبعضهم أحمد شرف حفظه الكلمتين. ثم قالوا لي:

- أحنا عارفين أنك من الدقى القديم وكنت في منظمة الشباب. وبعدين.

قلت لهم:

- لا أنا مش من الدقى القديم. أنا عايز النيابة.

أنزلوني ثانية إلى الزنزانة. حكيت لأحمد شرف ما حدث. قال لي:

- كده كويس.

بعد دقائق استدعوا أحمد شرف وصعد إليهم. أما أنا فأخذوني إلى غرفة ثانية بالمبنى. وأجلسوني أمام وكيل نيابة أخذ يسألني بعد أن أطلعني على كارنيه النيبابة. فقلت له:

- التحقيق لازم يكون في مبنى النيابة مش فى مبنى مباحث أمن الدولة.

كان الرجل رقيقًا مهذبًا. وتعامل بلطف. في النهاية دخلت التحقيق معه واعترفت بعنترية وإعتزاز شديد بأني كنت في مظاهرة ميدان الجيزة، ودافعت عن حق التظاهر. وسألني المحقق عن جميع الزملاء الهاربين. فقلت له أنا ما أعرفش حد. أنا من الدقي القديم وما أعرفش حد من الجامعة. ضحك وكيل النيابة وقال لي:

- أنت متهم بقلب نظام الحكم.

قلت له:

- بالذمة فيه واحد وزنه ٥٢ كيلو جرام يقدر يقلب نظام حكم مدعم بالدبابات والطائرات والمخبرين.

ضحك وكيل النيابة وأمر بحبسي ١٥ يوم. عندما قابلت أحمد شرف في عربة الترحيلات وحكيت له ما حدث. نهرني قائلاً:

- أنا مش قلت لك لا تدخل التحقيق إلا في سرايا النيابة.

قلت له:

- وأنا أعرف منين سرايا النيابة دى!.

قال:

- وكمان لازم يكون معاك محامي. وميكونش فيه أي ضابط أمن دولة جوه غرفة التحقيق.

حسيت أني حمار. بس عذرت نفسي وقلت أكيد طلبة الحقوق معرفتهم أكثر في المسائل دي من طلبة كلية الهندسة. لكنني أدركت بعد ذلك أن هذه المسائل على درجة كبيرة من الأهمية ولا ينبغي تقديم أي تنازل فيها. ولازم يعرفها كل مواطن لإننا في دولة بوليسية.

سارت بنا عربة الترحيلات في ظلام الليل. قال لي أحمد شرف بعد فترة وبعد سير العربة على كورنيش النيل. «إحنا رايحيين سجن القناطر».

دخلنا سجن القناطر في حوالي الساعة الحادية عشر مساءًا. دخلنا إلى إحدى الزنازين مع أحد الطلاب المعتقلين والذي كان محبوسًا حبسًا انفراديًا وكان صوتنا منبوحا. أخذ الطالب يقول بصوت عالي ليسمع الزنازين المجاورة:

- يا جماعة وصل زملاءنا أحمد شرف الدين حقوق القاهرة. وكمال خليل هندسة القاهرة.

سمعنا أصوات زملائنا من الزنازين المجاورة. إيه أخبار الجامعة؟!! الجامعات نامت ولا أيه؟!!

أخبرنا زميلنا الطالب فقال للزملاء:

- كمال وأحمد صوتهم منبوح. وهمه جايين من مظاهرة ضمت أكثر من ٦ آلاف طالب خرجت من الجامعة القاهرة لميدان الجيزة.

إنقلب حال السجن إلى فرح شديد وهتافات بعد أن كان صامتًا كئيبًا حيث اعتقد البعض أن الحركة تراجعت ولم يتحرك الطلاب للتضامن مع زملائهم المعتقلين. صخب شديد. وسلامات وفرح من داخل الزنازين المغلقة.

بعد ساعات رحت أنا وأحمد شرف في نوم عميق عميق. نوم الزنازين على البرش. نوم العوافي يا مصر في جمهورية سجن القناطر الديمقراطية.

معرض يتم تهريبه من سجن القناطر
إلى الحرم الجامعي

«سبعة شهور وإثنان وعشرون يومًا» أمضيتها بالتمام والكمال داخل سجن القناطر. من ليلة ١١ فبراير ١٩٧٣ إلي صباح ٣ اكتوبر ١٩٧٣. عدا عشرون يومًا من هذه الفترة تم ترحيلي فيها إلى سجن القلعة وحبسي انفراديًا وضغوط وتحقيقات بنيابة إمبابة، ثم عدت بعدها ثانية إلى سجن القناطر. وشهر آخر رحلنا فيه جميعًا لسجن طره لأداء إمتحانات نهاية العام.

واحد يا ورد
إثنين يا فل
تلاتة يا ياسمين
أربعة يا أجدع ناس معلمين.
خمسة يا أفندية واختلاسات مالية
ستة يا زهرة شباب الحركة الوطنية
سبعة يا باشا.
ثمانية يا أجدع ناس حشاشة
تسعة يا شاكوش
عشرة والقضية طلعت فاشوش

أعرفكم يا أخواني إن أخوكم محمد زرجينه خارج بكرة بعد عشر سنين جدعنه ف جدعنه، وعقبالكم وعقبال عندنا يا حبايب.

كان هذا نشيد العنبرة الذي يطلقه السجناء الجنائيون ليلة الإفراج عنهم وإطلاق سراحهم بعد انتهاء مدة العقوبة. وهذا النشيد يتنوع من سجن إلى سجن وتدخل عليه تعديلات كل فترة من المساجين الجنائيين. الأمر يحتاج إلى دراسة وتحليل. العنبر وأغاني حراس الليل على أسوار السجون في ظلمة الليل فلكلور شعبي. حينما يمر ضابط بجوار الأسوار العالية في نوبة مرور تسمع أصواب غفر الليل:

«كنجي – برنجي – شنجي». وهي أسماء تطلق على ترتيب دورياتهم وترتفع أصوات الحراس:

«واحد تمام. اثنين تمام. ثلاثة تمام. أربعة تمام.» في نغمة موسيقي عالية.

وبعد رحيل الجنرال. وفي جنح الظلام تستمع إلى غناء الغربة والأوجاع لمجند من الصعيد يحرس أسوار السجن. السجن ليس أبوابا وسلاسل وأسوارا عالية. السجن هموم وشجون وأحزان وتضامن و صحبة. في السجن ينكشف معدن الإنسان. الجنائيون بشر دفعتهم الظروف الاجتماعية القاسية إلى الجريمة.

السياسيون بشر دفعتهم الديكتاتورية الحاكمة وإستبدادها إلى داخل السجون. في السجن دائمًا يلتقي السياسي والجنائي كل منهما جاء إلى السجن بأسباب ودوافع مختلفة.

في ظلال الفرحة أنطلق صوت من أحد الزنازين قائلاً:العزيق. العزيق يا صدقى.. والعزيق هى قصيدة للشاعر سيد حجاب. أما صدقي فهو أحد طلاب كلية الهندسة بجامعة عين شمس، والذي لم أره منذ حبسة سجن القناطر(فينك ياأخويا ياصدقى).

كان صوته جميلاً وشجيًا ويغني من أعماق قلبه. أين أنت يا صدقي؟؟ وأين جسارتك وصوتك العذب؟ ومن على شباك الزنزانة أنطلق صوت صدقي كالهدير داخل السجن:

وهبت عمرى للأمل ولا جاشى

وغمرت غيطى بالعرق ما عطاشى

ورعيت لمحبوبى هواه ماراعاشى

والليل عليا طويل وأنا العليل العليل

راضى الطبيب لكن دواه ماراضاشى

والصبر فين؟.الصبر فين؟.

الصبر فين ياسنين طوال وليالى

....

....

وأنا بالايدين المعروقين يامناجل

هاأنزل بشومتى ع الغراب الحاجل

ويايبقى شغل وغنى طول السنة

ياتبقى ثورة فى الصدور ومراجل

والوعد دين.الوعد دين.الوعد دين.

بعد انتهاء صدقي من الغناء سألت عن صاحب القصيدة وعرفت أن هناك رطبًا جديدًا غير رطب نجم وأمام. وفرحت جدًا لأني وصلت إلى السجن مع زملائي. أكيد ها أتعلم حاجات جديدة. وأ كتشف العالم اللي بأبحث عنه. بعد ذلك سمعت قصائد في غاية العبقرية والجمال. سمعت صوت الشاعر محمد سيف وقصائده التي أحسست إنها خرجت من أحشاء حينا الشعبي. «الفاتحة له. عاش زي دكر النحل. مات زي دكر النحل. وشارع الرويعي.

وغيرها وغيرها. آه كم أفتقدك يا سيف. لم أرك منذ هذه الحبسة. أين أنت يا سيف وأنت تحاور تراب حارتك:

«أن الكهارب اللى والعة فى القصور دى. مسروقة من نور عين حواريكي. اللي أزاز فوانيسها بالأعوام يبات مكسور. و باعوا الكوليرا للفقراء.»

ما أحوج إضرابات العمال الآن في عام ٢٠٠٧، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩ إلى أشعارك يامحمد ياسيف.

بعدها كانت أشعار شاعر مدينة المنصورة زكي عمر «رحمه الله». لقد أبكى الجميع بقصيدته «وقفة أمام قبر أمي».

«صدق صوت الشارع. والشاعر أصدق صوت إن قال. أديني بارودة يا خال. خد مني الكلمة وادينى بنادق. خد مني البيت العالي واديني خنادق. خد مني مالي وكل عيالي.دا نفسي ولو مرة أكون البادئ»

وقصيدة «لما تبقى الكلمة لجل الكلمة بس. تبقى خيبة ولازم نتكتم ونسكت»

رحمك الله يا زكي عمر. لم أره منذ هذه الحبسة. سمعت أنه مات غريقًا في بحار اليمن. أنقذ طفلته من الغرق ومات هو غريقًا، ما أحوجنا اليوم أيضًا إلى طباعة ديوان شعرك.آه يا زكي يا عمر.

كنا حوالي سبعين طالبًا من كليات وجامعات مختلفة، وضع كل خمسة منا في زنزانة صغيرة. كان الزملاء بالسجن يشكلون «حياة عامة مشتركة» للجميع وكان يدير الحياة العامة عدة لجان من الطلاب:

لجنة خاصة بتجميع المأكولات والأغذية والسجائر وتنظيم الزيارات وتوزيع الطعام بالتساوي على الزنازين الأربعة عشر وكانت تسمى بلجنة الإعاشة.

لجنة ثانية خاصة بتنظيم الندوات السياسية والثقافية داخل السجن وتنظيم الإذاعة المسائية وكانت تسمى اللجنة الثقافية.

ولجنة ثالثة كان مهمتها الاتصال بإدارة السجن وتوصيل مطالب المعتقلين للإدارة وكانت تسمى «لجنة الإدارة»

أما اللجنة الرابعة فكانت لجنة المعرض والتي شكلت جميع معالم الحبسة وفجرت معركة كبرى وعلقة ساخنة داخل سجن القناطر.

لقد سار عمل اللجان الثلاثة الأولى بشكل منتظم وجيد، فقد كانت تصادر الأغذية بكل زيارة بشكل كامل ويتم توزيعها على الزنازين بالتساوي مع عمل مخزون إستراتيجي من المعلبات والسجائر، وكانت الحياة وافرة.

كما تم عقد العديد من الندوات الهامة داخل السجن، وكان الصراع السياسي بين الفصائل المختلفة على أشده. فريق يتهم الآخر باليمينية وفريق يتهم الآخرين بالطفولة اليسارية وفريق يدعي أنهم هم الوحيدون أصحاب الخط الصحيح وما عداهم فهو إنتهازي يميني وطفل يساري. وصراعات مع إدارة السجن ونقاشات مطولة عن طبيعة إدارة السجن، هل هي تعبير عن السلطة الحاكمة؟ أم هناك استقلال نسبي بينهما؟؟

أما أخي الفاضل العزيز «تيمور الملوانى رحمه الله» فكان يطالب إدارة السجن بالإستحمام بالماء الساخن، وشاكس معهم طويلاً على ذلك فقالوا له لدينا حمام بخار، فذهب معهم وأدخلوه أحدي الغرف والتي بها فتحة مستديرة بالسقف وقالوا له إخلع ملابسك سوف يدخل عليك البخار الساخن من هذه الفتحة.

إنتظر تيمور طويلاً بعد أن أغلقوا باب الغرفة في انتظار البخار الساخن الذي لم يأت. بعد ربع ساعة صرخ: يا شاويش فين البخار؟ أجابه الحارس من الخارج. مفيش بخار أنت في زنازين التأديب. وضحك تيمور بأعلى صوته قائلاً: يا ولاد الكلب.

أما صديقي العزيز والمناضل «محمد الدرديري خريج كلية الطب» «فأمرت

إدارة السجن بوضع القيدالحديدى في يديه ورجليه لمدة ثلاثة أيام متواصلة بعنبر التأديب ذلك انه حين مر مدير مصلحة السجون ذات يوم ليطلع على أحوال السجن فما كان من الدرديرى إلا أن يخطب خطبة شجاعة في وجه هذا الجنرال وأمام جميع المساجين، عن قذارة السجن وسوء أحوال المساجين الجنائيين وأن العلاج الذي يكتبه طبيب السجن للمسجون الجنائي على الروشتة «كوب من ماء الفول»!.

أحس الجنرال بالإهانة فأمر بوضع القيود الحديدية في أيدي الدرديري.

عندما وصلنا السجن أنا وأحمد شرف كان هناك إضراب عن الطعام لبعض الطلاب للمطالبة بالإفراج الفوري. وشاهدت الزميل أحمد هشام عبدالقادر نحيفا نحيفا فقد كان تقريبا قد دخل في اليوم الثالث عشر من الإضراب. وكان هناك نقاشات طويلة عن الإضراب عن الطعام والشراب والإضراب حتى الموت وشروط الإضراب الناجح وكيف يكون الإضراب سلاحا ذو حدين؟ وكان دائمًا يطرح بين الطلاب سؤال برئ لكنه مهم: يا ترى بعد كل مظاهرات وحركة الطلاب، الثورة هتكون بعد كان سنة؟!!!

كان بعض الطلاب يراها بعد ثلاث أو خمس سنوات بالكتير. والبعض كان يرى أن الحركة ما زالت في أوساط الطلاب والطلاب لا يصنعون ثورة. لذا قالوا: الثورة بعد ٢٥ سنة. أما أنا فكنت من أنصار «الثورة أهي جاية. حتى ولو في القرن الـ ١٠٠»

كنا وقتها في القرن العشرين «عام ١٩٧٣». هانت فاضل ٨٠ قرن بس!!!

وكان أيضًا في أوقات التهريج يطرح سؤالا بريئا وخبيثا فى نفس الوقت:

«يا ترى مين من السبعين طالب هيستمر في الكفاح من أجل المبادئ والثورة؟ ومين هيخون؟ ومين اللي ها يترسمل؟ ومين اللي هايبعد ويقول ماليش دعوة؟ ومين؟ ومين؟ ومين؟»

كنا نجيب عليها بشفافية؟ وكانت الإجابة تعكس وجهة نظر كل منا في الآخر. وكان كل منا يعتقد أنه الثائر الوحيد.

كنا حوالي سبعين طالبًا بسجن القناطر، وتقريبًا مثلهم بسجن الإستئناف ومثلهم بسجن طرة، وما يزيد عن عشرين طالبة تقريبا بسجن القناطر نساء، واستمر الإضراب عن الدراسة بهندسة القاهرة حتى أواخر فبراير، كما استمرت المظاهرات التي تطوف بالحرم الجامعي حتى ٢١ مارس، واستمرت حلقات النقاش حوال مجلات الحائط بكافة الكليات.

في السجن تعرفنا على «التوتو» وهو موقد من الكيروسين والشرائط إخترعه المساجين الجنائيين ويتم تصنيعه داخل السجن من المعلبات الفارغة، ويستخدم في طهي الطعام وعمل الشاي.

كما تعلمنا كيف تقطع السيجارة إلى عدة قطع بالموس ونضع كل قطعة وندخنها في مبسم صغير. معلمين صغار.

«كنا نقلد الجنائيين ونقول مثلهم إذا أردت أن تنجز عليهم بالونجز».

والونجز نوع من السجائر كان شائعًا وانقرض.

وكان بعض الطلاب يحاول أن يقلد الجنائيين في شرب البرشام «سبراكس وفانتوم» وفي تصنيع الهبهب من العسل الأسود «خمر مصنّع داخل السجن».

هكذا في السجن يحدث شيئ إيجابى بأن يتأثر المسجون الجنائي بالأفكار والمبادئ والثقافة للمسجون السياسى. وبعض الأحيان يحدث شيئ سلبي وهو تأثر السياسي بالجنائي في شرب البرشام والهبهب وخلافه.

طور أحمد شرف الدين الإذاعة المسائية من شبابيك الزنازين. وأسماها «إذاعـة جمهورية سجن القاهرة الديمقراطية». أصبحت الإذاعـة غنية بالمقالات الناطقة التي تحلل أحداث الساعة وأخبار الخارج.

أما اللجنة الرابعة. لجنة المعرض. فكانت تعد لعمل معرض خاص بطلاب

سجن القناطر. وعرضه خارج السجن بالحرم الجامعي في جامعة القاهرة.

شكلنا لجنة من الطلاب بالخارج «والذين لم يتم القبض عليهم»، كانت هذه اللجنة تتلقى الرسومات والنشرات التي يتم إعدادها داخل السجن. وقد قمنا بعمل أشياء متنوعة:

رسومات تعبيرية على الفانلات الداخلية أو تشيرتات ٢/١ كم بيضاء كانت تدخل إلينا في الزيارات كملابس داخلية، و يتم الرسم عليها بالألوان التي هربناها من الخارج للداخل. وكل فانلة تحتوي على كاريكاتيرأو رسمة تعبيرية أوشعار للحركة الطلابية. الخ

أشرف على إعداد هذه الفانلات مجموعة من الطلاب الفنانين والذي كان لديهم مواهب جميلة وخارقة في الفنون الجميلة من أمثال السيد دحروج الطالب بكلية الحقوق.

على إحدي ملايات السرير البيضاء رسمت قبضة يد قوية تخرج من شباك زنزانة وكتب تحتها بالخط العريض:

«النصر للحركة الطلابية. الإفراج عن الطلاب المعتقلين»،

ووقع بأقلام الفولوماستر السبعون طالبًا كل بتوقيعه الخاص، وأسفل كل التوقيعات كتب بالخط العريض:

«الطلاب الوطنيون بسجن القناطر»

أعددنا عددا هام ومتنوعا من مجلات الحائط الورقية. كتبنا المقالات على ورق فولسكاب داخل السجن ثم هربناه وقام زملاؤنا بالخارج بلصقها على أفرخ من الورق المقوي وعمل التخطيط العام لمجلة الحائط.

صنعنا مجموعات من لعبة الشطرنج من لبابة الخبز بالسجن.

سرقنا دفتر عنبر السجن الداخلى ومدون به أسماء المسجونين ومدد الحبس والتهم. وكتبنا مقالات متنوعة عن الجريمة والظروف الاجتماعية للمجتمع.

هرّبنا إلى خارج السجن بعض الكرابيج والعصي التي يحملها السجانة لضرب المساجين بالسجن.

هرّبنا برش بالكامل «مصنوع من الليف». والذي ينام عليه السجين.

هرّبنا أروانات كانت تعطى إلينا لكي نأكل فيها. قمنا بإعداد معرض كامل متكامل وهربناه مع الملابس المتسخة التي كنا نعطيها للأهالي عند الزيارة. كانت إدارة السجن تفتش جيدًا الشنط الداخلة إلى السجن. ولم تكن تلقى أية نظرة على الشنط الخارجة من السجن والتي كانت تحتوي على محتويات المعرض. كنا نخفي الألوان الفولوماتسر والفرش والأصباغ اللازمة للرسومات عند المساجين الجنائيين. كان هناك خطة عمل متكاملة لعمل المعرض. كان يشرف علينا أحمد عبد الله رزه.

الطلاب يخاطبون بعضهم من شبابيك الزنازين حول المعرض وماذا أعد؟ وماذا يتم إعداده؟ باللغة الانجليزية حتى لا يفهم الحراس ماذا يقولون؟

من أوائل فبراير وحتى منتصف مارس كانت لجنة إعداد المعرض تعمل بهمة ونشاط حتى خرج المعرض وتم نصبه في حرم جامعة القاهرة على مجموعة من الحبال. كل حبل مربوط بين نخلتين. علقت الفانلات والتيشرتات بالمشابك. و كذلك ملاءة السرير الكبيرة ومجلات الحائط، والبرش، ولوحات الشطرنج على الأرض. الخ

كان معرضًا ضخمًا وفكرة جديدة. مقالات حائط ورسومات بأسماء طلاب داخل السجون يا للعجب يا للعجب.

إلتف جمهورالطلاب حول المعرض وطافت بالحرم وعند النصب التذكاري أضخم مظاهرة في ٢١ مارس ١٩٧٣ تطالب بالإفراج عن الطلاب المعتقلين. وهنا جن جنون ممدوح سالم وكان وقتها وزيرا للداخلية. ومن ملاءة السرير عرف أن هذا المعرض خرج من سجن القناطر. فقام وزير الداخلية بمعاقبة

إدارة السجن بكامل أطقمها بعقوبات شديدة. وعرفنا بعد ذلك أنه قال لهم:

- بقى أنا ساجن الطلبة علشان ما يعملوش مجلات حائط. يقوموا يعملوا مجلات حائط جوه السجن ويهربوها بره السجن ويعلقوها في ساحة الجامعة يبقى إيه فايدة السجن؟!!!

الصدام والحريقة

كانت الزنازين في سجن القناطر تفتح من قبل الحراس في تمام الساعة الثامنة صباحًا. ونظل من هذه الساعة حتى السادسة مساءً في فناء السجن ونتنقل بين أدواره المختلفة. كانت العلاقة حميمة بيننا وبين المسجونين الجنائيين بالسجن. من خلال المعاملة الطيبة لهم، ومن خلال توزيع الأدوية عليهم من قبل لجنة الإعاشة، حيث كانت مستشفى السجن لا تقدم أي رعاية طيبة لهم، ومن خلال معارف شخصية وعائلية أوصى عليّ أخي فؤاد خليل أحد ضباط السجن برتبه نقيب يدعي النقيب عصام، وكان الضابط يتعامل معي بود.

بعد عدة أيام من مظاهرة ٢١ مارس بالجامعة ومعرض السجن بالجامعة، فوجئنا في أحد الأيام بعدم فتح الزنازين كالمعتاد في الثامنة صباحًا. أوهمونا في البداية أنه توجد حملة تفتيش مفاجئة على السجن وستفتح الزنازين بعد ساعة، ثم بعد ساعة أخرى، وهكذا. ظللنا حتى الواحدة أو الثانية ظهرا داخل الزنازين بلا دورات مياه ولا مياه ودون زيارات. لقد تم منع الزيارات، وكنا من قبل قد قمنا بترتيب جدول الزيارات على الأهالي. يوميا كان يحضر أكثر من خمس أو ست زيارات من أهالي الطلاب. أخذنا نطرق على الأبواب دون جدوى. قفلت جميع الزنازين على السياسيين والجنائيين. فرق من العساكر وقوات الأمن المسلحة بالكرابيج والعصي بدأت تدخل عنبر السجن.

صعدت إلى الشباك فوق باب الزنزانة وأخذت أهتف شعارات حركة الطلاب والزنازين تردد. جاء النقيب عصام وفتح باب الزنزانة. كنت بداخلها أنا وأربعة من الزملاء. قال لي:

- أخرج من الزنزانة.

خرجت فوجدت نفسي محاطًا بما لا يقل عن ٤٠ عسكري من جميع الجهات. قال لي النقيب عصام:

- مش تحترم نفسك.

واستدار إلى الخلف ثم إلى الأمام وصفعني بشدة وبقوة على وجهي. كنت حافي القدمين وأرتدي بيجامة من الكستور.

دفاعًا عن نفسي ركلته بقدمي، ولا أعرف إن كانت هذه الركلة قد جاءت فيه أم لا. حيث أن صفعته كانت قوية، وما كنتش شايف أي حاجة قدامي. لم أحس إلا بجسدي يجر على أرضية العنبر وبلاطه وتنهال على جسدي الصفعات والشلاليت والعصي والكرابيج وقد شلحوا سترة البيجاما عن جسدي. وكانت علقة ساخنة.

سمعت صوت الكلب النقيب عصام: خدوه على عنبر التأديب. وأخذوني على عنبر التأديب.

«أنا ما هنت في وطني ولا صغرت أكتافي. وقفت في وجه ظلامي يتيمًا عاريًا حافي».

ألقوني داخل أحد الزنازين على الأرض. كان مغشيًا عليّ من شدة الضرب. أخذت استجمع قواي وأمسح الدم من على بعض الجروح وأتحسس وجهي من ضربة القلم.

بعد أخذي على التأديب شكلوا طوابير وتشريفة طويلة من عنبر السجن حتى عنبر التأديب. كان الطابور يتشكل من صفين متوازيين المسافة بينهما

متر واحد. ويقف العساكر مسلحين بالكرابيج والعصي متراصين إلى جوار بعضهم، بحيث يسير المعتقل بين الصفين وينهال عليه الضرب من الجانبين.

فتحوا أول زنزانة وسار أفرادها يضربون بين طابورى التشريفة. «مسافة حوالى ٤٠٠ متر».

وبعد أن رأت الزنزانة المجاورة ما يحدث للزنزانة السابقة، قام أفراد كل زنزانة بالضغط على الباب وعدم تمكين العساكر من فتح باب الزنزانة، حيث أن باب الزنازنة كان يفتح إلى الداخل. لما عجزت قوات الأمن عن فتح باب الزنازين قاموا بإحضار خراطيم المطافيء الضخمة، وأطلقت المياه من باشبوري كل خرطوم نحو الزنازين. خرطوم يطلق المياه من الشباك فوق باب الزنزانة، وخرطوم آخر يطلق المياه من الشباك الآخر الذي يطل على فناء السجن.

خلال دقائق قليلة تغرق الزنزانة بالمياه. ويضطر الطلاب بداخلها للخروج خارج الزنزانة، ويجبروا بالضرب والمطاردة على الدخول إلى مصيدة طابور التشريفة وملابسهم مبتلة. كان الجو شتويًا حيث كانت هذه المعركة حوالي يوم ٢٥ مارس ١٩٧٣ تقريبًا. ضرب وعصي مع رجفة من الرش بالمياه وبرودة الجو. هكذا تم سحل السبعين طالبًا داخل سجن القناطر. ودائمًا لكل معركة أبطالها. وبطل هذه المعركة هو الطالب جلال مقلد «محافظة كفر الشيخ».

خرج جلال من زنزانته مستسلمًا صارخا:

- أنا مليش دعوة باللي بيحصل.

وبعد تلقيه عصا والثانية توجه ناحية النقيب عصام قائلاً:

- أنا حرمت خلاص أنا ماليش دعوة باللي بيحصل.

صرخ الضابط في عساكره قائلاً لهم:

- سيبوه لا تضربوه. اجلس هنا على جنب.

هنا أدرك جلال مقلد أن خطته قد نجحت،لأنه خرج من الزنزانة مصمماً على الخديعة والإنتقام لزملائه. جلس قرفصاء على الأرض يتحين اللحظة المناسبة. في لمح البصر جرى جلال مقلد وركل قدمي الضابط عصام من الخلف بمشط رجله. كان الضابط يرتدي الحذاء الميري والأرض غارقة بالمياه فترنج الضابط متزحلقًا نازلا بكامل جسده على أرضية العنبر بعد أن طار الكاب من فوق رأسه. كان منظره مخزيًا وسط جنوده الذين أنهالوا على جلال مقلد بالضرب المبرح حتى أغمى عليه، وتركوه مغشيا عليه على الأرض وأستداروا ليكملوا الضرب فى باقى الطلاب.

أفاق جلال مقلد من غيبوبته فقام مسرعًا، ومن الخلف طرح الضابط للمرة الثانية على الأرض!! وتحول بعد ذلك إلى قطعة من العجة بين أيدي العساكر والضباط.

تم ضربنا بوحشية شديدة، ونقلنا جميعًا إلى عنبر التأديب، وقام الضباط بحرق أحد الزنازين، أشعلوا فيها النيران عن عمد. لا يستطيع الضباط أن يقولوا إننا قد دبرنا هذه المجزرة الوحشية ضد الطلاب لأنهم غافلونا وأخرجوا معرضًا مصورًا بالمجلات والفانلات من داخل السجن إلى الجامعة مما أدى إلى توقيع الجزاء والعقوبة علينا. لقد دبروا هذه العلقة الساخنة للإنتقام منا، وسار التحقيق في إتجاه أننا قمنا بتمرد داخل السجن. وحرقنا أحد الزنازين فتم تأديبنا ومواجهة التمرد. ونقلنا لعنبر التأديب!!

في عنبر التأديب منع عنا الطعام والزيارات، وجاءوا إلينا بطبيخ السجن وأرز و عدس وقد رشوا عليه الكيروسين!!! وأعلنا الإضراب عن الطعام جميعًا دفعة واحدة. في اليوم الرابع حضر النقيب عصام قائلاً ومتوددًا للبعض منا:

- عندكم جلسات أمام القضاء وقد أحضرت لكم جميع ملابسكم (ملابسنا الشخصية التى صودرت أثناء العركة).

رفضنا جميعا نزول الجلسات. واستمر النقاش. ودارت مفاوضات. ووصلت لجنة الإضراب لإتفاق:

نزول الجلسات مقابل فتح الزنازين على الجميع. وإحضار ملابس الجميع، وتركيب العديد من الحنفيات واللمبات داخل التأديب، وتحسين الأمور بشكل عام.

نزلنا الجلسات، وحكينا للطلاب وأمام القضاة كل ما حدث لنا طوال الأيام السابقة.

وبعدها بيومين كانت هناك مظاهرة بالجامعة تندد بما حدث. أما عن التأديب فلم يعد تأديبا وإنما حولناه إلى جنة وندوات.

الترحيل إلى سجن القلعة

بعد أن تحول عنبر التأديب إلى جنة وأصبح عنبر استجمام لا تأديب، جاءت زيارة لي مكونة من أمي وأخي محمد خليل. في هذه الزيارة أبلغني أخي أنه تم القبض على أحد أبناء حينا واسمه «علي سعد». وإنه بيقول إنهم مسكوه من شقة بشارع الهرم وحاولوا الضغط عليه للإعتراف عليك وعلى زملاءك بالكلية لكنه رفض ذلك، وضربوه وقالوا له، نحولك لشاهد ملك في القضية لكنه رفض أن يعترف على أحد. وقال أن الشقة دي هوه كان يستأجرها لوحده ومفيش أي علاقة بينه وبين الطلبة والسياسين. وبعد أسبوع أفرجوا عن علي سعد، وهو طلب مني أن أبلغك بذلك.

إنتهت الزيارة ومن خلال ما حكاه محمد خليل عرفت أن الشقة التي استأجرناها بشارع الهرم وهربت فيها مع زملائي المطاردين تم إكتشافها. لقد عرف السر الذي أخفيته على مباحث ونيابة أمن الدولة طوال الفترة الماضية. كنت أثق أن علي سعد أبن حينا لن يعترف عليّ ولا على أحد من زملائي بحركة الطلاب. لقد كان على سعد همزة الوصل بيننا. كان ينزل إلى الجامعة يراقب كل ما يحدث عن بعد. حيث كان ينزل إلى الجامعة زميل واحد حتى إذا قبض عليه ينزل الثاني. وكان علي يراقب الزميل الذي ينزل ويتتبع تحركاته ويخبر المجموعة بالقبض أو عدم القبض عليه. كيف قبض عليه؟!! وماذا حدث؟!!

كل هذه الأسئلة كانت تدور بذهني ولا أجد إجابة عليها. لقد انتهت الزيارة. وعدت إلى الزنازين. بعد ساعة من انتهاء الزيارة تم نداء إسمي. ترحيل إلى سجن القلعة.

صعدت سيارة الترحيلات إلى سجن القلعة. أدخلت زنزانة رقم ٨ حبس أنفرادي. الأسئلة تطارد رأسي. ماذا حدث؟ لماذا تم ترحيلي إلى سجن القلعة؟

فى لاظوغلى تحملت الضرب والصفع من كلاب مباحث أمن الدولة لأعترف على مكان زملائي. ينبغي أن أصمد. خمنت الوقائع كالتالي: تم القبض على «علي سعد» لسبب ما «مش مهم معرفته». علي سعد أنكر معرفته بي وبزملائي حتى لا يعترف علينا. علي سعد رفض أن يقول الحقيقة وقال أن الشقة كان يستأجرها بمفرده من أجل علاقات نسائية خاصة به حتى لا يعترف على أحد. ظللت طوال اليوم أفكر. في الثمانية مساء جاء بعض ضباط مباحث أمن الدولة وأخذوني في سيارة خاصة. نزلوا بالسيارة من القلعة إلشارع صلاح سالم إلى جامعة القاهرة. وقفوا بالسيارة عند تمثال نهضة مصر أمام كلية الهندسة وأنا صامت. سألتهم انتوا هاتحققوا معايا جوه كلية الهندسة؟! قالوا: لا إحنا بس جايبينك جنب الجامعة والكلية علشان تشوف كلية الهندسة لآخر مرة، لأن النهاردة صدر قرار بفصلك من الكلية.

أجبتهم بكل برود: طز في أتخن كلية هندسة. لا يشرفني أن أكون مهندسًا. وأنا لو اترفدت من كلية الهندسة ها أجيب عربية فول وها أبيع فول قدام الكلية وبرضه هنعمل مظاهرات وهنقول «مش معقول. مش معقول. سرقوا الشعب الواكل فول»

إبتسموا وأدركوا أن حربهم النفسية لم تفلح. ساروا بي نحو محكمة بشارع السودان بعد ميدان الكيت كات. صعدوا بي إلي غرفة وكيل نيابة يدعي أحمد رفعت أخذ يسأل وأنا أرفض التحقيق إلا في وجود محامي.نفذت تعليمات

أحمد شرف المرة دي بشكل صارم. وظل ذلك يتكرر لمدة ثلاث ليالي متتالية. وأنا أرفض أن التحقيق يجري في الواحدة أو الثانية صباحا وبدون محامى.

في الليلة الرابعة دخلت التحقيق وبدون محامي. كنت أريد أن أعرف ماذا يريدون بالضبط؟ وأخذ وكيل النيابة يسأل ويسأل وكلها أسئلة فارغة. ويدور ويلف. وأدركت أن ذلك كله بهدف قنبلة على سعد. إلى أن بادر بسؤاله:

- هل تعرف علي مسعد علي؟.

فأجبت:

- سيادتك تقصد علي سعد علي

فنظر إلى أوراقه قائلاً:

- نعم. علي سعد علي. يعني تعرفه؟!!!!

قلت له:

- نعم أعرفه.

فبدأت شهيته تنفتح للأسئلة:

- كيف ومتى وأين؟.

قلت له:

- علي سعد ابن الحي الذي أسكن فيه. وحينا ضيق وكلنا نعرف بعضنا وعلي سعد شاب ليس له صلة لا بالسياسة ولا بحركة الطلبة.

قال:

- لقد ضبط في شقة بشارع الهرم.

قلت له:

- وما علاقة هذا بالسياسة؟ وبحركة الطلبة؟ يعني هوه كل واحد مستأجر شقة في شارع الهرم يبقى له صلة بحركة الطلبة!!!

قال وهو يرفع منديلا من القماش من على مكتبه وأخذ يجفف به عرقه:

- إعترف علي سعد بأنه ينتمي معك لتنظيم سري يهدف قلب نظام الحكم، وأن الشقة المستأجرة بشارع الهرم كانت تضم الهاربين من أعضاء التنظيم بكلية الهندسة، وأن علي سعد كان همزة الوصل بينك وبينهم. ما رأيك في ذلك؟

لاحظت أثناء السؤال أن كاتب التحقيق لم يكتب هذا السؤال فقلت:

- لن أجيب على السؤال إلا إذا كتب في محضر التحقيق.

وقف مرتبكًا:

- لا إحنا بنسأل الأول وبعدين هنكتب كل سؤال وجواب.

فقلت له:

- علي سعد ليس له صلة بالسياسة. كل العلاقة معه أنه من أبناء حي داير الناحية الذي تربيت فيه ومفيش تنظيم سري. ونظام الحكم بتاعكم هوه مقلوب لوحده ومش محتاج حد يقلبه.

أخذ يلف ويدور حول موضوع شقة الهرم. وكانت إجاباتي لا أعرف شيئًا عن ذلك.

لكن وكيل النيابة لم يسجل أي سؤال سأله ولا أي إجابة أجبت بها. ولما سألته لماذا لا يكتب كاتب الجلسة الأسئلة والأجوبة. فهمت أنه عندما رفع المنديل من على المكتب كانت تلك إشارة متفق عليها مع كاتب الجلسة بألا يسجل الأسئلة. لأن أسئلته كانت غير حقيقة.

فعلي سعد لم يعترف على شيء، وإنما كان يريد أن يربكنى عند سماعى بإعترافات من علي سعد وتنظيم سري وقلب نظام الحكم يمكن يوصل لشيء.

إنقلب التحقيق بعد ذلك فأصبح عن مظاهرة ١١ فبراير بميدان الجيزة، والتهمة أنني اشتركت في مظاهرة كان من شأنها تكدير السلم العام. نعم أنا

اشتركت في مظاهرة الطلاب بميدان الجيزة.

أقفل التحقيق و تم ترحيلي في اليوم التالي ثانية إلى سجن القناطر حيث عنبر التأديب والاستجمام!.

وحينما عدت إلى سجن القناطر أخذت أجمع جميع الجرائد اليومية طوال الفترة التي أمضيتها بسجن القلعة تحت الحبس الإنفرادي لأتابع ماذا جرى، فقد حجبت عني الجرائد طوال هذه الفترة. وكانت مانشيتات الجرائد في هذه الفترة وفى أحد خطب السادات عن: شقة شارع الهرم. وتنظيم شروق. فقد تم القبض في هذه الفترة على المناضلين نبيل الهلالي ومحمد علي عامر وأديب ديمتري وجميل حقى وآخرين بتهمة الانتماء إلى شروق وظلوا معتقلين بسجن القلعة لعدة شهور. أما السادات فقد قال في إحدى خطبه:

«لقد ضبطنا التنظيمات السرية وراء حركة الطلبة. لقد استأجروا شقة في شارع الهرم لتدبير المؤامرات ضد نظام الحكم. من أين أتوا بالأموال؟.الخ».

الشقة بالفعل كانت في شارع الهرم بجوار الأندلس بعد محطة التعاون. شقة مفروشة كان إيجارها الشهري ٢٥ جنيه كما ذكرت من قبل. جمعنا فيها كل الهاربين والمطلوب القبض عليهم من طلبة كلية الهندسة، نعم، لندير منها المظاهرات التي تطالب بالإفراج عن زملاءنا الذين تم إعتقالهم و للإختفاء من أعين الشرطة.

مبلغ ٢٥ جنيه شهريًا في ذلك الوقت كان مبلغًا كبيرًا بالنسبة لنا كطلاب حقًا، لكنه كان تافهًا بالنسبة لحركة طلابية تضم الآلاف ولها الآلاف من المتعاطفين معها.

لقد تم معرفة المكان من قبل جهات الأمن، لكن بعد أن تم القبض على جميع الهاربين من الشارع ومن المظاهرات، ولم يعترف أحد من الهاربين على مكان الشقة، وبخطأ من أحد الطلاب «من غير الهاربين» كان قد تعرف على

المكان. عرفت جهات الأمن المكان فنصبت كمينًا محمكًا.

أما ابن حينا علي سعد حينما وجد الجميع قد تم القبض عليهم، فإنه قرر الذهاب إلى الشقة، وأخذ كتبه وملابسه وترك المكان. لم يكن يعرف أن المكان قد إكتشف من قبل أجهزة الأمن. فتح علي سعد باب الشقة ثم ضع يده على مفتاح الكهرباء بجوار الباب ليضيئها. فجأة وجد أمامه نصف دستة من ثيران أمن الدولة ومخبريها جالسين في الصالون في انتظار الفريسة. قفلوا باب الشقة وأشبع الثيران علي سعد ضربًا مبرحًا. أخذوا بطاقته وعرفوا من عنوان السكن «شارع داير الناحية» أنه أكيد صديق لي وله صلة بالسياسة. جروه إلى مبنى جابر بن حيان. صار الضغط عليه من أجل الإعتراف. لقد كان علي سعد «رحمه الله» عضوًا معي بتنظيم الشروق، كان علي سعد يخفي بمنزله أرشيفا كاملاً للأوراق السرية لتنظيم شروق. لم يخرج منه رجال مباحث أمن الدولة بكلمة واحدة ولا نصف معلومة رغم أن هذه المواجهة كانت هى المرة الأولى له في التعامل مع أجهزة شرسة وعاتية، ورغم أنه تعرض للتعذيب الشديد والإهانة، ورغم أنه أيضًا تعرض للإغراء المادي الشديد في حالة إعترافه والتجاوب معهم. يا سلام يا علي سعد، يا أغلى الرجال ويا أعز أبناء داير الناحية. هذه هي القصة كاملة عن تنظيم شروق وشقة الهرم. أرويها تفصيلاً بعد مرورسنين طويلة على تاريخها. كان بطلها الحقيقي علي سعد، مثلاً لمن يعملون ويناضلون ويكافحون في صمت. ويرحلون أيضًا في صمت. هكذا هم الشرفاء دائمًا.

نضالنا اعتبره النظام ورئيسه ورجال أمنه مؤامرة وعمالة وتمويل. أما نحن فقد كنا ندافع عن حركة طلابية، وعن حقنا في بناء تنظيماتنا المستقلة، وحقنا في مقاومة نظام ديكتاتوري. طبعًا نراوغ في التحقيقات ونخفي الحقائق لأننا أمام سلطة تحقيق غير عادلة وغير شرعية.

والذي لا تعرفه أجهزة الأمن حتى الآن أنه بعد القبض على علي سعد بثلاثة أيام ذهب الضابط الاحتياطي صديقنا ومسئولناً بتنظيم شروق لينهي عقد الشقة ولم يكن يعلم أن علي سعد تم القبض عليه، ففوجئ بصاحبة الشقة تصرخ في وجهه وتقول له:

- يبقى أنت مع الشاب اللي اتمسك من يومين. لازم أبلغ المباحث.

وبدأ صوتها يعلو ويرتفع:

- ضباط المباحث قالولي لازم تبلغي على أي حد يبجي الشقة دي.

وتصرف الضابط الاحتياط بحنكة رائعة قائلاً لها:

- ليه ليه حرام عليكي. الناس اللي قالولك أنهم ضباط أمن دولة وقبضوا على الشاب دول مش أمن دولة ولا حاجة. دول ضحكوا عليكي. إحنا علينا تار في الصعيد وهمه خدوه عشان يقتلوه. روحي يا شيخة ربنا يسمحك.

فصمتت السيدة وهي في حالة ذهول. تار. صعيد. أمن دولة. أنا مكنتش أعرف ولاد الكب قالوا أنهم ضباط مباحث!!!!

وانسحب صديقنا ومعلمنا ومسئولنا بتنظيم شروق من أمام السيدة في هدوء متصنعًا البكاء والألم، وترك السيدة وهي حزينة ومندهشة. لقد كان هذا الإنسان العزيز صيدًا ثمينًا، لكنه لم يقع في شباك أمن الدولة وقتها.

مر شهر أبريل بعنبر التأديب في سجن القناطر، وفي أوائل مايو تم ترحيل كل الطلاب لسجن طرة لأداء الإمتحانات. لم يبق بسجن القناطر إلا غير الطلاب. تم تجميع الطلاب من جميع السجون في عنبر واسع مفتوح «بسجن طره العمومي» كان يسمى عنبر السينما. وكانت أياما للمذاكرة.

كنت قبل الغروب أصعد علي شجرة كبيرة وأتسلقها، وكانت العملية سهلة لضخامة جذوع الشجرة، كنت من فوقها كاشفًا لكورنيش النيل. وما أجمل النيل في هذه المنطقة. «فعلاً السجن مطرح الجنينة».

في يوم من الأيام رحت في نوم عميق أعلى الشجرة. وثم قفل عنبر السينما على الزملاء، وتم تبليغ إدارة السجن بهروب أحد الطلاب، وظلوا يبحثون عني لولا أن أحد زملائي كان يعرف أنني أصعد كل يوم إلى الشجرة فجاء وأيقظني وعاد الهارب لعنبر السينما. وفي أوائل شهر يونيو صدر قرار الاتهام بشأن القضايا الطلابية. ونشر على صفحات جريدة الأهرام «تقريبا يوم ٥ يونيو أو ٦ يونيو عام ١٩٧٣». كما تسلم كل من الطلاب المتهمين نسخة من قرار الاتهام، أما الطلاب الذين لم ترد أسماؤهم بقرار الإتهام فقد تم الإفراج عنهم.

وصدر قرار الاتهام في قضيتين.

القضية الأولى كانت تضم أحمد عبد الله رزة وسهام صبري وآخرين متهمين بالتحريض والإثارة ومعهم كل من قبض عليهم في ٢٩ ديسمبر ١٩٧٣.

القضية الثانية سميت بقضية تنظيم الجيزة وكانت تضم الهاربين وقصة شقة الهرم وكافة العناصر التى اشتركت فى أحداث ١٩٧٣ وقبض عليها.

في أول شهر يوليو وعقب انتهاء الإمتحانات الطلابية عاد من تبقى من الطلاب مرة ثانية إلى سجن القناطر بعنبر التأديب. وطوال شهري يوليو وأغسطس توالت الإفراجات عن الطلاب. وفي أوائل شهر سبتمبر لم يتبقى بسجن القناطر سوى ثلاثة من الحركة الطلابية:

كمال خليل «هندسة القاهرة» أحمد هشام عبد القادر «خريج هندسة القاهرة وأحد المؤسسين الأوائل لجماعة أنصار الثورة الفلسطينية» محمد نعمان «كلية الزراعة جامعة القاهرة»، وأفرج أيضًا عن جميع الطلاب بباقي السجون. ولم يتبقى بسجن القلعة بالإضافة إلى ثلاثة سجن القناطر سوى الآتي أسمائهم:

١- إبراهيم عزام «هندسة القاهرة»

٢- أحمد بهاء شعبان «هندسة القاهرة»

٣- طلعت فهمي «هندسة القاهرة»

٤- حلمي المصري «هندسة القاهرة»

٥- سحر عبد المنعم الصاوي «ابنة وزير الثقافة»

هؤلاء الثمانية في سجنى القلعة والقناطر.

أنا وهشام ونعمان ظللنا معًا في زنزانة واحدة بسجن القناطر حتى جاءت حوالة بعشر جنيهات لزميلنا نعمان. فسهرنا طوال الليل نضع ميزانية حرب لإنفاق العشرة جنيهات، لكن تمت مصادرتها من قبل إدارة السجن مقابل البطاطين التي قمنا بحرقها أثناء التمرد في السجن. «يقصدون البطاطين التي حرقوها حتى يداروا على خيبتهم في موضوع تهريب المعرض!!!!!!!»

في منتصف سبتمر جاء إلينا في سجن القناطر «إبراهيم وبهاء وطلعت وحلمي» وأصبحنا سبعة بسجن القناطر، وسحر الصاوي وحدها بسجن القلعة. أبلغني أحد الزملاء بحلقة شروق أن هناك اتصالات من قبل التنظيم برئيس منظمة الشباب كمال أبو المجد من أجل الإفراج عنا. قلت له أنا أرفض ذلك. سيتم الإفراج عنا حينما تفتح الجامعة من خلال مظاهرات الطلاب لا من خلال التفاوض مع الدولة.

في ٢٨ سبتمبر وأثناء خطاب السادات في المساء قامت إدارة السجن بتشغيل الإذاعة الداخلية وسمعنا الخطاب الذي قال فيه السادات: لقد أمرت بإسقاط قضايا الشباب من أمام المحاكم، وأمرت بالإفراج عن جميع الطلاب.

ظللنا بالسجن حتى يوم ٣ أكتوبر، وأفرج عنا ولم نكن ندري أن يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ سوف يكون يومًا تنتهي فيه حالة اللا سلم واللا حرب ويوما لعبور قناة السويس. خرجنا من السجن يوم ٧ رمضان وكنا قد أمضينا داخل السجن ٧ أيام من رمضان. عدنا إلى الديار بعد ٧ شهور وأثنين وعشرين يومًا.

خرجنا إلى الأهل والأصدقاء. أخذنا نحفظ من زملائنا أغنية زين العابدين الجديدة من تلحين الشيخ أمام عيسى:

إتجمعوا العشاق في سجن القلعة

اتجموا العشاق في باب الخلق

والشمس غنوة م الزنازين طالعة

ومصر غنوة مفرعة في الحلق.

اتجمعوا العشاق في الزنزانة

مهما يطول السجن مهما القهر.

مهما يزيد الفجرم السجانة

مين اللي يقدر ساعة يحبس مصر.

ولا حد.

وقصيدة نجم من تلحين الشيخ أمام:

شيد قصورك على المزارع

واقفل زنازينك علينا

كفارة يا معلم. السجن للجدعان.والمشنقة مرجيحة الرجالة.

رؤية سريعة عن حال المنظمات الماركسية بالجامعة

في العام الـدراسي «٧٣ - ١٩٧٤» كانت خريطة التنظيمات الماركسية بالجامعة كما يلي وبالترتيب وفقًا لحجم عضويتها:

١-حزب العمال الشيوعي: وكان يصدر مجلة الإنتفاضة وتقريبًا تحول هذا التنظيم من «تنظيم شيوعي مصر» «تشم» إلى حزب العمال الشيوعي المصري. وكان أول وثيقة أطلع عليها لهذا التنظيم بعنوان:

«طبيعة التحالف الطبقي الحاكم وطبيعة المرحلة الثورية». وكانت على هيئة كتيب صغير الحجم «في حجم كف اليد». طبع بشكل جيد وكان مؤلفه بعنوان «شيوعي مصري».

وكان «تشم» ثم حزب العمال الشيوعي يحدد طبيعة الرأسمالية الحاكمة في مصر برأسمالية الدولة ويطلق عليها «البرجوازية البيروقراطية»، وكان يحدد طبيعة المرحلة الثورية «الإستراتيجية الثورية» بالثورة الإشتراكية التي تنجز مهام الثورة الديمقراطية والاشتراكية في آن واحد. وكان هذا التنظيم هو أكبر التنظيمات الماركسية في الجامعة من حيث العضوية المنتشرة في كليات عديدة بالجامعات المصرية «القاهرة - عين شمس - الإسكندرية - المنصورة - أسيوط».

٢- حزب ٨ يناير: والذي أشرت إليه من قبل. وكانت عضوية الطلاب بمنظمة ٨ يناير أقل طبعًا بكثير من حزب العمال الشيوعي لكن كوادر ٨

يناير الجماهيرية كانت أكثر تأثيرًا وحيوية.

قالوا عننا «انتهازيون». وقلنا عنهم «أطفال يساريون»

مع أن الأمور كانت تحتاج إلى نظرة أبسط من ذلك بكثير.

٣- حلقة «المطرقة»: التي أشرت إليها من قبل. وأعتقد أن هذه الحلقة هي الحلقة الوحيدة في هذه الفترة التي لم تطلق على نفسها اسم «الحزب» وكانوا يسمون بجماعة المطرقة.

٤- الحزب الشيوعي المصري: وهذا الحزب تكون من اتحاد عدد من المجموعات التنظيمية التي تكونت في بداية السبعينات. وأغلب قادة هذا الحزب ممن لعبوا دورًا بارزًا في حل الحزب الموحد عام ١٩٦٥. وهذا الحزب كانت عضويته متسعة «ربما تعادل أو تفوق» عضوية حزب العمال الشيوعي. لكن ذلك كان خارج الجامعة.

أما داخل الجامعة وفي قلب الحركة الطلابية فإن هذا الحزب لم يكن موجودًا، وإن وجد فإن وجوده كان هامشيًا وبلا تأثير، وأعتقد أن ذلك كان يرجع إلى عاملين:

أولهما: كانت الحركة الطلابية في أعوام ٧٣، ٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٦ في حالة صدام دائم مع النظام الحاكم. وكان هذا الحزب يتخذ موقفًا مهادنًا مع النظام الحاكم بفعل تحليل سلطة الثلاثة أثلاث الذي كان سائدًا أثناء تشكيله. وكان يرى أن السادات هو قائد الجناح الوطني في النظام الحاكم.

«لقد قرأت مقالاً في أحد أدبيات هذا الحزب بعنوان «علي ومصطفى أمين. عرفنا دورهما القديم فما هو دورهما الحديث».كان هذا المقال في ثناياه لا يقف عند حدود وطنية جناح السادات وفقط، بل كان يتحدث عن السادات «خليفة جمال عبد الناصر على طريق الاشتراكية!!!».

الميول اليمينية لهذا الحزب جعلت من دوره هامشيًا داخل حركة طلابية

قامت على منهج الصدام مع النظام الحاكم. وإن ظهرت بعض عناصر هذا الحزب داخل الحركة الطلابية فإن نشاطها كان نقابي طلابي دون أي وجه سياسي.

ثانيهما: كان لمنظمة «شروق» تواجد تنظيمي ضخم بالجامعة. لكن عبر إندماج تنظيم شروق في مجموعة الحزب الشيوعي المصرى، فإن كوادر شروق الطلابية داخل الحزب الشيوعي المصرى قد انسحبت تمامًا من ساحة العمل الطلابي مع بدايات عام ١٩٧٤. وكان إنسحابهم منظما.

لقد تفاعل هذان العاملان مما أدى إلى إنحسار وجود الحزب الشيوعي المصري داخل الجامعة، وأصبح غير متناسب على الإطلاق مع وجوده خارج الجامعة. وحتى تكتمل خريطة التنظيمات الماركسية بالجامعة فإنه يمكن الإشارة إلى تنظيمين آخرين لم يكن لهما وجود في عام ١٩٧٤ وهما:

٦-العصبة الماركسية وهي جماعة تروتسيكية. ظهرت أول ما ظهرت بالجامعة في أوائل عام ١٩٧٥.

وهي المجموعة الوحيدة في التنظيمات الماركسية التي كانت تتحدث في أدبياتها عن طبيعة الدولة السوفياتية ب «دولة عمالية منحطة بيروقراطيًا» بينما كانت جميع التنظيمات الأخرى تتحدث عن الاتحاد السوفيتي قائد المعسكر الإشتراكي.

وكانت تتحدث عن الطبيعة البونابريتة لنظام الحكم في مصر. وكانت تطالب بجمعية تأسيسية وأحـزاب لكل الطبقات، وكانت تطرح شعار «تحالف الطبقة العاملة العربية مع الطبقة العاملة الإسرائيلية» فوق مجلات الحائط. وعرفت في البداية باسم «تنظيم مصطفى خميس»». وكانت أدبيات هذه العصبة عبارة عن نشرة «الثورة الدائمة» كنشرة علنية، ونشرة «ما العمل» كنشرة سرية.

٧- الحزب الشيوعي المصري «المؤتمر»: وهذا التنظيم لم يبدأ في الظهور ألا تقريبًا في صيف عام ١٩٧٦. وهو كان إنشقاقا عن الحزب الشيوعي المصري. وكانت هذه المجموعة تتبنى معظم كتابات مهدي عامر «أحد المفكرين اللبنانيين» من نمط الإنتاج الأسيوي والبرجوازية الكولونيالية. لكن تأثيرها كان محدودا داخل الحركة الطلابية. ربما كان لها تأثير أكبر في بعض المحافظات. وكانت تصدر نشرة باسم «الأفق الأحمر». وفي فترة أخرى صدرت لها نشرة باسم «العامل».

٨- «التيار الثوري»: وكان وجودها محدودا داخل الجامعة، وكانت تؤمن بوطنية السلطة.وكانت ترفع شعار حرب التحرير الشعبية فى مواجهة العدو الصهيونى.وكانت تعرف بأسم مجموعة(ت. ث)

وحيث أنني الآن في عام ٢٠٠٨ أرى أن جميع ما سمى بالأحزاب الشيوعية «الحزب الشيوعي المصري - حزب العمال الشيوعي - حزب ٨ يناير - الحزب الشيوعي المصري المؤتمر».

كانت جميعًا حلقات ماركسية.لأن أيًا منها لم يتحول بعد إلى طور الحزب الجماهيري.الحزب الذي يضرب بجذوره في المناطق الصناعية والريف والأحياء الشعبية.

كان بعضها حلقات صغيرة، وبعضها حلقات كبيرة. لكن ما جرى في الحركة الشيوعية الثالثة «وأيضًا الثانية» تجاوز للحدود والفواصل بين الحلقة الدعائية والتنظيم والحزب.

كانت كل مجموعة تتكون سرعان ما تطلق على نفسها «الحزب» تضخيمًا في الذات.

حالة عصبوية ضد المجموعات الأخرى.

فكيف نكون نحن حلقة وغيرنا حزبا. نحن حزب مثلهم!!!

جماعة المطرقة كانت تحدد طبيعة الطبقة الحاكمة «بالرأسمالية المتوسطة» وكانت تحدد طبيعة المرحلة بالثورة الوطنية الديمقراطية. وكانت تتمركز هذه الجماعة في جامعة القاهرة وفي هندسة عين شمس. وكانت أقرب في تحليلاتها لواقع الجامعة وتكتيكات الحركة «لمجموعة ٨ يناير». كان الخلاف بينهما يتمحور حول طبيعة السلطة ومقولتى:

«البيروقراطية البرجوازية». و«البرجوازية المتوسطة»

وإذا تحدثنا عن الحركة الطلابية في بداية العام الدراسي «١٩٧٣، ١٩٧٤». فإنه كان في ساحة جامعة القاهرة وبالجامعة بشكل عام. تواجد فعلي لثلاثة مجموعات ماركسية:

«حزب العمال – ٨ يناير – المطرقة».

وبالطبع لم تكن ظروف الحركة الطلابية في عام ١٩٧٤ هي نفس ظروف وحالة الحركة الطلابية في عام ١٩٧٣ا. فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣ حارب النظام وتم عبور القناة وتدمير خط برليف. الخ

حارب النظام بطريقته. حرب محدودة وليست حربا طويلة المدى. حرب بهدف تحريك جمود حالة اللا سلم واللا حرب. وتحريك سياسة الحلي السلمي ومبادرات السلام الإستسلامية. وكانت ورقة «حدود أكتوبر» وهي احدى المقالات المطولة التي أصدرها حزب العمال الشيوعي لصالح محمد صالح «.أحد الأسماء الحركية بحزب العمال الشيوعى» تعبر بوضوح شديد عن حدود هذه الحرب وأهدافها.

بإختصار كنا إزاء حالة مختلفة تماما عن سنوات الانتفاضة الطلابية في ١٩٧٢، ١٩٧٣.

أي مشاهد للأمور كان يرى أن عام ١٩٧٤ لن يكون عام إنتفاضة طلابية.

بل عام هدوء. وعام دعاية وشرح لما حدث، وتفاعل جديد مع جماهير الطلاب، والتي أكيد أن قطاعات ليست بالقليلة منها قد بدأت تنحاز إلى النظام الذي حارب والذي كنا نقول لهم أنه لن يحارب. والنظام الذي بدأ يتحدث عن الإنفتاح الاقتصادي على أمريكا والغرب الذي سيهل علينا بأنهار السمن والعسل والرخاء بعد أعوام الانغلاق والحروب. هذا الوهم الذي ركزت عليه الآلة الدعائية الجهنمية للنظام، خدّر كثيرا من الجماهير «داخل وخارج الجامعة» بأوهام وطموحات عالية. هذا علاوة على أن جماهير الشعب المصري التي عانت طويلاً من مرارة هزيمة ١٩٦٧ كانت ترى في عبور القناة ورفع العلم المصري فوق سيناء وعبور خط بارليف وتحرير عشرات الكيلو مترات خلف القناة شيئًا عظيمًا يزيل مرارة الإنكسار والهزيمة وتحطيم سلاح الطيران في الدقائق الأولى من حرب ١٩٦٧. كانت بعض القطاعات من جماهير الطلاب لا تتقبل عبارات مثل «إنها حرب تحريك لا حرب تحرير» لذا كان عام ١٩٧٤ هو عام دعاية وليس عام تحريض. هو عام دعاية وليس عام تحريض من أجل انتفاضة. الجماهير الطلابية كانت معبأة ضد حالة اللا سلم واللا حرب في أعوام ٧٢، ٧٣. أما في عام ١٩٧٤ فهنا انقسام وليس إجماع بين الطلاب على تحليل طبيعة الحرب وطبيعة النظام.

لقد كان هذا هو الخطأ الأساسي لأعضاء حزب العمال الشيوعي في الجامعة عام ١٩٧٤. لم يحددوا الظروف الموضوعية والمتغيرات التي حدثت أعقاب حرب ١٩٧٣ داخل جماهير الطلاب.

أسقط التنظيم وعيه ورؤيته لحدود حرب أكتوبر على وعي الطلاب، وظن أن جماهير الطلاب تقف على أرضية تحليلاته، لذلك فإن أعضائه دخلوا الجامعة في عام ١٩٧٤ يحرضون على الإنتفاضة، لكن جماهير الطلاب كانت في وادي آخر. لذلك كتبنا فى «مجموعة ٨ يناير» ورقة معنونة بعنوان:

«حول شعار الانتفاضة». كتبها شاكر عرفة، شرحنا فيها إنعكاس ماجري في ٦ أكتوبر على جماهير الطلاب، وأوضحنا إننا لسنا بصدد انتفاضة طلابية في عام ١٩٧٤ بل بصدد دعاية وشرح وتحليل لوجهة نظرنا حول ما حدث وحول حدود حرب أكتوبر، ووجهنا سهام النقد لما يطرحه حزب العمال الشيوعي حول شعار الانتفاضة الطلابية. وبالطبع وصفناهم بالأطفال اليساريين ووصفونا بالإنتهازين. وهذه الورقة وزعنا نسخا كثيرة منها على عناصر قيادية داخل الحركة الطلابية واقتنعت بها. ولذا فقد كان عام ١٩٧٤ في الجامعة عام نمو لعضوية منظمة ٨ يناير.

أما الخطأ الثاني الذي وقع فيه أعضاء حزب العمال فهو خطأ نظري حاولوا ترجمته إلى موقف عملي.

كان لدى حزب العمال رؤية حول طبيعة الطلاب وتحليلات نظرية مطولة عن أن الطلبة ينتمون لطبقة البرجوازية الصغيرة، وأن هذه الطبقة الطلابية «وفقًا لتحليلاتهم» في حالة إنتفاضة دائمة منذ عام ١٩٧٢، ولذا فإنهم في عام ١٩٧٤ بدءوا يطرحون في أدبياتهم أهمية الإسراع بتشكيل وإعلان حزب الطلاب، وكانت مفارقة غريبة الشكل: حزب العمال الشيوعي يدعو لتشكيل حزب وطني من الطلبة!! كيف يتشكل ذلك الحزب؟!! هل هذا الحزب الطلابي بديل عن حركة الطلاب؟ لا توجد إجابة محددة.

كتبنا ورقة ثانية بعنوان «حول مقولة حزب الطلبة» كتبها شاكر عرفة أيضا. ايه الحلاوة دي يا عم شاكر. أوضحنا فيها أن الطلاب ليسوا طبقة اجتماعية، فهم لا يرتبطون بوسائل وأدوات الإنتاج. هم فئة إنتقالية يتحدد موقعها الطبقي بعد تخرجها. الخ

وطرحنا أن فكرة تكوين حزب للطلاب هي فكرة غريبة على الماركسية، ربما

تنسب هذه الأفكار لليسار الجديد الذى يطرح إنتهاء الدور التاريخي للطبقة العاملة ويستبدلها بالطلاب، وانتقدنا بشدة فكرة حزب الطلبة. لكن سرعان ما تراجع أعضاء حزب العمال عن فكرة حزب الطلبة، ويبدو أنها كانت فكرة لجناح منهم. أو أنها كانت فكرة تلقي معارضة داخل حزب العمال ذاته. لكن هذه الفكرة ظلت فكرة أصيلة بداخلهم على الأقل طوال عام ١٩٧٤. أما التطور الجديد والذي كان يحدث داخل الحركة الطلابية فهو:

بداية تبلور التيار الناصرى بالجامعة طوال أعوام ٧٣، ٧٤. صحيح أن هذا التيار لم يبرز على السطح فى أعوام ٧٢، ٧٣. إلا إنه بدأ في الظهور وتكوين قواعده في الجامعة بشكل أوضح في بدايات ١٩٧٤. الناصريون في السلطة ليسوا نفس الطبعة وهم خارج السلطة.أكيد هناك فرق. لكن في عام ١٩٧٤ لم يكن الناصريون قد فصلوا أنفسهم بشكل كامل عن السلطة. حيث أصدر السادات «ورقة تطوير الأتحادالإشتراكي العربي» وهم بالطبع وقتها كانوا يرون في الإتحاد الإشتراكي تنظيمًا لهم، لذا وافقوا على هذه الورقة. كان كثير منهم يعتقد أن السادات يسير على طريق جمال عبد الناصر، كان كثير منهم يتحدث عن إنفتاح إنتاجي لا إنفتاح إستهلاكي.

الناصريون المتقدمون فقط هم من كانوا يفكرون وقتها بفصل خطوطهم عن خطوط النظام الحاكم. الناصريون من أمثال كمال أبو عيطه وحمدين صباحي وعبد الله السناوي وزملائهم، كانوا وقتها يتبلورون في اتجاه خارج صفوف النظام. وكانت طلائعهم من أمثال فريد عبد الكريم وعادل آدم داخل معتقلات السادات. بالطبع سيختلف كمال أبو عيطة الناصري الثوري الآتي من أعماق بولاق الدكرور «وهو خارج السلطة والحكم» عن شعراوي جمعة وزير الداخلية القابع في قمة النظام الناصري.

الكثيرون من التيارات الماركسية نظروا بعداء إلى تبلور تيار ناصري داخل

الحركة الطلابية. وذلك بحكم العصبوية السياسية وإرادة أن تكون الحركة الطلابية حكرًا على التيار الماركسي. وبحكم ميراث القمع الناصري مع الشيوعيين «١٩٥٩ – ١٩٦٥» داخل السجون.

كان لا بد من الإقتراب من قيادات هذا التيار بالجامعة والتواصل والسعي للعمل المشترك معها، وهذا ما فعلته مجموعة «٨ يناير والمطرقة». أما حزب العمال فإنه لم يسلك هذا المنحى تحت إطار وحجج كثيرة لم تكن صحيحة، وقام بتوصيف الماركسيين الذين يقتربون من هذا التيار الصاعد بالجامعة بالإنتهازيين. وكان هذا هو جوهر الخطأ الثالث لحزب العمال وقتها.

كل المظاهرات التي نظمها أعضاء حزب العمال بالجامعة محاولة منهم لحث الطلاب على الانتفاضة باءت بالفشل. وكانت ذات أعداد محدودة وضيقة ولا ينضم إليها جماهير الطلاب كمظاهرات عام٧٢-٧٣. فأعوام ٧٢ -٧٣ كانت أعوام المد الطلابي وأعوام الانتفاضة. أما عام ١٩٧٤ فكان عام جذر في الحركة الطلابية. لكن رغم حالة الجذر فإن الحركة حا فظت على جميع الأدوات التي أنتزعتها من حرية إصدار مجلات الحائط وحرية تشكيل الأسر والجماعات الطلابية وحرية عقد الندوات والمؤتمرات وحرية عقد حلقات النقاش حول المعارض ومجلات الحائط. رغم حالة الجذر فإن الطلاب لم ينفضوا عن مجلات الحائط. كانوا بحاجة إلى تحليل ما حدث. فهم شاهدوا العبور وتحطيم خط بارليف، وهم يشاهدون أيضًا محادثات الكيلو ١٠١، وإتفاقية الفصل الأول بين القوات، وجلسات مفاوضات مباشرة مع العدو الصهيوني. هم يسمعون عن سياسة الانفتاح والرخاء القادم. لكنهم لم يروا الرخاء ذاته.

لم ينقطع الطلاب عن النقاش، بل كان بعضهم أو غالبيتهم يدافعون عن سياسة الانفتاح الاقتصادي. وكان بعضهم قد بدأ يتشكك فيما يسمع ويشاهد.

لذلك كانت حلقات النقاش حول المعارض ومجلات الحائط والندوات تدور دائمًا حول نتائج حرب أكتوبر. حول سياسة الانفتاح الاقتصادي. الإتحاد الاشتراكي وهل هو يحتاج لتطوير أم إلى حل؟!! الحريات الديمقراطية بشكل عام خارج الجماعة. إرتفاع الأسعار وحكاية الأسعار العالمية. قضايا غبّور ومليونيرات العهد الجديد من القطط السمان.

بدايات للنهوض من عام ١٩٧٥ وحتى انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧

إختلفت مقدمات عام ١٩٧٥ عن عام ١٩٧٤. فمع بداية العام شهدنا بدايات حالة من المد الجماهيري أخذت تتصاعد في المجتمع بشكل عام منذ نزول عمال المصانع الحربية بحلوان في ١ يناير ١٩٧٥ (لمدة يوم واحد) بمنطقة باب اللوق (نهاية خط حلوان) متظاهرين من أجل مطالب فئوية بميدان التحرير. إلى إضراب عمال المحلة وانتفاضة المدينة لمدة أربعة أيام متواصلة في مارس ١٩٧٥. إلى حركة عمال مصنع الكوك بحلوان وتشكيل لجان المندوبين النقابيين عام ١٩٧٥. إلى حركة عمال مصانع الغزل والنسيج بالإسكندرية طوال عام ١٩٧٦ والتي كانت من أقوى التحركات العمالية. إلى إضراب عمال الشركة الشرقية للدخان والسجاير (موتسيان) بميدان الجيزة والذي أستمر لمدة ٣ أيام والذي لم يفض إلا بإقتحام المصنع في فجر اليوم الثالث من قبل قوات الأمن المركزي واعتقال أكثر من ٣٠٠ عامل بالشركة. إلى إضراب عمال مصنع النصر للسيارات في وادي حوف بحلوان. إلى مقدمات الحرب الأهلية اللبنانية وحصار النظام السوري للمقاومة الفلسطينية في مخيم تل الزعتر، وحركة التضامن بجامعة القاهرة وخارجها مع المقاومة في صيف ١٩٧٦. إلى الإنتخابات البرلمانية في صيف عام ١٩٧٦. إلى مسيرة ٢٥

نوفمبر ١٩٧٦ الطلابية لمجلس الشعب. إلى الإنتفاضة الشعبية في ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧.

نستطيع أن نقول أنه في الفترة (يناير ١٩٧٥ وحتى انتفاضة يناير ١٩٧٧). كان الصوت الأعلى للعمال في إضراباتهم وحركاتهم المتتالية. وكانت الطبقة العاملة المصرية تحتل مشهد الصدارة في هذه الفترة. وتأتي حركة الطلاب صوتًا تضامنيًا مع حركة العمال. على عكس سنوات ١٩٧٢، ١٩٧٣ كان الصوت الأعلى هو صوت الطلاب وكان صوت العمال شبه غائب أو خافت. وهذا خلاف ما جرى من قبل في عام ١٩٦٨. كان عمال حلوان (عمال مصانع الطائرات بالمصانع الحربية) هم المفجر للأحداث في حلوان في شهر فبراير. ثم انسحبوا من الساحة وتصدر المشهد في أعوام ١٩٦٨، ١٩٦٩ طلاب الجامعات في القاهرة والإسكندرية والمنصورة.

في صباح ١ ينايرعام ١٩٧٥ تجمعنا في كلية الهندسة جامعة القاهرة (العاشرة صباحًا) على أنباء نزول عمال أحد المصانع الحربية بحلوان إلى ميدان التحرير، للتظاهر من أجل مطالب عمالية خالصة بالمصنع. قمنا بتقسيم أنفسنا إلى مجموعتين. مجموعة تذهب إلى ميدان التحرير للتظاهر ومتابعة تحركات العمال. ومجموعة أخرى تعمل بالكلية لتجميع الطلاب للتضامن مع العمال ومطالبهم في زيادة الحوافز وبدل طبيعة العمل. إستطعنا في الساعة الواحدة بعد حلقات نقاش مع طلاب الكلية حول مجلات الحائط (التي تشرح مطالب العمال) تنظيم مسيرة داخل الكلية للتضامن مع العمال، والدعوة لعقد مؤتمر طلابي تضامنى في اليوم التالي بمدرج الساوي، وطافت المسيرة بفناء الكلية وكانت تضم حوالي ألف طالب حاملة لافتة من القماش حمراء. كتب عليها بالخط الأبيض: «عاش كفاح الطلبة مع العمال».خرجت المسيرة نحو النصب التذكاري لجامعة القاهرة ثم طافت بالحرم الجامعي وكانت

تردد شعارات: إحنا الطلبة مع العمال. ضد حكومة رأس المال. ضد سلطة الاستغلال. يا عمال أنا وانتم واحد. اللي سارقني وسارقك واحد. واللي ناهبني وناهبك واحد.وغيرها من تراث الحركة الطلابية الذي ذكر كثير منه من قبل حتي إصحى إصحى يا جماهير. عمال مصر في التحرير.

وكان حجم المسيرة بالحرم الجامعي لا يتعدى أكثر من ١٢٠٠ طالب (زادت المسيرة بمقدار ٢٠٠ طالب). وفي نهاية المسيرة تجمع العديد من العناصر الفاعلة بالكليات المختلفة بجامعة القاهرة. توقع جزء منا قيام النظام بضربة في المساء (حملة اعتقالات). أيضًا سخر جزء من هذا التوقع. عقدنا إتفاقات مضمونها أنه بغض النظر عن وجود حملة إعتقالات من عدمه، على كل مجموعة لا تطولها حملة الإعتقالات أن تعمل داخل كليتها للتضامن مع مظاهرات العمال (التي لم تكن نعلم إن كانت ستستمر في اليوم التالي أم لا؟).

من حجم المظاهرة التي طافت الحرم الجامعي كان تقديري أن الحركة الطلابية على درجة ما من القوة بكلية الهندسة، وعلى درجة عالية من الضعف بالحرم الجامعي (حيث أن المظاهرة ضمت حوالي ألف طالب من كلية الهندسة ولم تضم سوى ٢٠٠ طالب من الحرم الجامعي).

كان تقدير الزملاء المنتمين لحزب العمال الشيوعي أن الحركة قوية بشكل عام وإنه يمكن غدًا اقتحام قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة وتشكيل اعتصام مثل إعتصامات ١٩٧٢، ١٩٧٣ وكان هذا التقدير مبالغًا فيه للغاية، (فهم منذ عام ١٩٧٤ وهم يطرحون شعار الإنتفاضة الطلابية دون مراعاة لموازيين القوى في الجامعة ودرجة الالتفاف الطلابي حول الحركة. وبعد أن نزل عمال حلوان لميدان التحرير أزادهم ذلك من الإصرار على شعار الانتفاضة الطلابية».

حرصًا على وحدتنا اتفقنا على ألا يطرح موضوع اقتحام قاعة الإحتفالات

إلا إذا كانت هناك جماهير طلابية حاشدة وراء الحدث وتستطيع فرض الإعتصام، ولا يمكن إقامة الإعتصام وإقتحام القاعة بالعناصر القيادية من الطلاب ومعهم قلة من الجمهور.

كان أصحاب شعار «عام الانتفاضة» و«حزب الطلاب» يعتبرون كل من يخالف ويعارض وجهة نظرهم يمينيًا وانتهازيًا وضيق الأفق، وكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الخط الثوري الصحيح وكنا نحن «اليمينيين» من وجهة نظرهم نعتبرهم «أطفال يساريون» وطبعًا كان كل منا يعتبر نفسه الخط الثوري الصحيح.

في الفجر قام النظام بحملة اعتقالات ضمت أكثر من مائة معتقل وكان أغلبهم من خارج الجامعة وقلة من العناصر الطلابية. وبالمصادفة تم اعتقال الطلاب الذين قابلوا رأي «أحتمال توجيه ضربة بوليسية» بالسخرية وباتوا في منازلهم. ولم تطل الضربة الطلاب الذين أخذوا حذرهم ولم يمكثوا بمنازلهم. وهذه الاعتقالات لم تدم أكثر من ثلاثة شهور. وكان تركيز أمن الدولة فيها على العناصر اليسارية خارج الجامعة. فلقد تم تقسيم المتهمين إلى ثلاث فرق:

١- فريق تنظيم اليسار الجديد ذو الخلايا العنقودية والبؤر الثورية (كما أدعت مباحث أمن الدولة).

٢- فريق الحزب الشيوعي المصري.

٣- فريق تنظيم التيار الثوري.

وتم إيداع جميع المعتقلين بسجن أبي زعبل وأفرج عنهم جميعًا في أوائل أبريل ١٩٧٥. وكانت الضربة لا تستند لأية معلومات تنظيمية حقيقية. كانت بمثابة ضربة وقائية خوفًا من تطور الأحداث في اتجاه تصعيدي.

في اليوم التالي (٢ يناير ١٩٧٥) عقدنا مؤتمرًا حاشدًا في كلية الهندسة

للتضامن مع عمال حلوان بمدرج الساوي ضم أكثر من ثلاثة آلاف طالب. وحضر بعض هيئات التدريس للمؤتمر ليحذروا الطلاب من العناصر المندسة والشيوعيين. لكنهم انصرفوا منسحبين من المؤتمر عندما أمسكت بالميكرفون وأخذت أشرح مظاهرات ومطالب العمال الذين نزلوا إلى ميدان التحرير وبلد المليونيرات التي تقمع مظاهرات العمال.

(حيث جرى الحديث في هذه الفترة وخاصة في مجلة روز اليوسف عن أن هناك أكثر من ٥٠٠ مليونير بمصر وكان ذلك وقتها قمة الثراء والتمايز الطبقي)!!!! كما تطرقت إلى التساؤل عن ماذا أفرزت سياسة الإنفتاح الإقتصادى: الثراء في جانب المليونيرات. والفقر في جانب العمال والريف المصري.

لقد تعاطف نسبة غير قليلة من الطلاب مع ما طرحته أنا وزملائي (لذا انسحب المندسون في المؤتمر من أعضاء هيئات التدريس الذين بعث بهم عميد الكلية لتفتيت المؤتمر). وأثناء المؤتمر جاءنا خبر كاذب من أحد القيادات الطلابية من أصحاب «شعار الانتفاضة» كان مضمونه:

«تجمع الآلاف من الطلاب بالحرم الجامعي واقتحموا قاعة الاحتفالات، وأن هناك اعتصامًا للطلاب المحتشدين بالقاعة، وعلى كلية الهندسة التوجه لدعم الإعتصام الطلابي».

لقد كان الخبر مفبركًا. وحقيقة ما حدث أن طلاب حزب العمال الشيوعي لم يقم أي منهم بالعمل القاعدي داخل كليته، وإنما تجمعوا أمام مبنى إدارة الجامعة ووقفوا على السلالم أمام قاعة الاحتفالات ومعهم عدد قليل من جمهور الطلاب، وقرروا إقتحام قاعة الاحتفالات بعدد لا يزيد عن ٢٠٠ طالب. وطبعًا الموضوع كان في المهزلة.

بناء على الخبر الكاذب والذي أعتقدنا صدقه، (لأن مثل هذه الأمور لا

ينبغي أن يكذب فيها). توجهنا نحو ألفين طالب من كلية الهندسة بمسيرة طافت كلية الهندسة حاملة لافتة الأمس الحمراء «عاش كفاح الطلبة مع العمال»، مرددة نفس شعارات الأمس، توجهت المسيرة خارج كلية الهندسة أمام النصب التذكاري ثم توجهت بعد ذلك للحرم الجامعي، وتوجهنا نحو ألفين طالب من هندسة القاهرة كي نلتقي مع «آلاف الطلاب» من جامعة القاهرة بقاعة الاحتفالات الكبرى، وعندما دخلنا القاعة لم نجد سوى ٢٠٠ طالب بالقاعة، وعددا من القيادات الطلابية (من أسرة مصر وعبد الحكم الجراجي وغيرهم) يتزعمون قيادة الاعتصام!!!. أحبط مشهد الاعتصام الهزيل جميع الطلاب القادمين من كلية الهندسة وأحسوا بالخديعة. وفي لحظات سريعة قررت المجموعة المنظمة للمسيرة عدم الاستمرار في هذه المهزلة وخرج طلاب كلية الهندسة من هذا الإعتصام الكاذب، وطافت مسيرتهم بالحرم الجامعي ثم توجهوا بالمسيرة ناحية حي بين السرايات.

تعاطف الأهالي بالحي مع شعارات المسيرة خفف كثيراً من صدمة الإعتصام الفاشل. جاءتنا الأخبار بأنه لا يوجد شيء في ميدان التحرير أو في حلوان، وأن مظاهرات العمال بالأمس قد أنقطعت اليوم.

عادت المسيرة ثانية عند النصب التذكاري. قررت مجموعة هندسة القاهرة مواصلة العمل داخل الكلية وعدم الاعتماد على الحركة بالحرم الجامعي لضعف الحركة بالحرم، وعدم الثقة بتيار أصحاب شعار «الإنتفاضة». فالإنتفاضة لا تأتي بقرارات علوية ولا تأتي وفقًا لتصورات ذهنية للبعض بعيدًا عن واقع الحال وظروفه الموضوعية.

تم مواصلة العمل داخل الكلية (في اليوم التالي) من خلال مجلات الحائط وحلقات النقاش الواسعة بالكلية. الطلاب يتحدون حينما تكون القضية المطروحة قضية وطنية أو قضية حريات ديمقراطية. في هذه اللحظات

يصبح شعار «حركة طلابية واحدة» شعارًا صحيحًا. أما حينما يكون المطروح هو قضية طبقية. تضامن طلابي مع قضايا عمالية فإن الطلاب ينقسمون وينحاز كل منهم إلى منبعه الطبقي أو ميله الفكري. وكلية الهندسة (في ذلك الوقت) هي خليط من أبناء الأثرياء والذين نرى سياراتهم الخاصة تملأ الموقف الفسيح أمام الكلية (ساحة انتظار السيارات) وأبناء الفقراء من الأحياء الشعبية والأرياف (أبناء العمال وصغار الموظفين والفلاحين). وبالطبع يقف بين هؤلاء وهؤلاء قطاع عريض من أبناء المهنيين والطبقة الوسطى. كل طالب ينحاز إلى وضعه وإنتمائه الاجتماعي. البعض سيرفع بإعتزاز لافتة «عاش كفاح الطلبة مع العمال». والبعض سيكون معاديًا وينظر باشمئزاز لمن يرفعون راية حمراء داخل كليتهم، والبعض سيقف موقفًا وسطيًا (يتضامن من أرضية ديمقراطية ولا ينحاز لمصالح طبقة العمال).

الإنقسام حول الموقف من العمال كان سيد الموقف داخل حلقات النقاش الطلابية التي دارت طوال الأيام التالية لمظاهرات عمال حلوان في ١ يناير ١٩٧٥.

كنت مطلوبًا في حملة الإعتقالات التي شنت، ولظروف تفجر الوضع بالكلية كنت أحضر يوميًا للكلية وفي فترة العصر بعد انتهاء حلقات النقاش والمسيرات كنت أهرب من الأبواب الخلفية للجامعة أو سور حديقة الحيوان الذي يفصل بين الكلية والحديقة من الخلف. «أحلى أيام العمر ضاعت في مطاردات مع أجهزة قمعية عفنة».

كانت بعض النقود والأطعمة تصلني من الأسرة ومن الأصدقاء بالحي من خلال إبنة أخي عبد المنعم خليل (سناء) وصديقتها (فاطمة ابنة حينا) وكانتا طالبتان بالشهادة الإعدادية وقتها.

في أحد الأيام التي احتدمت فيها حلقات النقاش بالكلية. وفي تمام الساعة

الحادية عشرة صباحًا (أثناء المحاضرة الثانية بالكلية). وفي وقت جاءت سناء وفاطمة من الحي ومعهما بعض الأطعمة والنقود، وجلسنا على كافيتريا الكلية. فجأة وجدت نفسي محاصرًا أنا والفتاتين من أبناء الحي بكتلة من الطلاب المباحث بالكلية لا تقل عن عشرين شخصًا يتزعمهم أحد الطلاب المعروفين بعلاقتهم بأجهزة أمن الدولة، وتمت محاصرتي في وقت خلت فيه ساحة الكلية من الطلاب. أحاطني هؤلاء المخبرون وأخذوا يصرخون في وجهي:

- هذا هو العميل. عميل روسيًا. عميل الاتحاد السوفيتي. الشيوعي. هاتان الفتاتان عشاق له. وهما من كلية الآداب بجامعة القاهرة.

ومن شدة الحصار وقلة أدب المخبرين. اندلعت فاطمة وسناء في البكاء وزاد بكائهما ارتباكي، وأخذت أصرخ في هؤلاء المخبرين:

- لست عميلاً لأحد. أنتم عملاء مباحث أمن الدولة. هذه بنت أخي (أنا عمها). وهذه جارتي بالحي. هما طالبتان بالأعدادية، ليسوا طلابًا بكلية الآداب.

وكنت لا أجد منهم سوى صراخًا مماثلاً:

- يا عميل يا شيوعي يا كافر.

كانوا يهدفون بذلك أن أترك الكلية وأخرج من بابها حتى يتم القبض عليّ من قبل أمن الدولة خارج الكلية. لأنهم تابعوني طوال الأيام الماضية، ولغباءهم كانوا لا يستطيعون القبض عليّ. فكلما دخلت دورة مياه كانوا ينتظروني على أبوابها بينما أنا كنت أهرب من شباكها ويظلوا هم كالثيران منتظرين خروجي.

أخذت فاطمة وسناء بعيدًا عنهم. تظاهرت بالخروج من الكلية، لكن من الطرق الخلفية. تركت الفتاتان تخرجان من باب الكلية أما أنا فقد تسللت

لأحد المباني بالكلية ودخلت أحد المدرجات. فشلت خطتهم، لكن كنت أغلي. أحسست بالإهانة الشديدة. ترقرقت عنياي بالدموع. حزنًا على الموقف الذي وضعت فيه الفتاتان من أبناء حينا. عند المغرب قفزت إلى حديقة الحيوان ومنها إلى شارع كورنيش النيل وسرت باكيًا باكيًا. كان الظلام يستر دموعي. ولاد الكلب عملاء مباحث أمن الدولة. أنا عميل!!!. لقد انفردوا بي في لحظة خلت الكلية من الطلاب. الحزن والدموع دفعاني إلى السير الدائم على الكورنيش ثم الجلوس على السور الحجري.

«وعشان عيونك يا بلدنا غربوني. لما لقوا أسمك في قلبي. حلفوا عنك يبعدوني. لكن أقسى من فراقك. أني أما ابقى فيكي يكتفوني. آه يا مصر. لو كانوا يسيبوني. كان مناه يلمح علامة خوف بسيطة. طب هييجي الخوف منين ابن العبيطة؟. هوه مين فينا الجبان؟. وألا مين فينا اللي خان؟».

سرت. سرت ومشيت حتى وصلت إلى شارع علوبة بالهرم ومنه عبرت شارع فيصل. ومنه إلى الحجرة الصغيرة بالمزارع (والتي أصبحت اليوم عمارات شاهقة وأبراج). كانت حجرة صغيرة رطبة أخذتها أنا وصديقين من رفاقي الطلاب (شاكر عرفة وأحمد بهاء شعبان). كنا نهرب فيها من الأمن، وكنا نسطر بداخلها مجلات الحائط والمعارض. كان حجرة لا تحتوي إلا على سرير صغير للنوم وحصيرة على الأرض ومكتب خشبي صغير أثري وباجور من الغاز وآخر من الكبروسين وبعض أطباق وملاعق، ومجموعة من القلل وصينية. وكان لا يوجد صنبور مياه. بل يوجد أمام المنزل في الزراعات طلمبة مياه جوفيه. كان صاحب المنزل يدعي «فرج» وكان يجاور الغرفة غرفتين صغيرتين، وكان إيجار الغرفة ثلاثة جنيهات في الشهر، وكنا نعرف لصاحب المنزل بأسماء وهمية مستعارة. كنت أنا «حسن». وشاكر أبن حينا يدعي «علي». وكان صاحب المنزل يسكن الدور العلوي.

« أوضة وديكور ع الحيطة. دم البق ولمبة جاز. لغز وأصل بلدنا يا افندي. مليانة حكاوي وألغاز».

أطفأت النور وجلست على السرير أتأمل ما حدث. غلبت الدموع عيني. إنتابتني موجة من البكاء. بعد قليل جاء شاكر من الخارج. وجدني حزينًا. حكيت له ما حدث. تأثر كثيرًا على ما حدث لفاطمة وسناء. وضع يده على كتفي قائلاً:

- معلش بكرة نرد على كل هذه الإتهامات الباطلة.

ساد الصمت بيننا. نمت ووضعت اللحاف على وجهي. لا أدري ماذا سأفعل في الغد؟. سيواجهني هؤلاء الكلاب ثانية. فكرت أن أذهب لمقر مباحث أمن الدولة وأسلم نفسي. لكن كيف أفعل ذلك؟! إذا فعلت ذلك سأحقق لهم غرضهم. غلبتني الأفكار والدموع. ورحت في نوم عميق. في الصباح أيقظني شاكر من النوم قائلاً:

- أنا ذاهب إلى الكلية. هيا نذهب سويًا.

قلت له:

- أنا متعب وخايف أنزل الكلية.

قالي لي:

- لا تدع ما حدث يسيطر عليك. انزل معي إلى الكلية. المواجهة هي الأفضل. لا تستسلم لمشاعرك وأحزانك.

قلت له:

- أتركني أنا متعب.

ووضعت اللحاف فوق رأسي. ذهب شاكر إلى الكلية وظللت بالغرفة مستسلمًا يائسًا. بعد نصف ساعة أدركت أن ما يقوله شاكر هو الأصح. المواجهة أفضل من الإستسلام. أرتديت ملابسي وتوجهت إلى الكلية على الفور.

لم أدخل الكلية من الأسوار الخلفية مثل كل يوم. دخلت من الباب الرئيسي. توجهت ناحية مجلات الحائط وكانت المنطقة مكتظة بالطلاب وحلقات النقاش دائرة وساخنة. وما أن دخلت وسط حلقات النقاش حتى وجدت نفسي محاصرًا بنفس المجموعة المباحثية مرة ثانية. وجاء زعيم المجموعة «حسن صالح» وأخذ يصرخ بنفس الاتهامات القذرة.

- لقد جاء الشيوعي عميل الإتحاد السوفيتي ثانية.

بدأت أستجمع قواي للرد. وقبل أن أرد وينطق لساني بحرف واحد، وجدت أحد الطلاب كان يدعي نجيب بقسم كيمياء يبادر (بالرد والضرب المبرح) لزعيم المجموعة المباحثية:

- أنت يا حيوان يا مباحث بتتهم أشرف الناس بالعمالة.

وطرحه أرضًا وضربه ضربًا مبرحًا هو ومجموعة من الطلاب. وهنا تجمع الطلاب ووجدتني مندفعًا نحو المجموع، وأمسكت بنجيب حتى لا تتحول المسألة إلى معركة بالأيادي بين الطلاب. ووقفت أشرح للطلاب ما حدث بالأمس، وأرد على الاتهامات الباطلة قائلاً:

- أنا فعلاً عميل. لكنى عميل لجماهير شعبي وفقراء بلادي. عميل للدفاع عن مطالب عمال حلوان. عميل من أجل الحرية. وعميل ضد الديكتاتورية. لست عميلاً للإتحاد السوفيتي. فأنا أول الطلاب الذين هاجموا (على صفحات مجلات الحائط) موافقة الاتحاد السوفيتي على قرار تقسيم فلسطين، وأول من عارض موقف الاتحاد السوفيتى من هجرة اليهود السوفيت لدولة الصهاينة. العمالة الحقيقية هي عمالة هذه المجموعة وزعيمها لمباحث أمن الدولة وجنرالاتها.

وانقلب الوضع داخل ساحة الكلية. إنسحبت المجموعة المباحثية أمام ضغط الطلاب وعادت الروح مرة ثانية. صدقت يا شاكر حينما قلت أن

المواجهة هي الأفضل. وفي خضم الأحداث والمناقشات تحولت الأحزان إلى شحنة تفاؤل بالمستقبل وبالناس.تهزمك وتكسرك أحزانك أحيانًا. لكن المواجهة تكسر الأحزان وتقتل الدموع.

عدت إلى الغرفة في المساء منتشيًا. ظللت أنظف محتوياتها و أكنسها. وجاء شاكر مبتسمًا. أخذنا نتناول الطعام. خرجت خارج المنزل لأملأ جردل المياه كي أصبه داخل القلل. كنت أغني:

«مليحة قوي. القلل القناوي. قرّب حدانا خد لك قلتين. الدنيا مالها يا زعبلاوي. شقلبوا حالها ومين يداوي»

الظلام دامس وأنا أملأ الجردل شاهدت كلبًا ضالاً أخذ يقترب مني وينبح. ملأني الخوف. أخذت الجردل مهرولاً للداخل. جريت والكلب يجري ورائي. فزعت وظللت أجري والكلب من خلفي. وجدتني أصرخ بصوت عال: «ألحقني يا شاكر. ألحقني يا شاكر.». وجدت شاكر يأتي من داخل الغرفة مسرعًا واضعًا يده على فمي قائلاً:

- علي. علي ياعم. صاحب البيت ما يعرفش أن اسمي شاكر. خش يا زفت يا حسن.

دخلنا إلى الغرفة. انتابتنا حالة من الضحك. رد شاكر قائلاً:

- حتة كلب يجري وراك، تقوم تنسي كل حاجة!!!

في الصباح ذهبنا إلى الكلية سويًا، أنا «حسن» وشاكر «علي» وماشي يا زمن ماشي. صحبة وأخوات وأبناء حي واحد وكلية واحدة وتنظيم واحد وهيه دي الدنيا.

طوال عام ١٩٧٥ استمر عملنا في عقد الندوات بالكلية وعمل مجلات الحائط والمعارض وإدارة حلقات النقاش، وتكوين جيل جديد من القيادات الطلابية وصف ثاني والأمور تتقدم. وتمكنا من توسيع صفوف منظمة ٨

يناير داخل كلية الهندسة وداخل الحرم الجامعي. وفي هذا العام بدأ يتبلور الناصريون في جامعة القاهرة وشكلوا ما عرف باسم «نادي الفكر الناصري». وتشكل أيضًا بالجامعة «نادي الفكر الإسلامي». واحتل الناصريون موقع رئيس اتحاد الطلاب لجامعة القاهرة، ومع اتساع صفوفنا بالكلية وداخل الحرم الجامعي برزت فكرة هامة: لماذا لا يشكل الطلاب الإشتراكيون ناديًا باسم «نادي الفكر الاشتراكي التقدمي».

كان التيار الماركسي يعمل بالجامعة تحت مسميات أسر وجماعات وطنية مثل «جماعة جواد حسني» و«جماعة أنصار الثورة الفلسطينية» بهندسة القاهرة، «أسرة مصر» بكلية الآداب، «جماعة عبد المجيد مرسي» بكلية إقتصاد. الخ.

لماذا لا يبرز التيار الماركسي بهوية إشتراكية؟ وإلى متى سنظل نعمل تحت مسميات وطنية ديمقراطية؟

التيار الماركسي بالجامعة كانت له القيادة في اعتصامات الجامعة أعوام ١٩٧٢، ١٩٧٣؟ لماذا لا يتحد جميع الماركسيين بالجامعة في منظمة جماهيرية واحدة تسمى نادي الفكر الاشتراكي التقدمي؟ أجاب تيار حزب العمال الشيوعي على هذا السؤال بالرفض تحت دعاوي قاصرة وغير ناضجة. كيف نشكل ناديًا للإشتراكيين من خلال إتحاد الطلاب العميل للسلطة؟!!

(رغم أن جميع الأسر والجماعات بالجامعة مسجلة شكلاً ومنبثقة من اتحاد طلاب كل كلية!!! وحركتها على الأرض تنبع من مؤسسيها لا من اتحاد الطلاب!!!).

لم يفهموا أهمية وضرورة استغلال الفرصة بوجود قيادات ديمقراطية ناصرية نفذت إلى مواقع هامة باتحاد طلاب الجامعة.

تشكل نادي الفكر الإشتراكي التقدمي بجامعة القاهرة في أواخر العام

الدراسي (٧٤ – ١٩٧٥) وكان يضم طلاب منظمتين أساسيتين بالجامعة هما «حزب ٨ يناير» و«المطرقة» والعديد من الطلاب اليساريين المستقلين بعد صراع طويل مع تيار حزب العمال الشيوعي ورفض طلابه للانضمام للنادي. وبمناقشات طويلة وموسعة تجمع أكثر من ٢٠٠ طالب بجامعة القاهرة وصاغوا برنامج نادي الفكر الإشتراكي التقدمي، وتم طباعته بأعداد كبيرة في مطبعة خارج الجامعة وبتصريح من رئيس إتحاد الطلاب وقتها «حمدبن صباحي». وتم توزيع البرنامج على أعداد واسعة من الطلاب وكانت أهم المواقف السياسية بذلك البرنامج:

- رفض الإعتراف والصلح مع العدد الصهيوني والتشهير بمحادثات الكيلو ١٠١ وإتفاقيات فصل القوات الأولى والثانية التي نتجت عن تلك المحادثات والدعوى لسياسة إقتصاد الحرب وحرب التحرير الشعبية.
- رفض سياسات الإنفتاح الاقتصادي والسماح لرأس المال الأجنبي بالتغلغل داخل السوق المصري.
- إسقاط الاتحاد الاشتراكي وحق الطبقات الشعبية والوطنية في تشكيل أحزابها وعلى رأسها حزب الطبقة العاملة المصرية.
- إطلاق حرية تشكيل الصحف وحرية النشر والتعبير.
- حق الإضراب للعمال والموظفين.
- إعادة توزيع الدخل القومي ووضع نسبة بين الحد الأدنى للأجور والحد الأقصى كنسبة ١:١٠.
- تحسين الأحوال المعيشية للشعب المصري وخاصة أوضاع الفلاحين الفقراء والعمال الزراعيين.

وتشكل النادي بانتخاب أمين وأمين مساعد للنادي (أحمد بهاء الدين شعبان – وحيد عبد المجيد) وشكل النادي أربع لجان للعمل.

لجنة العمل الدعائي – لجنة العمل الجماهيري – لجنة العمل النقابي الطلابي – لجنة النشاط الثقافي والفني.

واتخذ النادي اتجاهًا سياسيًا بأهمية وضرورة التنسيق مع الطلاب الناصريين ونادي الفكر الناصري والإعلاء من سياسة العمل المشترك معهم مع عدم طمس المواقف الخلافية الفكرية والسياسية معهم. وأصدر النادي نشرة جماهيرية صدر منها خمسة أو ستة أعداد متتالية. وأصدر النادي عددًا من الدراسات الهامة كان أبرزها:

- دراسة عن القوانين المقيدة للحريات.
- دراسة عن الحرب الأهلية اللبنانية.
- دراسة عن الدولة الفلسطينية.
- دراسة عن القضية الوطنية وحرب التحرير الشعبية.

واهتم النادي بعقد العديد من الندوات الفكرية والسياسية، وإقامة المعارض بالحرم الجامعي، وكان أبرز عمل للنادي:

- مؤتمر عام لأعضاء النادي ولكافة القوى السياسية خارج الجامعة في صيف عام ١٩٧٦ أثناء محاصرة النظام السوري لمخيم تل الزعتر، وعقد المؤتمر بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة واستمر لمدة ثلاثة أيام، وتمخض عنه تشكيل لجنة عامة لمناصرة الثورة الفلسطينية تمكنت من إصدار بيان مشترك للقوى السياسية المصرية وعمل ملصق لدعم المقاومة جرى لصقه في الشوارع والميادين الرئيسة بالعاصمة.

- عمل أسبوع طلابي تحت عنوان «الجامعة والمجتمع» بالاشتراك مع نادي الفكر الناصري أستمر من يوم السبت حتى يوم الخميس وتمخض عن مسيرة ٢٥ نوفمبر ١٩٧٦ التي خرجت من الجامعة يوم الخميس بعدد يقدر بـ ٣٠٠ طالب ووصلت إلى مجلس الشعب بقوام يزيد عن ثلاثة آلاف طالب والتي

أطلق عليها السادات بأنها كانت البروفة لأحداث ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧!!

هذا وقد شارك أعضاء النادي بشكل قوي في التضامن مع كافة الإضرابات العمالية الساخنة التي قامت في صيف عام ١٩٧٦، وكان أبرزها ثلاثة إضرابات:

- إضراب عمال النقل العام في يوليو ١٩٧٦ والذي أعقب نتيجة استفتاء مزور على تمديد الرئاسة لأنور السادات لفترة رئاسية جديدة (من نوعية إستفتاءات الـ ٩٩,٩٪). هذا الإضراب الذي شل مدينة القاهرة لمدة يومين متتالين واعتقد أنه كان البروفة الحقيقية لانتفاضة ١٨، ١٩ يناير.

- إضراب عمال شركة ماتوسيان بميدان الجيزة والذي تم فضه وإعتقال المئات من العمال ليلاً من داخل المصنع.

_ إضراب عمال شركة النصر لصناعة السيارات بوادي حوف بحلوان والذي قام فيه عملاء الأمن داخل الشركة بحرق بعض الماكينات لتخريب الإضراب وإلصاق التهمة بالعمال.

لقد كان صيف عام ١٩٦٧ صيفًا ساخنًا تفاعل فيه طلاب نادي الفكر الاشتراكي بشكل إيجابي مع الأحداث سواء كانت إضرابات عمالية أم حصارًا لمخيم تل الزعتر.

وزاد هذا الصيف سخونة إشتراك جميع الطلاب وكوادر الجامعة في الانتخابات البرلمانية التي جرت في هذا الوقت، فقد نزلت جميع الكوادر الطلابية إلى الدوائر الانتخابية المختلفة، وطرحت شعارات الحركة الطلابية في أغلب الدوائر الانتخابية مما كان له أثر إيجابي في توحيد شعارات انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧.

دروس مستفادة فى خضم الأحداث

١- مناصرة الثورة الفلسطينية وإنقسام الفصائل الماركسية:

الإنقسام والتناحر وتعصب كل فريق لذاته هو السمة الغالبة بين الفصائل الماركسية. على مدار فترات تاريخية طويلة، وفي أي قضية ما (حينما تتوحد وجهات النظر حولها وتختفي أي معالم للخلاف) لا بد من اختراع إختلاف ما. وطالما هناك حاجة لاختراع خلاف فستظل ماكينة العصبوية والحلقية دائرة.

وكما يقال «الحب في الأرض بعض من تخيلنا لو لم نجده عليها لاخترعناه». فأيضًا يصدق القول «الإنقسام داخل الحركة الشيوعية لو لم نجده عليها لاخترعناه».

صحيح أننا لسنا ضد كل أنقسام. وأيضًا لسنا مع كل وحدة. لكننا بالتأكيد ضد حالة هستريا الإنقسام الأميبي التي تميزت بها الحركة الشيوعية المصرية. الإنقسام والعصبوية والحلقية هي أشياء مقدسة بين الفصائل الماركسية وهي نقاط الإتفاق الوحيدة بين مكوناتها. ينبغي أن يقف كل شيوعي ثوري عند سؤال:

لماذا لم يدار صراع فكرى جاد ولو لمرة واحدة في تاريخ الحركة؟!!. لماذا لم تستطيع التنظيمات الماركسية منذ العشرينات حتى الآن (ولو لفترة قصيرة) إصدار مجلة نظرية تدير الحوار حول القضايا الخلافية؟

هل كان الإنقسام وراثـة، ورثته الحركة الشيوعية الثالثة من الحركة

الثانية؟ هل هو طبيعة ناتجة عن غلبة عناصر المثقفين والبرجوازية الصغيرة في التركيبة التنظيمية للحركة الشيوعية؟هل هذا الإنقسام سمة محلية أم سمة عالمية؟. (زيه زي الأسعار والفساد) ما دور التبعية الشخصية و الطاعة المستلبة لبعض الزعامات وراء هذه الإنقسامات؟ هل الإنقسام هو طبيعة خاصة للتنظيمات الستالينية التي تنعدم الحياة الديمقراطية بداخلها؟!! هل الستالينية في السلطة تقمع أي رأي خارجها، والستالينية خارج السلطة لابد أن يتمركز ستالين على رأس كل منظمة فيها؟!!

في مؤتمر المناصرة للثورة الفلسطينية والذي عقد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية عام ١٩٧٦، كان الجميع ضد مذبحة تل الزعتر التي يقوم بها النظام السوري ضد المقاومة الفلسطينية، كان الجميع ضد كافة الأنظمة العربية المشاركة بصمتها على جريمة تل الزعتر، كان الجميع مع المقاومة الفلسطينية المسلحة وتحالفها مع القوى الوطنية التقدمية اللبنانية. لم يكن هنا خلاف بين جميع الفصائل الماركسية المشاركة في المؤتمر. فلماذا كان الصراع (حامي الوطيس) بين الجميع طوال أيام المؤتمر؟!!

من نبع العصبوية نخترع الخلاف. ألم يكن من الأجدى تشكيل كتلة موحدة لتفعيل موقف فاعل بين صفوف الجماهير المصرية للتصدي للمذبحة ووقفها؟!!

ألم يكن من الأجدى تنظيم حملة قوية من البيانات والملصقات والمؤتمرات في الميادين والأحياء الشعبية في الموقف المشترك للجميع والذي لا خلاف عليه؟!!

ألم يكن الأجدى عدم تبديد الطاقة في مناقشات بيزنطية حول موضوعات لا صلة لها بالقضية المطروحة وإتهامات بالإنتهازية واليمينية والبرنشتانية، والحديث عن موضوعات نيسان والثورة البلشقية والتروتسكيين والثورة

المغدورة؟!!

أنا لا أحمل طرف دون الآخر المسئولية. فالمسئولية يتحملها الجميع. الخلافات النظرية الحقيقية لا يمكن أن تلغي العمل المشترك بين الفصائل الماركسية فيما هو متفق عليه.

كانت محصلة المؤتمر بيان ختامي أتفق عليه الجميع (بطلوع الروح). ومزيد من العصبوية والإنقسام بعد المؤتمر. وماذا عن الفعل بين صفوف الجماهير والعمل المشترك؟ الإجابة لا شيء.

طرح أعضاء حزب العمال الشيوعي عقب قراءة البيان الختامي في تمام التاسعة أو العاشرة مساءًا الخروج بمظاهرة إلى الشارع. وكان ذلك طرحًا فجًا في هذا التوقيت.

كانت مجموعة ٨ يناير والمطرقة ونادي الفكر الإشتراكي مقررة القيام بمظاهرة ظهرً اليوم التالي الذي ألقى فيه البيان الختامي. وكرد فعل منهم على مظاهرة العاشرة مساءًا قرروا إلغاء مظاهرتهم في اليوم التالي.

كلا الموقفين خاطئين سواء كان موقف المسيرة المسائية أو إلغاء المسيرة الصباحية كرد فعل.

المحصلة كانت لا مسيرة!!! رغم أنها كانت ضرورة ومهمة لحفز الحركة في الشارع.

كان هذا المؤتمر لو سار الإعداد والتحضير له بعيدًا عن العصبوية والحلقية، كان من الممكن أن يكون بوابة حقيقية للعمل المشترك بين الفصائل الماركسية في هذه القضية، يمكن البناء عليه في المستقبل في قضايا أخرى.

يهدر الماركسيون نقاط إتفاقهم ويضخمون من نقاط إختلافهم وكأن العمل المشترك بينهم هو رجس من عمل الشيطان. أيضًا كان المؤتمر فرصة سانحة لجهات أمنية عديدة (كانت تراقبه) لكني تصنف أعضاء كل فصيل بدقة

وترصد أيضًا خلافاتهم بدقة؟!!

٢- مسيرة ٢٥ نوفمبر ١٩٧٦

هذه المسيرة قالت عنها جرائد الحكومة «أنها ضمت ٣٠٠ طالب من العناصر المندسة»، وقالت عنها مجلة روز اليوسف (صحيفة اليسار الحكومي حينئذ) «أنها ضمت ٣٠٠ طالب من العناصر التابعة للمخابرات المركزية الأمريكية والتي تهاجم النظام الوطني بقيادة السادات» وقال عنها السادات: «إنها كانت البروفة لأحداث ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧ أو انتفاضة الحرامية كما أسماها».فهل كانت هذه المسيرة عسيرة إلى هذه الدرجة؟. الأمور كانت أبسط من ذلك بكثير.

ففي بداية العام الدراسي (١٩٧٥ - ١٩٧٦) تم تنظيم أسبوع طلابي تحت عنوان «الجامعة والمجتمع»، وكان هذا الأسبوع يقوم بتنظيمه أعضاء نادي الفكر الاشتراكي القومي بالاشتراك مع أعضاء نادي الفكر الناصري. كان يعقد يوميًا (بالمدرج الرئيسي بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة) مؤتمر سياسي يناقش أوضاع الجامعة والمجتمع من كافة الزوايا، ولكل لقاء قضية محددة مثل: الحريات الديمقراطية في الجامعة والمجتمع - أوضاع التعليم في مصر - ٣ سنوات على حرب أكتوبر - الانفتاح الاقتصادي وأثره على الفقراء في مصر -. الخ.

كان الإتفاق على أن يتبلور هذا النقاش وهذه اللقاءات في وثيقة ختامية تبلور وجهه نظر مشتركة للطلاب الذين أعدوا المؤتمر، وكان هناك إتفاق بأن يطلق على هذه الوثيقة «وثيقة ٢٥ نوفمبر» يوم إعلانها، وكان ضمن الإتفاق أيضًا ألا يقف الأمر عند حدود إعلان وثيقة فقط، بل القيام بمسيرة طلابية من جامعة القاهرة إلى مجلس الشعب لتسليم الوثيقة. الهدف لم يكن مجلس

الشعب ولا التوجه للسلطة ولا للنظام الحاكم. لأن مضمون الوثيقة كلها من أول سطر لآخر حرف فيها هو معاداة سياسات الحكم وطرح سياسات بديلة. كان مجلس الشعب مجرد حجة لتنظيم المسيرة والخروج لجماهير الشارع. الإتفاقات كانت واضحة بين الطرفين:

يبدأ المؤتمر السبت وينتهي الخميس بمسيرة طلابية لمجلس الشعب، وفي هذا الحدث كان هناك تنسيق جيد بين كل الفصائل الماركسية بجامعة القاهرة، سواء من كانوا أعضاء في نادي الفكر الإشتراكي أو من كانوا خارجه. فلقد برز داخل حزب العمال الشيوعي إتجاه إيجابي تزعمه الطلاب (سمير حسني، أمير سالم، رضوان الكاشف، مخرج أروع الأفلام السينمائية فيما بعد (ليه يا بنفسج، الساحر.). و تم وقف الهجوم على نادي الفكر الاشتراكي، وتم تشكيل لجنة تنسيق من كل الإتجاهات للإشتراك معًا (صفًا واحدًا) في تنظيم مسيرة ٢٥ نوفمبر، وكان ذلك موقفًا رائعًا وصحيحًا داخل حزب العمال الشيوعي.

خلال الأسبوع بدأ يظهر رأيان داخل الطلاب المنظمين للمؤتمر والجمهور المحيط بهم (وكان محيطًا متسعًا نسبيًا):

- رأي يرى ضرورة القيام بالمسيرة يوم الخميس.
- ورأي آخر يرى أن الإلتفاف الطلابي حول فكرة المسيرة مازال ضعيفًا، ويطلب تأجيل المسيرة (خوفًا على فشلها) لوقت آخر خاصة إننا مازلنا في بداية العام الدراسي.

تقريبًا كان الرأي الأول له الأغلبية داخل أعضاء نادي الفكرة الاشتراكي التقدمي. والرأي الثاني كانت له أغلبية داخل أعضاء نادي الفكر الناصري. وكان هناك إنقسام في الجمهور الملتف حو الناديين وأسبوع الجامعة والمجتمع، وكان ذلك منعكسًا في حلقات النقاش أمام المعرض العام الذي

أقامه الناديان بالحرم الجامعي.

وأيضًا كانت هناك أراء تعارض المسيرة داخل نادي الفكر الاشتراكي، وأراء تؤيد المسيرة داخل نادي الفكر الناصري.

قام نادي الفكر الاشتراكي بتوزيع ثلاثة آلاف نسخة من بيان بعنوان «لماذا نحن مع المسيرة؟» كان له أثر طيب في حشد جمهور أوسع حول فكرة المسيرة. ظل النقاش متأرجحًا في النصف الثاني من الأسبوع.. مسيرة يوم الخميس أم لا؟

إجتمعت اللجنة التي كانت تقود العمل الطلابي في منظمة ٨ يناير، وكانت تضم خمسة أعضاء ومسئول الهيئة. وطرح السؤال مسيرة أم لا مسيرة؟ وبعد نقاش طويل كانت محصلة القرار كالتالي:

١- سنظل ندافع طوال الأسبوع عن قيام المظاهرة يوم الخميس ٢٥ نوفمبر دون أي تراجع.

٢- يوم ٢٥ نوفمبر وفي ميعاد المسيرة يتم أخذ تصويت سريع بين الأعضاء الخمسة في المنظمة والمسئولين عن العمل الطلابي، وبناء على التصويت نلتزم بالأغلبية. فإذا كانت الأغلبية التصويتيه مع المسيرة سندفع في إتجاهها،وإذا كانت الاغلبية التصويتية ضد المسيرة سنعمل على عدم خروج المسيرة.

بالطبع كان القرار يتسم بالميوعة ويترك المسألة للتصويت!!! جاء يوم الخميس، وتجمع حوالي ٣٠٠٠ طالب أمام الحرم الجامعي لإتخاذ القرار. أعلن قادة نادي الفكر الناصري أنهم مع كافة المطالب بوثيقة ٢٥ نوفمبر، لكنهم يرون عدم القيام بالمسيرة اليوم حرصًا على نجاحها في المستقبل. أما نحن أعضاء منظمة ٨ يناير فكنا في إنتظار نتيجة التصويت الذي كلف أحد الزملاء بإجرائه بشكل سريع. وصلتني نتيجة التصويت:

٢ مع المسيرة (أنا والزميل الذي أجرى التصويت).

٣ ضد المسيرة.

كان ينبغي علىّ الإلتزام بقرار الأغلبية (ضد المسيرة). وجدتني بشكل تلقائي أدعو إلى المسيرة وأكسر قرار الأغلبية لأننى بالحس الجماهيري وبتقدير الموازين على الأرض كنت واثقا من نجاح المسيرة. وقفت أخطب في الطلاب وكان هدفي كسر قرار الأغلبية بطريقة ذكية قائلاً:

«ما أنا إلا خادم لجماهير الطلاب. فإذا كان أغلبية الطلاب مع المسيرة فأنا مع المسيرة وسأتقدم الصفوف لقيادتها فمن يوافق على المسيرة؟» ارتفعت مئات الأيادي بالموافقة. فبدأت التحرك نحو باب الجامعة إلى الشارع بشكل فوري وسريع دون إجراء تصويت ثاني على من يرفض المسيرة، لأن ذلك كان سيعقد الأمور ويزيد الارتباك. كان جمهور الطلاب في حاجة إلى الحسم لا إلى المزيد من التردد.

تحركت إلى الأمام ومعي المئات من الطلاب وكان الحال هكذا.

كتلة تحركت مع المظاهرة.

كتلة وقفت في مكانها ولم تسر مع المظاهرة.

كتلة ثالثة في حالة وسطية تسير مع المظاهرة لكن ببطء.

وظل هذا الحال ونحن نتقدم في المسافة بين النصب التذكاري أمام الجامعة وتمثال نهضة مصر أمام كوبري الجامعة، وأنا أهتف. خلعت البلوفر الذي كنت أرتديه ورحت أشاور به لجماهير الطلاب بالانضمام للمسيرة.

أصل ما عدش فيها رجوع

جه ميعادنا للطلوع

ما خلاص. ما خلاص

إحنا وهبنا الدم خلاص

وفتحنا صدورنا للرصاص

المسيرة طالعة طالعة

المسيرة طالعة طالعة

إهتف يا ابن الشعب وقول

سرقوا بلدنا عرض وطول

أصل ما عدش فيها رجوع

جه ميعادنا للطلوع

وفي الطريق من النصب إلى تمثال نهضة مصر لم يكن هناك سوى احتمالين:

- الإحتمال الأول هجوم الأمن المركزي (الذي يتمركز بشكل دائم بحديقة الأورمان) على المسيرة بالجنود والقنابل المسيلة للدموع. وساعتها سنرتد نحو الجامعة ونجعلها معركة بين الطلاب وقوات الأمن. وفي هذه الحالة ستنضم قطاعات واسعة من الطلاب إلى الحركة.

(توجد أعداد هائلة من الطلاب لا تشترك في مجلات الحائط والندوات والمؤتمرات وحلقات النقاش لكنها تشترك بفاعلية شديدة وجسارة متناهية حينما يأتي الأمن المركزي لفض المظاهرات وقمع الطلاب).

الإحتمال الثاني ألا يتصدى لنا الأمن ويتركنا نعبر كوبري الجامعة. وكان كل تفكيري أن هذا الاحتمال قائم لأن الانقسام كان واضحًا في صفوف الطلاب للجهات الأمنية حول المسيرة، وكانت توقعات أجهزة الأمن أن المسيرة ستكون ضعيفة وستفشل.

عند تمثال نهضة مصر لم يظهر جندي أمن مركزي واحد. لم تطلق أية قنبلة مسيلة للدموع. دخلت نحو كوبري الجامعة وبدأت أجري فوقه ويندفع المئات في المسيرة. يراهن الأمن على فشلها وسنراهن علي نجاحها.

وصلت بالمسيرة إلى منتصف كوبري الجامعة،وفي هذه النقطة توقفنا. كان لابد من ذلك لتجميع المئات معنا. وبالفعل انضمت الكتل الثلاث إلى

المظاهرة. زال أي تردد بين الطلاب. أنضم الجميع إلى المسيرة إشتراكيون وناصريون. أصبحنا في المسافة بين جامع صلاح الدين ومدخل شارع القصر العيني ما يقرب من ثلاثة آلاف طالب. تبعد المسيرة عشرات الأمتارعن شارع القصر العيني. كان المشهد رائعاً. الجماهير تصفق لشعارات المظاهرة على الأرصفة. وثيقة ٢٥ نوفمبر طبعت بالآلاف ويتم توزيعها على الجمهور. منشورات بالآلاف لنادي الفكر الإشتراكي ونادي الفكر الناصري وأسرة مصر توزع على الجماهير في خلفية المظاهرة. أتوبيس نقل عام قادم من التحرير في شارع القصر العيني (كان الشارع في ذلك الوقت إتجاهين) يقف أمام المتظاهرين. نحيط به من الجانبين مطلقين شعار:

التأييد التام التام

لعمال النقل العام

يا عمال النقل العام

إضرابكم خطوة لقدام

الإضراب مشروع مشروع

ضد الفقر وضد الجوع

وحينما جاء الهتاف «إحنا الطلبة في العمال. ضد سلطة الاستغلال» خرج سائق الأتوبيس بكل جسمه من فتحة الشباك المجاور له، وأحتضن قائد المسيرة وسط تصفيق جمهور الشارع وركاب الأتوبيس والمتفرجين على المظاهرة من البلكونات. والشبابيك كان مشهدًا رائعًا لا ينسى. وحينما مرت المسيرة أمام مبنى روز اليوسف، صفق عمال مطابع روزا اليوسف للمتظاهرين وهتفوا معهم، عايزين صحافة حرة.العيشة بقت مرة.

وسارت المسيرة متجهة نحو مجلس الشعب، وتجمهر أكثر من ثلاثة آلاف طالب أمامه، وتم تشكيل وفد طلابي من: «أحمد بهاء شعبان (أمين نادي

الفكر الاشتراكي) – حمدين صباحي (أمين نادي الفكر الناصري) – أبن الشهيد عبد القادر عودة (من الأخوان المسلمين) ولا أذكر أسمه حاليًا – جمال فهمي – أحمد سيف الاسلام حمد. وآخرين»

أفترش الطلاب الأرض أمام مجلس الشعب، وجاء أحد ضباط أمن الدولة ووقف مخاطبًا الطلاب قائلاً: أنتم تسيرون وراء الشيوعيين فقوبل بالتأفف والضجيج من الطلاب وهنا خرج الهتاف:

مصر يقول كل شبابها

أدي السلطة وأدي كلابها

وظل الطلاب يرددون في وجه الضابط ويشيرون عليه وعلى مبنى مجلس الشعب،أدي السلطة. وأدي كلابها. أدي السلطة. وأدي كلابها. وظل الطلاب يفترشون الأرض بالشوارع المحيطة بالمجلس حتى المغرب. (وكانت كاميرات أمن الدولة فوق سطح مبنى مجلس الشعب ومبنى مجلس الوزراء تصور جميع المتظاهرين ولم نعرف ذلك إلا أثناء التحقيقات في مظاهرات ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧) ثم انصرفوا إلى بيوتهم.

في صباح يوم السبت تم عقد اجتماع مشترك بين الناديين (نادي الفكر الاشتراكي ونادي الفكر الناصري)، وأصدرا بيانًا مشتركًا للرد على كل الأكاذيب التي ظهرت في جرائد يوم الجمعة. بدأنا في نادي الفكر الإشتراكي نجمع التبرعات من أجل إصدار جريدة طلابية حيث أن اتحاد الطلاب وقتها كان يصدر جريدتين باسم صوت الطلاب، وكفاح الطلاب.

إتفقنا مع رئيس اتحاد طلاب جامعة القاهرة بأن يصرح للأندية المختلفة بإصدار جرائد لها. هاجمتنا روزا اليوسف على صفحاتها في يوم الإثنين واصفة كل من اشتركوا في مظاهرة ٢٥ نوفمبر بأنهم عملاء للمخابرات المركزية الأمريكية لأنهم يعارضون نظام السادات الوطني. كتبنا مقالات عديدة للرد

على هذه الإتهامات وأرسلناها لرئيس التحرير لكنه لم ينشرها. لم يدرك قادة روز اليوسف أن نظام السادات الوطني هذا سيضم بعض أعضاء مجلس الجريدة أو رئيس تحريرها «الأستاذ/ فيليب جلاب» إلى صفوف المعتقلين في ١٨، ١٩ يناير. تقابلنا في سجن الاستئناف في شهر مارس ١٩٧٧ وسألته:

- أستاذ فيليب أنا أحد المشتركين في مسيرة ٢٥ نوفمبر ١٩٧٦. أشرح لي كيف أكون عميلاً للمخابرات المركزية الأمريكية لمجرد إشتراكي في مظاهرة ضد العدد الصهيوني وضد الانفتاح الاقتصادي ومع الحريات وتعدد الأحزاب.

إبتسم في خجل قائلاً:

- نحن الآن معًا في سجن واحد.

قلت له:

- هل النظام الحاكم الذى أطلق الرصاص على الجماهير وطنيًا برضه؟!!

توسع نادي الفكر الاشتراكي في جامعة القاهرة. وأصدر بيانًا سياسيًا ضد سياسة المنابر «منبر وسط ويسار ويمين» التي ابتدعها السادات كديكور للديمقراطية، وحددنا موقفنا بعدم الإنضمام لمنبر اليسار الذي أنشأ وقتها. قام وحيد عبد المجيد بالانضمام لمنبر اليسار فعقدنا إجتماعاً للنادي واتخذنا قرارا بفصله من النادي. وأعتقد أن ذلك كان موقفًا خاطئًا ففي النادي كنا يجب أن نسمح بالتنوع والإختلاف في بعض القضايا.

في منظمة ٨ يناير تم محاسبتي على عدم إلتزامي بقرار الأغلبية وإختراقي لمبدأ المركزية الديمقراطية وأخذت عقوبة اللوم الصارم. «ولاموني وارتضيت باللوم». واعترفت المنظمة بخطأ قرارها.واتفق بشكل عام علي:

- ينبغي أن يكون قرار المنظمة واحدًا. إما مع المسيرة أو ضدها. وأن تسير المنظمة بأكملها مع القرار متجانسة. تم تحاسب نفسها بعد النجاح أو الفشل وأعتقد أن هذا القرار كان خاطئا أيضا. فالمظاهرة عمل جماهيري متحرك

على الأرض لا يمكن فضه أو إستمراره بقرارمن مجموعة ضيقة. المظاهرة يستمر بها أو يفضها جمهورها وهو الصاحب الوحيد للقرار.

أما عن وصف مظاهرة ٢٥ نوفمبر ١٩٧٦ بالبروفة. فهو وصف أحمق لقائد نظام أرتعش وأصيب بالإسهال في استراحته بأسوان حينما خرجت الجماهير تلعن الجوع والمظالم والمذلة والحكومة.

٣- إضرابات العمال والعلقة الساخنة.

إضرابات عمال النقل العام والنصر للسيارات وموتسيان وعمال الغزل والنسيج بالإسكندرية كانت هي البروفة الحقيقية لانتفاضة الشعب في ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧.

حينما سمعنا عن إضراب وإعتصام عمال النقل العام بجراج الترعة البولاقية بشبرا،أخذنا نتتبع أخبار الإضراب ومطالبه. قررت مجموعة من نادي الفكر الاشتراكي الذهاب في الصباح لجراج الترعة البولاقية، وأعددنا بيانًا باسم النادي للتضامن مع العمال كان بعنوان «إضراب ناجح بنسبة ١٠٠٪. واستفتاء مزور بنسبة ٩٩,٩٪» حيث كان الإضراب عقب التجديد لدورة جديدة لرئاسة الجمهورية لأنور السادات. وبرغم أنه كان إضرابًا اقتصاديًا إلا أن توقيته ذو مغزى سياسي هام. فبعد إعلان الـ ٩٩,٩٪ بتاعة السادات كانت مدينة القاهرة نتيجة الإضراب مشلولة بالكامل. والعمال معتصمون بجراج الترعة البولاقية.

في الصباح لم نجد أي أتوبيس يصلنا إلى جراج الترعة البولاقية، ولما كنا وقتها طلابًا فقراء لا نستطيع أن نأخذ تاكسي فقد سرنا مشيًا على الأقدام حتى شبرا، وكانت الفرحة تملأنا ونحن نسير في شمس يوليو والشوارع بلا أتوبيسات نقل عام. كنا نحس بقوة العمال، وكنا سعداء بذلك. بعد ساعتين

وصلنا لجراج الترعة البولاقية ووجدناه محاطًا بكثافة شديدة بقوات الأمن والشرطة. المكان ثكنة عسكرية، ولا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج من الجراج. أخذنا نستهبل ونسأل المارة في الشارع:

- هوه فيه ايه يا جماعة؟

والناس لا تجيب.

المنشورات معنا في الشنطة. هل نخرجها ونقوم بتوزيعها؟ المكان مرشق بالمخبرين. عند توزيع أول بيان سيقبض علينا. ماذا نفعل؟ أخذنا نطوف حول الجراج دون جدوى. مش عارفين نعمل إيه؟ وجدنا قهوة مجاورة للجراج يجلس عليها العمال صامتين. سألت أحد المارة ببجاحة وغباء:

- همه العمال المضربين فين؟

قال لي:

- بتسأل ليه؟

قلت له:

- إحنا صحفيين.

أجاب الرجل:

- إجلس على القهوة دي. كل العمال القاعدين على القهوة من عمال النقل العام.

دخلنا المقهى وقبل الدخول قررنا أن نتفرق. كل واحد يجلس بمفرده حتى لا يقبض علينا الأمن دفعة واحدة.

جلست على أحد الكراسي وطلبت شايًا. كان معي جرنال للأهرام فقمت بتقليب صفحاته متصنعًا القراءة. منتظرًا لحظة مناسبة للحديث مع أي من عمال المقهى. إنسان غريب دس نفسه وسط العمال كي يتضامن معهم، ذهب إلى الجراج فلم يستطيع الدخول، جلس على المقهى. ولأنه غريب عن

العمال ظنه العمال مخبراً تم دسه بينهم على قهوتهم؟؟؟

جلس الطالب المخبر المتضامن مع العمال يقرأ جريدة الأهرام، وفجأة ودون مقدمات وجد أحد العمال ينهال عليه بالضرب من الخلف، باللكمات والشلاليت والصفع قائلاً:

- يا ولاد الكلب يا مخبرين. حتى القهوة اللي بنقعد عليها جايين تتجسسوا علينا فيها. إمشي من هنا.

صعقت من هول الصدمة والضرب. أصبت بالذهول وأخذت أصرخ:

- أنا مش مخبر. أنا طالب من كلية الهندسة. أنا معاكم في مطالبكم. إحنا من نادي الفكر الاشتراكي....

لكن تقول لمين؟ مازال الرجل مغتاظًا ومازال مستمرًا في السب والشتيمة:

- أيوة هتضحك عليّ بالكلمتين بتوعك دول. إمشي من هنا وخد اللي دخلوا معاك. لحسن لو ما مشيتش ها أنده على العمال جوه الجراج وهنقطعكم. كفاية الذل اللي شفناه ومحاصرة الجراج. كمان المخبرين جايين يتجسسوا علينا. سبنالكم الجراج. سيبوا لنا القهوة.

مشيت أنا وأصدقائي منهزمين منكسرين. لقد ضربنا العمال الذين جئنا نتضامن معهم.همه برضه معذورين. الأمن ضاغط عليهم وإحنا غرباء عنهم. ومفيش أي معرفة سابقة مع أي واحد منهم.

بعيدًا عن منطقة الجراج. قمنا بتوزيع منشور التضامن على المارة في الشارع.البعض نظر إليه بلامبالاة. والبعض الآخر شاور بعلامات الأعجاب والتأييد. وبعض ثالث أخذ ينصحنا:

- يا ابني إحنا في دولة ظالمة. حاسبوا يتقبض عليكم.

حدث نفس الشيء مع عمال موتسيان بالجيزة لكن دون علقة ساخنة. فقد كان هناك بعض من العمال من حينا يشتغلون بشركة الدخان والسجاير، وفي

يوم جاء إلى صديقي وابن الحي وزينة شبابه (عربى الجناينى) قائلاً: عندنا إضراب في الشركة. عيسى شاهين وزير الصناعة مش راضي يصرف حقنا في الأرباح. حقنا شهرين (ستين يوم). قرر يصرف لنا ثلاثة أيام فقط أرباح. قررنا الإضراب النهاردة. وأنا النهاردة وردية مسائية.

أخذنا نكتب بيان من نادي الفكر الاشتراكي للتضامن مع عمال الشركة الشرقية للدخان والسجاير. كان عنوانه «عيسي عيسي يا شاهين. مش ثلاثة دول سنتين»

أعجب العنوان «عربي الجنايني» قائلاً أهو ده الكلام.

ذهب عربي إلى المصنع وأخذ يطوف بالعمال في مظاهرة داخل المصنع مرددًا شعار البيان ومضيفًا العديد من الشعارات العمالية، فلقد كانت لديه موهبة تأليف الأشعار والأزجال العامية وكان بارعًا في ذلك. كنا فرحين جدًا بعربي الجنايني. أهو كده نعرف حد جوه الإضراب ده يضمن ألا نكون غرباء وسط العمال. ولا يحدث ما حدث مع عمال النقل العام. وأهو كده الأمور بتتقدم كل يوم خطوة حتى لو كانت صغيرة.

كان عربي الجنايني يخرج لساعات محدودة خارج الشركة. ليقابلنا في قهوة على الحي ويحكي لنا عن الإضراب وموقف العمال داخل الشركة، فكان صلة حية بالإضراب. «لم تكن هناك موبيلات وقتها».

في الليلة الثالثة للإضراب أنقطع عنا عربي الجنايني، وعرفنا أنه تم اقتحام المصنع في الفجر وقبض على المئات من العمال وأقتيدوا إلى السجن وكان من بين المعتقلين «عربي الجنايني». عرفنا ذلك من أحد أبناء حينا والذي كان يعمل بالشركة مع عربي الجنايني.

قررنا الذهاب إلى المصنع وقمنا بعمل لافتة كبيرة من القماش كتب عليها بالخط العريض: «عيسى عيسى يا شاهين. مش ثلاثة دون سنتين» عاش كفاح

عمال الشركة الشرقية للدخان والسجائر.

ذهبنا إلى بوابة المصنع وجدنا تجمعا ضخما من العمال أمام البوابة للإحتجاج على القبض على زملائهم. قمنا بفرد اللافتة على الرصيف المقابل. تجمع معنا نصف العمال تقريبًا معجبين باللافتة. عرفناهم بأنفسنا وقلنا لهم نحن طلاب الجامعة وأخذنا نحرض العمال على الخروج معنا في مظاهرة إلى مجلس الشعب للمطالبة بالإفراج عن زملائهم. قبل البعض الفكرة وتردد البعض الآخر. وهنا ظهر أحد النقابيين الصفر بالمصنع قائلاً:

- أنا عضو اللجنة النقابية بالشركة، وما تسمعوش حد يوديكم في داهية. أتقبض على ٢٠٠ عامل. وإذا حدث مظاهرة ممكن يزيد عدد المعتقلين. أحسن حاجة ندخل الشركة ونتصل بالمسئولين للإفراج عن زملائنا. واللي بيحرضكم على التظاهر ممكن يكون مباحث وبيدفعكم للسكة الغلط..

خطبت في العمال قائلاً:

- المسئولين التي بتتكلم عنهم همه اللي أصدروا الأوامر باقتحام المصنع وبالقبض على العمال. الحقوق والمطالب تنتزع. إحنا الطلبة الإشتراكيين بالجامعة بنتضامن مع مطالبكم. وبنقول لكم إما تدخلوا داخل أسوار الشركة وتستمروا في الإضراب ويضاف مطلب الإفراج عن المعتقلين لمطلب الستين يوم، وإما نخرج معًا في مسيرة تطالب بالإفراج عن المعتقلين. إحنا مش مباحث. احنا طلبة الجامعة. احنا بتوع مظاهرات ١٩٧٣. إحنا أخوات وأصحاب وأبناء حي عربي الجنايني العامل زميلكم اللي أتقبض عليه أمبارح مع زمايلكم.

قوبلنا من العمال بود شديد وقالوا لنا أنهم واثقين فينا وأن النقابي ده زميلهم وكان واقف ضد الإضراب طوال الثلاثة أيام اللي فاتوا وهوه مع إدارة الشركة. «بس هوه بلّغ الأمن عنكم دلوقتي.».

تعاطف العمال مع كلامنا لكنهم لم يسيروا معنا. كان الخوف يسيطر عليهم عقب القبض على زملائهم. ولأننا لسنا على صلة مباشرة بهم فلا نستطيع أن نقودهم. لو لم يقبض على عربي الجنايني أكيد كان الموقف هيكون أفضل.

أخيراً بعد عدم الإستجابة أنصرفنا ولكن هذه المرة كانت النتائج أفضل من النقل العام وجراج الترعة البولاقية. قمنا بزيارة أسرة عربي الجنايني. إستمر اعتقال العمال طوال شهر تقريبًا.

القيادات الطبيعية من وسط صفوف العمال هي القادرة على العمل مع جماهير العمال لأنها تتكلم لغتهم وتعيش معاناتهم، ولا ينظر إليها العمال بوصفها أجساد غريبة وكائنات فضائية هبطت عليهم من السماء. لكن الممارسة أم المعرفة، ونزولنا لإضرابات النقل العام والشركة الشرقية أكيد كانت له فوائد ودروس بالنسبة لنا كشباب ثوري. رغم أنه لم يستفد منه العمال في هذين الإضرابين، لكن التعلم من العمال مش ببلاش. له ثمنه. وممكن يكون الثمن علقة ساخنة.

١٩،١٨ يناير وسجون كعب داير

كانت مظاهرات وإضرابات العمال طوال أعوام (٧٥، ١٩٧٦) مقدمات حقيقية للإنتفاضة الشعبية في يناير ١٩٧٧.(مظاهرات عمال حلوان في ١ يناير ١٩٧٥، مظاهرات مدينة المحلة في مارس ١٩٧٥، اعتصام مصنع الكوك بحلوان ١٩٧٠، إضراب عمال النقل العام ١٩٧٦، تحركات عمال الغزل والنسيج بالإسكندرية ١٩٧٦، إضراب الشركة الشرقية للدخان ١٩٧٦، إضراب مصنع النصر للسيارات بوادي حوف ١٩٧٦)، وكانت الإنتخابات البرلمانية لمجلس الشعب ١٩٧٦ إنتخابات ساخنة، شاركت فيها كل فصائل اليسار بفاعلية. وكانت هناك عشرات الدوائر الملتهبة بمعارك ساخنة في الشارع تمكن خلالها ١٧ مرشح من دخول البرلمان من أمثال (محمود القاضي، ممتاز نصار، الشيخ عاشور، أبو العز الحريري،كمال الدين حسين. الخ) وقاموا بمعارضة نشطة داخل البرلمان مما أدى بالسادات إلى حل البرلمان في عام ١٩٧٩.

نزل العديد من مرشحي اليسار في العديد من الدوائر وتمكنوا من عمل معارك حقيقية بالشارع، ولعب شباب الجامعات دورًا هامًا في مظاهرات الشوارع والمؤتمرات بالدوائر الإنتخابية، وطرحت كافة الشعارات التي كانت تطرح بالجامعة طوال أعوام ٧٣، ٧٥، ٧٦، ووزعت عشرات الآلاف من البيانات والمنشورات بالدوائر المختلفة، وتحرك شباب الجامعات في الدوائر المختلفة تحت مسمى «لجان الوعي الإنتخابي» التي تمكنت من لعب دور فعال

ومؤثر، ولذلك جاءت شعارات الإنتفاضة الشعبية بنفس شعارات اليسار في الانتخابات التي جرت قبلها.

ظل النظام بعد حرب أكتوبر يعد جماهير الشعب بالرخاء، لكن سياسات الانفتاح الاقتصادي كانت تراكم الثراء في جانب الطبقات الغنية،والبؤس في جانب الطبقات الفقيرة. أحس الناس بالغلاء وتدهور أحوالهم المعيشية كل يوم وأن الرخاء لا يقترب منهم أبدًا.

لقد بلع الناس محادثات الكيلو ١٠١ مع العدو الصهيوني، وإتفاقية الفصل الأول، وإتفاقية الفصل الثاني من أجل الرخاء القادم، ولكن الرخاء لم يأت بعد. شم الناس رائحة الفساد في كل مكان. فكل يوم يلتهم الحريق مصنعا أو شركة ما ويكون الفاعل المعلن هو حدوث ماس كهربائي، بينما كان تحت دخان كل حريق جريمة فساد وحرق دفاتر لإخفاء معالم الجريمة. كانت الهجرة إلى بلاد النفط عامل معاكس ضد كل هذه العوامل الموضوعية لكنها لم تستطع أن تلغي من الغليان الشعبي الذي كان يتأجج كل يوم. مر عام ١٩٧٦ دون أي اعتقال لأي فصيل من فصائل اليسار.

نمت المنظمات الماركسية وتعددت منذ بداية السبعينات. وحتى قبل انتفاضة ١٨، ١٩ يناير كانت كلها حلقات رغم أن كل حلقة كانت تسمى نفسها حزبًا. فمنظمة تضم عدة مئات من الكوادر يتمركز معظمهم في العاصمة وأغلبهم من المثقفيين لا يمكن أن تعد حزبًا عماليًا جماهيريًا.

خرج الشعب بأكمله في هبة شعبية من الإسكندرية إلى أسوان رافضًا ارتفاع الأسعار، لكن غياب الحزب الثوري (بالمعنى الحقيقي لكلمة حزب جماهيري) أدى إلى فشل الانتفاضة.

خرجت الجماهير بشكل عفوي وتلقائي عقب إعلان المجموعة الاقتصادية برئاسة عبد المنعم القيسوني عن زيادات مباشرة في أسعار البنزين والكيروسين

والسجائر والفينو والسكر والأرز. الخ

ليلة ١٨ يناير ١٩٧٧. بات الناس على لسانهم مطلب واحد هو إلغاء زيادات الأسعار. كانت بؤر تفجر الإنتفاضة في القاهرة بؤرتان:

خروج عمال مصنع حرير حلوان في تظاهرة ضخمة أدى إلى خروج جميع عمال المصانع في حلوان والنزول إلى قلب المدينة.

مظاهرة طلاب جامعة عين شمس بكلية الهندسة من ميدان عبده باشا إلى ميدان التحرير كانت بؤرة لإشتعال المظاهرات في جميع شوارع وميادين العاصمة.

أما الإسكندرية فقد لعب عمال الترسانة البحرية بالإسكندرية دورًا هامًا في إنتفاضة مدينة الإسكندرية بأكملها.

في المنيا تم عقد مؤتمر جماهيري بأحد الميادين كانت منصته عربة كارو. ساعد هذا المؤتمر في تفجير الإنتفاضة بمدينة المنيا.

كانت أية شرارة للغضب تندلع في أي مكان تحرك قطاعات عريضة من الشعب في إتجاه التظاهر، لأن الكيل قد طفح. باغتت الجماهير المصرية بحركتها الجميع حكامًا ومعارضين. لم يكن يتصور أحد أو يتخيل إنتفاضة شعبية بمثل هذا الإتساع والعنفوان رغم أنه كانت هناك مقدمات وشواهد. ففي الساعات الأولى من الإنتفاضة تمكنت الجماهير من شل وتشتيت قوات الأمن المركزي وأصبحت كالبعوضة وسط المتظاهرين. كان الشباب يدخل إلى المطاعم ويحضر أنابيب الغاز الأسطوانية ويشعل مقدمتها ثم يدحرجها أفقيًا ناحية جنود الأمن المركزي فكانت هذه القوات تلوذ بالفرار أمام إسطوانات الغاز المشتعلة. تناولت المظاهرات كل رؤوس النظام الحاكم بدءًا من السادات وزوجته إلى ممدوح سالم إلى القيسوني. وبعد أن كانت المظاهرات في عام ١٩٧٥ تهتف بشعار «حكم النازي ولا حكم حجازي» في

مواجهة رئيس الوزراء عبد العزيز حجازي. أصبحت الشعارات:

الشعب المصري قال بثبات
يسقط حكمك يا سادات
بالطول. بالعرض
هنجيب ممدوح الأرض
إيه راح تاخد يا قيسوني
وأنا غرقان في همومي وديوني
يا ابن بلدنا أصحى وبص
جوز جيهان غلّى الرز
الإنفتاح جاب لنا أيه
غير العاهر والكباريه
أربط أجرى بالأسعار
أصل العيشة مرة مرار
يضحكوا مرعي وعثمان
وينهبوكي يا خزانة
ويرقصوكي شمال ويمين
ويمصوا دمك ودمانا
يا مصر بس أنا عايز أفهم
ويا الكلاب ولا معانا
غلّوا السكر غلو الجاز
والمكرونة والبوتاجاز
غلّوا السكر غلوا الزيت
بكرة نبيع عفش البيت

أصيب السادات بالفزع حينما أبلغه قادة الأمن بالأنباء الأولى للمظاهرات، وأصيب بالهلع حينما أبلغوه أن المظاهرات بمدينة أسوان تقترب من الاستراحة التي كان يقيم فيها وقتها هناك. أخذ طائرته الهيلكوبتر التي كان يحلو له التنقل بها ونزلت به في مستشفى المعادي، ومن المعادي أتجه إلى قصر الرئاسة بالجيزة ليعطي الأوامر للجيش بالنزول إلى الشارع وإطلاق الرصاص على المتظاهرين وفرض حظر التجول في جميع المناطق. كما أعطيت أوامر بشن أوسع حملة من الإعتقالات لجميع المعارضين وخاصة الشيوعيين والناصريين، وأخذ يطلق صيحاته الغاضبة «إنتفاضة الحرامية». وعين الشيخ متولي الشعراوي في أحد المواقع الوزارية والذي أخذ يتحدث أيضًا عن «إنتفاضة الحرامية». و«طاعة الحاكم». و«الفتنة النائمة ولعن من أيقظها».

شدد النظام من حملة إعتقالاته وهجومه على الشيوعيين والناصريين. لم يعتقل أي فرد من جماعة الأخوان المسلمين أو غيرها من الجماعة الإسلامية نظرًا لأنهما كانا في شهر عسل طويل مع النظام منذ توليه الحكم.

كنت قد تخرجت من كلية الهندسة في يونيو ١٩٧٦، ومن يونيو إلى ٢٥ نوفمبر كنت أحضر داخل الجامعة مع أعضاء نادي الفكر الاشتراكي رغم أنني خريج. كان الدخول والخروج من الجامعة فيه حرية كبيرة وبلا كارنيهات (ليس مثل الآن).

في منتصف ديسمبر دخلت في مرحلة الجيش وتم إلحاقي كعسكري مجند، وذهبت إلى معسكر التدريب الأساسي بسلاح المهندسين ببني يوسف لمدة ٤٥ يومًا. وكان يوم ١٧، ١٨ يناير أجازة وسمية للسرية التي كنت ملحقا بها وهي س ٥٠٩، وكان في جيبي تصريح من وحدة الجيش بهذه الأجازة. ظهر يوم ١٨ يناير كنت بالمنزل جالسًا أقرأ في كتاب «تاريخ الثورة الفيتنامية» وحزب العمال الفيتنامى وهوشى منه والجنرال جياب. كنت مندمجا تمامًا في القراءة،

وفجأة سمعت صوت أخي عبد المنعم خليل يقول لأمي:

- أوعي تخلي ابنك ينزل الشارع. أنا جاي من حلوان من الشغل والمظاهرات مالية البلد.

فقالت له بصوت منخفض:

- هو قاعد جوه وماسك في كتاب. خليه ملهي فيه.

خرجت إلى أخي عبد المنعم وقلت له:

- مظاهرات فين؟.

- في حلوان وفي كل مكان أوعي تنزل. انت في الجيش والمرة دي بقى محاكمة عسكرية.

تظاهرت باقتناعي بكلامه. صعد إلى شقته العلوية. أخذت أجمع في كافة الأوراق السياسية بالمنزل، وكان المنزل مكتظًا بالوثائق، فطوال عام ١٩٧٦ لم تحدث أي هجمات بوليسية. جلست أمام المرحاض البلدي بدورة المياه أحرق في الأوراق والوثائق. هذه الوثائق أندم الآن كثيرًا على حرقها. لم يتبقى منها أي أثر. تحت الضغوط الأمنية حرقنا العديد من الوثائق الهامة والنادرة والتي لا يوجد نسخ منها الآن إلا في أراشيف جهاز مباحث أمن الدولة وجهاز الأمن القوي. آه كم كانت الخسائر فادحة؟!!! لم نكن في عصر الكمبيوتر وقتها!!!!!!.

الدخان يتصاعد في دورة المياه بغزارة، وتسرب من قاعدة المرحاض البلدي إلى مواسير الصرف الصحي إلى غرف التفتيش بمدخل المنزل وأمامه. ومن شدته أخذ يتصاعد من أحدى غرف التفتيش. وفجأة سمعنا صراخا من أسفل وصوت عالي لنساء الحارة:

- إلحقوا المجاري بتولع. الدخان طالع من البلاعة.

خرجت مع أمي إلى النافذة وكنا في الدور الثالث. فعلاً المنظر غريب جدًا.

الدخان يتصاعد من غرف التفتيش بغزارة والنساء بالحارة تولول. تصرفت أمي بذكاء وقالت:

- ما تخافوش أنا بولع ورق وقماش علشان الدخان يطرد الصراصير من مواسير المجاري!!!

دخلت إلى الغرفة ضاحكًا. لم أكن أتصور أن غزارة الدخان لهذه الدرجة. دخلت أمي ورائي قائلة:

- أعمل معاك إيه. أنت دايمًا مدوخني. عايزني أقول للناس ابنى بيحرق المنشورات عشان فيه مظاهرات برة. والله دي عيشة جنان في جنان. إحرق وخلصنا يا ابني بكرة بتوع أمن الدولة هيطبوا عليك. إحرق بسرعة واوعي تنسى أي ورقة.

«رحمك الله يا أمي الغالية. كم تعذبتي معي؟!!»

ظللت أحرق في الأوراق لمدة ساعتين. وبعد أن أنتهيت أرتديت ملابسي وأمي تصرخ:

- على فين العزم يا ابو عرام؟. أوعي تخرج يا ابني المرة دي محاكمة عسكرية.

قلت لها:

- أبدًا أنا راجع حالاً.

ذهبت إلى زملائي أعضاء نادى الفكرالإشتراكي. كان الكثير منهم قد نزل إلى المظاهرات. وقمت أنا والزملاء (أحمد بهاء شعبان – طلعت رميح) بصياغة منشور باسم نادي الفكر الاشتراكي تضامنًا مع الانتفاضة الشعبية. كنا قد تعرفنا على مطبعة خارج الجامعة بالجيزة. كان صاحبها يتعاطف مع أفكار النادي، ويطبع لنا بسعر أعلى من السوق شوية لأن كلامنا يودي في داهية. كنا قد طبعنا طوال عام ١٩٧٦ جميع مطبوعات النادي ومجلته ودراساته

عند هذه المطبعة قررنا أن نطبع ١٢ ألف نسخة من المنشور. وخططنا لشبكة توزيع المنشور صباح يوم ١٩ يناير. وأخذنا نبلغ التكليفات للزملاء بمواعيد إستلام المنشور. أنجزنا ذلك خلال ساعات وذهب زميلي «الطالب طلعت رميح» بكلية الآداب إلى المطبعة لطباعة المنشورات حيث أنه كان أكثر المتعاملين مع صاحب المطبعة.

قرر جميع زملائي ذهابي إلى وحدتي العسكرية عقب إنتهاء الإجازة الرسمية. ردددوا جميعًا ما قاله أخي وأمي، أنت لو أتمسكت في أي مظاهرة أو بأي منشور هتتقدم لمحاكمة عسكرية. واعتبر زملائي هذا القرار تكليف بالنسبة لي ورضخت لقرارهم. بالفعل لم اشترك في مظاهرات ١٨، ١٩ يناير وأنا الذي اشتركت في جميع المظاهرات. «وها أنا أسلم نفسي كالبعير لوحدتي العسكرية».

ذهبت في الفجر للوحدة العسكرية س ٥٠٩ ببني يوسف، كنت أنا وزميلي عماد صيام خريج كلية الزراعة في وحدة عسكرية واحدة وننام على سريرين متجاورين، وتوطدت الصداقة بيننا أيام الجيش. في الصباح قامت الوحدة باختبارات في الرماية بالرصاص الحي، وفي المساء تسلمنا سلاحا من الوحدة لحراسة مخزن ذخيرة ٢ ببني يوسف. كنت أنا وعماد متلازمين. كنا نتلهف لسماع أي خبر بالخارج. وكان عماد صيام يساريًا صارمًا ومن أجدع شباب عين الصيرة. كان تلميذًا وفيًا لزعيم الحركة الطلابية في عام ١٩٧٢ ورئيس اللجنة الوطنية العليا للطلبة (أحمد عبد الله رزه)، وكان هو وأحمد عبد الله ولفيف من الشباب يلعبون دورًا ثوريًا في الجامعة وفي حيهم الشعبي، ولقد خاضوا معركة سياسية هامة في حي مصر القديمة مع المناضل الثوري عزت عامر والذي كان مرشحًا في دائرتهم الانتخابية والتى كانت من أبرز الدوائر الساخنة حقًا.

تقريبًا في يوم ٢٠ يناير في المساء جاء أحد الضباط ونادي بإ سمي ثم بإ سم عماد. وتم اقتيادنا إلى قائد سلاح المهندسين، وكان ضابطًا شريفًا برتبة عميد (لا أتذكر أسمه الآن). قال لنا في أبوة:

- فيه إيه يا ولادي. ضباط من مباحث أمن الدولة جايين يقبضوا عليكم. إيه الحكاية؟ أنا أطلعت على الأوراق. أنتم هنا من مساء ١٨ يناير وكنتم أجازة يوم ١٧ يناير مع بقية زملائكم.

أفهمناه أننا كنا في حركة الطلاب عام ٧٢، ٧٣. هز الرجل رأسه وقال:

- أنا كاتب تقرير بيوصف الحقيقة كلها وموقع عليه، وأنتو دلوقتي هاتناموا في سجن الوحدة. والصبح هاتستلمكم المخابرات الحربية، أنا آسف يا ولادي بس دي أوامر.

نمنا في سجن الوحدة. كنت أحلم بمنشور نادي الفكر الاشتراكي. يا ترى ماذا حدث؟ وهل نجحت شبكة التوزيع في عملها؟. كنت أضحك كلما تذكرت منظر الدخان وهو منبعث من مواسير المجاري.

في الصباح تم ترحيلنا على وحدة التحريات بمنشية البكري. قابلنا ضابط من المخابرات الحربية. قال لنا بتعجرف شديد:

- لازم تتكلموا على كل حاجة. إحنا عارفين عنكم كل حاجة.

قلت له:

- وإيه لزمة الكلام طالما أنتو عارفين كل حاجة. معندناش كلام نقوله غير التقرير اللي وصلك من وحدتنا العسكرية.

إبتسم قائلاً:

- طب مش عايزين أي حاجة؟

قلنا:

- عايزين جرائد. عايزين نعرف إيه اللي بيحصل؟

أمر بشراء جميع الجرائد. جلسنا نقرأ فيها. في الصباح تم تسليمنا إلى مباحث أمن الدولة والتي رحلتنا سويًا إلى سجن طرة العمومي والذي كان مكتظًا بالمعتقلين من مختلف الأعمار ومن كل الإتجاهات الناصرية والماركسية. وجهت لي النيابة تهمة الاشتراك في المظاهرات يوم ١٩ يناير فقلت لوكيل النيابة أقرأ تقرير عميد سلاح المهندسين. يوم ١٩ يناير أنا كنت في وحدتي في الجيش وعمومًا هذه تهمة لا أدفعها وشرف لا أدعيه. وفي النهاية وجهت لي تهمة الانتماء للحزب الشيوعي المصري ونفيت ذلك.

في سجن طره كان هناك معتقلون من عمال المصانع الحربية في حلوان، ومعتقلون من عمال الغزل والنسيج بالإسكندرية الذي شردوا من مصانعهم عقب احتجاجاتهم عام ١٩٧٦ إلى مصانع الصعيد (عطية سالم – إبراهيم سلام – خليفة عمران – عطية قيبع – عطية عياد. الخ)

وكان سلاح التشريد إلى مصانع بعيدة سلاحًا رئيسيًا في يد نظام الحكم لإرهاق قيادات العمال وتشتيت جهودهم. فقد نقلوا من الإسكندرية إلى مصانع بأسوان ونجع حمادي والأقصر، فيضطر العمال إلى الإنفاق على بيتين: بيت أسرته بالإسكندرية وبيت بالصعيد للمكان الذي شرد إليه.

كان فى المعتقل العديد من المثقفين والشعراء والكتاب (أحمد فؤاد نجم – سمير عبد الباقي – عزت عامر. الخ). وكانت هناك مجموعة من الصعيد تم إعتقالها بتهمة حزب العمال الشيوعي. وكنت أنا وعماد صيام معتقلين بالزي العسكري ممثلين عن س ٥٠٩. وفي صباح أحد الأيام جاء التعيين (فول مدمس – أرز – عدس). وجاء في التعيين صحن من البنجر الأحمر المسلوق فأخذه شباب الصعيد. وفي الساعة الواحدة ظهرًا كتبوا بالبنجر الأحمر على الحائط المجاور لباب زنزانتهم وكان مدهونا باللون الأبيض:

«عاش كفاح حزب العمال الشيوعي» وذلك بالبنط العريض. وحينما دخل

الضابط بالعنبر صعق مما هو مكتوب على الحائط، وأخذ يصرخ وينهر في شاوشية العنبر: «أنتم عايزين نروح في داهية». وجاءوا بالجير الأبيض وأخذوا يطلون الحائط. بعد فترة اكتشفوا أن ملامح الكتابة مازالت ظاهرة فدهنوا مرة ثانية، وبعد فترة تم إعادة الكاتبة بالبنجر مرة ثانية وأمر الضابط بتفتيش الزنازين للبحث عن البوهية التي تتم بها الكتابة.

لم يدرك أن (طارق مهندس الصعيد وعضو حزب العمال الشيوعي) يكتب بالبنجر الذي أتت به إدارة السجن في التعيين. أين أنت يا طارق الآن؟ لم نلتقي منذ عشرات السنين!

قامت صداقة بيني وبين عطية سالم، وإبراهيم سلام عمال النسيج بالإسكندرية. أعظم وأشرف وأنبل من قابلت من القيادات العمالية في مصر (وعي ثوري عالي – حس طبقي صادق – خبرة كفاحية في المصانع والسجون). لا أدري أيضًا أين أنتما الآن؟ أحياء أم أموات؟ كيف حالكما؟ ماذا فعل الزمن بكما؟. كيف حال أولادكما وبناتكما؟ رغم الفترة القصيرة والتي لا تزيد عن شهرين في سجن طره إلا أنكما معي دائمًا.

في كل مرة أذهب للتضامن مع العمال في أي مصنع وفي أي موقع أحس أنني ذاهب إلى عم عطية سالم وعم إبراهيم سلام.

حكي لي إبراهيم سلام أنه حينما أعتقل في عام ١٩٥٩، وكانت مسئولته بالتنظيم سيدة. كان يتكلم عنها بإعتزاز وإحترام كبير، وكانت قبل الاعتقال حاملا في الشهر السابع. وقابلها في المعتقل في ردهات مباحث أمن الدولة، كانوا يودون أن يعرفوا هل كان أبراهيم على صلة تنظيمية بها أم لا؟. واستطاع أن يخفي عليهم صلته بها. لكنه كان يتألم بشدة من أجل إعتقال هذه الزميلة وهي حامل وقد قاربت على الوضع. بعد الخروج من السجن بعامين ذهب إبراهيم سلام إلى منزلنا بداير الناحية وكنت قد تركته لظروف ما. فقال لأمي:

أنا إبراهيم سلام من الإسكندرية كنت معتقل مع كمال في ١٩٧٧، أنا بقالي أسبوعين أبحث عن عنوانكم. بلغي كمال أن السكن الجديد اللي هوه عزل إليه مرصود من الأمن. وقوليله إبراهيم سلام بيقولك خد بالك.

جاء من الإسكندرية ليدرء خطر عن زميله. كم أنت أصيل يا إبراهم يا سلام. سمعت يا إبراهيم أنك بعد المعاش تبيع الساندوتشات في محطة مصر با سكندرية سعيًا لكسب الزرق. في كل مرة أنزل للإسكندرية أظل أبحث عنك يا شريان دمي. أيضًا أكيد أنت تعرف أين عطية سالم؟. ربما نلتقي يومًا نحن الثلاثة. وربما نموت بلا لقاء!!!

بعد قضاء حوالي عشرة أيام بسجن طره. تم ترحيلنا أنا ومجموعة من العمال بالإسكندرية إلى سجن القلعة. قالوا لنا في عربة الترحيلات أنكم إفراج. وظن البعض إننا إفراج. وكنت أحذر الزملاء من ذلك قائلاً:

- هذه لعبة للتأثير على المعنويات وزرع الإحباط تتقنها الأجهزة. تبلغك بالإفراج الكاذب وفجأة تجد نفسك في سجن آخر. طالما أنك لست في الشارع حرًا طليقًا فلا تفكر في الإفراج، فأنت ذاهب من سجن إلى آخر.

وعرجت عربة الترحيلات نحو سجن القلعة. وكنت قد ذهبت إليه أعوام ٧٢، ٧٣ فأخذت أوصفه من الداخل للزملاء وكيف يتعاملون فيه:

- سجن القلعة غير طرة. القلعة خاضعة بالكامل لمباحث أمن الدولة. طرة خاضع لمصلحة السجون. لا تتحدث مع أي مخبر، ولا تتكلم مع زميلك أو في الزيارة بصوت عالي. كل شيء مراقب. هذا السجن يحتوي على ثلاثة عنابر وتقريبًا على ستين زنزانة. سوف يضعون غماية على العين عند الدخول. قل لأي ضابط يحقق معك. التحقيق في النيابة وليس من سلطة مباحث أمن الدولة.

جمل سريعة قلتها للزملاء قد تنفع بعضهم وقد لا تنفع.

هاجمني أحد اليساريين القدامي وأنا أقول للمعتقلين ليس هناك قرار إفراج والأكيد أنه ترحيل لسجن آخر قائلاً:

- لماذا هذا التشاؤم؟!. نحن مفرج عنا.

ولما عرجت عربة الترحيلات نحو سجن القلعة نظرت إليه في صمت. دخلنا سجن القلعة ووضعنا متفرقين في زنازين انفرادية. وفي تمام الساعة الواحدة فجرًا تم استدعائي إلى نيابة أمن الدولة العليا. بدأ التحقيق غريبًا بسؤال:

- هل تعرف أحمد مصطفى إسماعيل؟.

قلت:

_ لا أعرف.

وفعلاً كنت لا أعرف أحد بهذا الاسم.

- لقد ضبط المدعو أحمد مصطفى إسماعيل يوزع منشورات تحرض عمال المحلة على التظاهر وموقعة باسم حزب العمال الشيوعي، ولقد اعترف بعضويته في الحزب، واعترف بأنك عضو في اللجنة المركزية لحزب العمال الشيوعي.

قلت:

- في التحقيق الماضي كنت متهما بعضوية الحزب الشيوعي المصري، في هذا التحقيق (والذي لا يفصله عن الأول أكثر من عشرين يوم) أنا متهم بعضوية اللجنة المركزية لحزب العمال الشيوعي. كيف حدث ذلك؟ وكيف انتقلت خلال ٢٠ يوم من حزب إلى حزب آخر، ومن عضو قاعدي إلى عضو لجنة مركزية!! كيف حدث ذلك وأنا معتقل لديكم؟!! وكيف أنتمي لحزبين في وقت واحد فأنا مقدرش أحب أتنين علشان ماليش قلبين.

ضحك وكيل النيابة قائلاً:

- خلاص أختار لك تهمة من الإتنين.

قلت ضاحكًا:

- طبعًا أبقى عضو لجنة مركزية أحسن.

قال:

- كل ما زاد موقعك في الحزب تبقى العقوبة أشد.

قلت له

_ مش مهم.

إطلعت على إعترافات أحمد مصطفى إسماعيل، وجدتها شملت أكثر من ٢٥ زميلا منهم (عزت عامر – محمود الشاذلي – شهرت العالم – فريد زهران – عبد المنعم كراويه -. الخ). من ذا الذي يدعي أحمد مصطفى إسماعيل؟!!! شيء ما يدبر لم يكتمل بعد!!!

فى السجن صرخت بأعلى صوت لي:

- يا شاويش.

جاء صوت المخبر من الخارج:

- عايز إيه؟.

قلت:

- إفتح اللجنة المركزية عايزة تغسل هدومها (كانت كل ملابسي الداخلية والأفرول العسكري على درجة عالية من القذارة).

فتح لي باب الزنزانة. خرجت لابسًا الأفرول على اللحم وأخذت الملابس الداخلية على يدي. قررت غيسل الملابس الداخلية للجنة المركزية. أخذت أهرج بصوت عالي على موضوع اللجنة المركزية والملابس الداخلية. وكان أحد المعتقلين القدماء جالسًا على كرسي في الطرقة أمام الزنازين، أخذ يضحك في هدوء ويقول لي:

- شد حيلك يا لجنة يا مركزية.

عرفت فيما بعد أنه المناضل «إبراهيم عبد الحليم» قد تم اعتقاله رغم كبر سنه (كان فوق السبعين عامًا) لكن بتسامته كانت بشوشة. وكان يلوح لي كلما خرجت إلى دورة المياه ويقول لي: هه أخبار اللجنة المركزية إيه. منه عرفت أن هناك مجموعة كبيرة من المتهمين بعضوية الحزب الشيوعي المصري (زكي مراد – نبيل الهلالي – رفعت السعيد. الخ). وأن عددهم يزيد عن ٢٠ شخص. وهمه يبلغوك السلام. قلت له بضحك:

- همه لجنة مركزية برضه؟!!

ضحك الرجل قائلاً:

- أيوه.

في الصباح فتح المخبر باب الزنزانة وأعطاني طبقا من الحلوى والبسكوت والجاتوه وقال لي:

- الأستاذ زكي مراد من العنبر التاني باعت لك ده.

أخذت الطبق دون أن أنطق. بعد نصف ساعة وجدت الأستاذ زكي مراد (رحمه الله). (وعشقت نيل أسمر نوبي) أمامي في طرقة العنبر. فجريت نحوه مسلمًا عليه فقد كنت أعرفه هو والأستاذ نبيل الهلالي حينما كانوا يترافعون عن الطلاب في جلسات سماع الأقوال في أعوام ٧٢، ١٩٧٣ وبادرني بقوله المعتاد:

- يا واد يا كمال أنت لسه رفيع كده. همه اخواتك بياكلوا أكلك ولا أيه؟

في الصباح جاءتني زيارة وكان الزائرين (محمد خليل – أمي – أختي سميحة) وعندما شاهدوني مرتديًا بدلة الجيش أنهمرت أمي وأختي في بكاء شديد أربكني بدرجة عالية. أردت أن أخفف عنهما فقلت مسرعًا:

- إنتو بتبكوا ليه. دا الأستاذ زكي مراد المحامي معايا جوه، ولسه باعت لي جاتوه وكحك. أنا باكل هنا أحس منكم وماتخافيش يا أمي مفيش محاكمة

عسكرية ولا حاجة.

بكت أمي قائلة:

- أمال ليه سايبنك بلبس الجيش.

- علشان أخدوني من الجيش ومش معايا أي هدوم غير لبس الجيش. ها ألبس الهدوم اللي أنت جايباها بعد ما تمشي.

واستمرت الزيارة عشر دقائق. كان هناك ضابط جالس يراقب الأمور. بعد الزيارة قام بنقل المخبر ووقع عليه جزاء ما لأنه عرف أن الأستاذ زكي مراد نقل الجاتوه والكحك من عنبر إلى عنبر. من خلال المخبر نفسه.

شرحت بعد ذلك حينما التقيت بالأستاذ زكي مراد بعد شهور في سجن أبي زعبل أنني أخطأت. وسبب الخطأ كنت أود أن أقول كلمات تطمئن أمي وأختي. ضحك زكي مراد قائلاً:

- معلهش. غلطنا كتير زيك وإحنا صغيرين.

أبلغتني أمي أثناء الزيارة أن «ضابط المباحث كان بيحلف لي أنك بتقود المظاهرات في الشارع يوم ١٩ يناير عند الجامعة. وأنا أحلف له وأقوله والله أنت كداب لأن ابني في الجيش. قعد يقول: أنا شايفه بعيني وهوه بيقود المظاهرات»

بالطبع كان يقصد الضابط زميلي مصطفى الخطيب بكلية الهندسة وهو الذي كان يقود المظاهرات بالفعل عند الجامعة يوم ١٩ يناير. وكان هناك بعض أوجه الشبه يجمع بيني وبين مصطفى الخطيب مثل نحافته وأرتدائه لبلوفر أسود يشبه نفس البلوفر بتاعي. وتكمل أمي «ولما قلت له: ابني في الجيش. قعد يسأل: طب هوه في أنهي حتة في الجيش؟ مارضتش أقوله أنك في بني يوسف. قلت له: أنت بتسألني أنا. اسأل الحكومة أنتو حكومة زي بعض. قول للداخلية تسأل الجيش. قعد لايص. وهو بيفتش لقي في جيب

الجاكتة تصريح قديم بـ ٤٨ ساعة أجازة. قاللي صحيح دا ابنك في الجيش قلت له: إلهي اللي يقبض على ابني من الجيش يتشل في دراعه وما يوعي يروح لعياله. الراجل خاف. وخد المخبرين ونزلوا»

قلت لها:

- ما شافش الدخان اللي خارج من مواسير المجاري.

إبتسمت وقالت:

- يا واد أسكت لحسن يسمعوك.

تم ترحيلي ثانية إلى سجن طرة، ولما وصلت إلى العنبر سمعت الزملاء يتحدثون عن القانون رقم ٢ لسنة ١٩٧٧ وفصل كمال الدين حسين من البرلمان، والقبض على طلعت رميح، وأحداث كثيرة جرت حينما كنت في سجن القلعة وخاضع للحبس الإنفرادي ولا تصلني أي جرائد. الحبس الإنفرادي يضعك في عزلة تامة عن العالم. أخذت أجمع الجرائد وأرتبها زمنيًا، وجلست لعدة ساعات أتابع ما حدث:

فلقد صدر القانون رقم ٢ لسنة ١٩٧٧ والذي يعطي عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة لكلك من شارك في الإعداد والتنظيم لمظاهرة أو إضراب عن العمل، وكان قانونا جائرًا وظالمًا يضاف إلى ترسانة القوانين المقيدة للحريات، وكان الهدف منه تصفية الحركة فى أوساط الطلاب والعمال بعد الضربة البوليسية الواسعة التي أعقبت الانتفاضة الشعبية، وقد عارض هذا القانون نواب المعارضة بالبرلمان وقد أدت هذه المعارضة لفصل كمال الدين حسين على أثر مشادة ضخمة مع أنور السادات. وقرأت أيضًا في الجرائد نبأ القبض على طلعت رميح بمنشور نادي الفكر الاشتراكي، كنا قد أتفقنا مع صاحب المطبعة على طبع ١٢ ألف نسخة من المنشور، وكان طلعت هو رأس شبكة التوزيع، تم توزيع حوالي ٣ آلاف. وحينما قبض على رأس الشبكة لم تصل المنشورات

لباقي الأعضاء، وتراكم بالمطبعة أكثر من٩ آلاف منشور. قام صاحب المطبعة بحرقها حينما قرأ الخبر في جرائد الحكومة، وكان يعتقد أن طلعت سيتم تعذيبه ويعترف على مكان المطبعة، لكن ذلك لم يحدث طبعًا بعد الخروج من السجن ألتقينا بصاحب المطبعة وأخذ يشرح ما حدث وأبدى إعجابه بطلعت لعدم ذكره اسم ومكان المطبعة بعد الاعتقال، عرفت أن طلعت رميح في سجن آخر ولم ألتق به إلا في سجن الاستئناف.

مكثت بسجن طرة طوال ١٥ أو ٢٠ يوما، وبعدها جاء قرار ترحيل من سجن طره إلى سجن الاستئناف:

(أحمد فؤاد نجم – رفيق الكردي – كمال خليل – عبدو كراوية-نادر عنانى)

دخلنا على السجن في المساء، وأغلقت علينا زنزانة واحدة، وبعد ساعة أحضر شاويش العنبر ترمسًا ضخمًا من الشاي وقال:

- المعلم ميمو بيمسي على أحمد فؤاد نجم.

وقف أبو النجوم على شباك الزنزانة قائلاً:

- أحمد فؤاد نجم بيمسي على المعلم ميمو.

ثم نزل وأخذنا نفرغ الشاي من الترمس في الأكواب وسألنا نجم:

- من هو المعلم ميمو.

فرد قائلاً:

- والله ما أنا عارف. ميمو يبقى مين يا نجم؟. ميمو يبقى مين يا نجم؟. مش فاكر. المهم أهو شاي هبط علينا من السماء.

بدأنا نسمع أصواتا من خارج العنبر من المساجين الجنائيين تطالب نجم بأن يسمعهم بعض قصائده. وصعد نجم إلى الشباك يغرد بأشعاره وسط تصفيق وتهليل من المساجين عقب كل قصيدة. والمدهش أن المساجين كانوا

يحفظون عناوين القصايد. وأخذ نجم يتلو قصيدة عقب قصيدة. بعد أن أنهى وصلته الشعرية. أخذنا نعد طعام العشاء ونأكل. وأثناء الأكل صرخ نجم:

- ميمو. أيوة افتكرته. دا واحد من عندنا من حوش آدم في الدرب الأحمر.

في الصباح فتح علينا باب الزنزانة وأخدنا نتعرف عن المعتقلين بالسجن. وجدنا مجموعة من السياسيين والمثقفين أتذكر منهم:

(فيليب جلاب «رحمه الله» – محمد يوسف الجندي «رحمه الله» – حسين عبد الرازق – محمد سلماوي – أحمد الجمال). وكانت هناك مجموعة لا تقل عن ٢٥ شابًا تتراوح أعمارهم بين ١٨ – ٢٥ سنة. كانوا من الشباب (الغير مسيس) والذين اشتركوا في مظاهرات ١٨، ١٩ يناير (وكان معظمهم من الحرفيين وقلة من طلاب دبلومات الصنايع والثانوي العام) وأتهموا بالشغب.

الغريب في الأمر أنه كان هناك إنفصال تام بين مجموعة السياسيين والمثقفين وهذه المجموعة من الشباب (والتي كانت تضم أحد أبناء عمال حلوان بالمصانع الحربية (بكر حسن أبو الخير). لم يهتم هؤلاء السياسيون بأمر هذه المجموعة، ولم يشركوهم في الحياة العامة، ولم يوفروا لهم أي اتصال بالمحامين للدفاع عنهم.

وحينما وجد نجم هذا الوضع بالسجن، ذهب لمجموعة السياسيين وقال لهم:

- لماذا لم تهتموا بأمر هؤلاء الشباب.

أجاب أحدهم:

- إنهم متهمين بالشغب!!

رد نجم على الفور:

- دول اللي عملوا إنتفاضة ١٨، ١٩ يناير. هوه أنتو فاكرين إن أنتم اللي

عملتوها. ولاد الشعب يتسابوا كده جوه السجن!!!

إجتمعنا بمجموعة الشباب في أحد الزنازين، أدخلناهم الحياة العامة، كل الزيارات والأطعمة أصبحت تقسم بالتساوي على الجميع، أخذنا عناوينهم وأسماؤهم وأتصلنا بالمحامين للدفاع عنهم، وكلفنا زملاءنا خارج السجن بالاتصال بذويهم وإبلاغهم بمكان سجنهم من أجل زيارتهم، حضر الشباب الندوات الثقافية التي كنا نعقدها بالسجن، حكوا لنا ماذا فعلوا أثناء الانتفاضة، أصبحوا بعد فترة جزءا لا يتجزأ منا ولا ينفصل عنا، يطرحون علينا مشاكلهم داخل السجن.

كنا كلما حصل أي زميل على أفراج أو يتم ترحيل زميل إلى سجن آخر نصطف صفين متواجهين بالدور الثاني بسجن الاستئناف ونغني له أغنية الوداع:

«كلمتين يا مصر يمكن همه آخر كلمتين. حد ضامن. يمشي آمن، أو مآمن. يمشي فين؟ وآدي كلمة من عذابي. قلتها لك. باقي كلمة. من حنيني صنتهالك. في الضلوع من دنيا ظالمة. كنت خايف يلمحوها. يقتلوها في سكة ضلمة. يا نسيم الشوق يا طاير. خد لمصر. خد لمصر. الصبح كلمة. طول ما يبقى الركب ساير. بالضماير والعينين. تبقى ضامن. تمشي آمن. تبقى عارف. تمشي فين. كلمتين يا مصر يمكن.»

كان الشباب يقف ويغني معنا. وزال الإنفصال بيننا وبينهم تمامًا. وذات يوم جاء بكر أبن القائد العمالي حسن أبو الخير يقول لي:

- أبويا كل ما ييجي قدام السجن ويشاور لي من درب سعادة والشارع الخلفي لسجن الاستئناف ألقاه رافع أيده ومطبق صوابعه وفارد صباعين بس لفوق وأشاور له زي ما بيعمل وأنا مش فاهم إيه الحكاية. أول مرة افتكرت أنه عايز سيجارة. بعد كدة لقيت الموضوع مش موضوع سجاير،عايز أفهم

أيه معنى المشاورة دي؟

قال له المهندس نادر عناني زميل أبيه بالمصانع الحربية:

- دي علامة النصر يا بكر وبيعمل صوابعه على شكل حرف V وكلمة نصر بالانجليزية Victor. يعني بيقولك النصر لنا. وأنك قريب هتروح بيتك بسلام.

ضحك بكر مستغربًا من حكاية الصباعين دول قائلاً:

- كلمتين يا بكر يمكن. همه آخر كلمتين.

حكي بكر مغامراته مع أبيه. حيث علم أن أبيه يشكك من عند أحد الفرارجية فكان كل أسبوع يذهب إلى الفرارجي قائلاً، أبويا بيقولك هات فرخة. أو هات أرنب. أو هات بطة. ويروح هوه وأصحابه واكلين الوليمة في بيت أي حد. وقال:

- أظن أبويا لما هيعرف الموضوع ده هيرفع صوابعه مش بعلامة النصر. لا دا هيرفعهم ويحطهم في عينيا. لا يا عم خلينا في السجن أحسن.

توافد علينا بعد أسبوعين مجموعة أخرى من الزملاء أتذكرهم:

(فريد زهران – مجيد سكرانة – شوقى الكردي – مجدي الدقاق «أصبح بعد ذلك حزبًا وطنيًا وعضوا في لجنة الهمبكة والسياسات»- سمير عبد الباقي – طلعت رميح – محمد فتحى – فتحي فرج. الخ).

وأصبح السجن عامرًا ونقاش هناك ونقاش هنا. وخلافات. وقيادات وبيانات وأوراق تخرج خارج السجن. أهم ما يميز سجن الاستئناف هو وجوده في وسط البلد، ولذا فإنه يصبح في متناول الأهالي وقريبا منهم، كما أن درب سعادة خلف السجن من يقف فيه في الجهة المجاورة للسجن يشاهد السجين وهو في الدور الثاني أو الثالث، ويكون قريبًا جدًا منه لو صعد دورا وأستأجر شباك حجرة من أم حسن.

وأم حسن هذه وجدت من قرب شبابيك منازلها لشبابيك السجن وسيلة

للرزق، فكانت تؤجر شبابيك الغرفة لكل زائر لمدة ربع ساعة أو نصف ساعة حسب التسعيرة. فكنا نتعلق على الشبابيك المرتفعة للزنزانة بربط البطاطين في حديد الشباك من الجهتين، ونجلس عليها كالمرجيحة، والزائر يستأجر شباك أم حسن لمدة ربع ساعة فتصبح المسافة بين السجين والزائر قريبة ولا يفصلهما إلا سور السجن الذي يصير في هذه الحالة منخفضًا. وكنا نهرب البيانات والأوراق، بوضعها في نصف رغيف إلى شبابيك أم حسن أو إلى درب سعادة في الشارع فتصل في سهولة ويسر. فعلاً درب سعادة كان مصدرًا للسعادة وصلة دائمة بالأهل والأحباب والأصدقاء. وكانت أم حسن تدعو ربها أن ينقذها من العين ومن الحسد وذلك لقرب شبابيك بيتها من شبابيك السجن.

كما أن سجن الاستئناف يوجد به غرفة الإعدام (فإعدام الرجال يتم في سجن الاستئناف – وإعدام النساء يتم بسجن الحضرة بالإسكندرية)، وبالطبع دخلنا غرفة الإعدام للتعرف عليها وعلى طريقة الإعدام، وشاهدنا أيضًا عدة حالات إعدام داخل السجن لمساجين جنائيين مثل (عماد الذي وضع قنابل في مجمع التحرير) وأيضًا لمساجين سياسيين أحدهم يدعى (صالح وكان يساري يمنى شارك في إغتيال أحد الدبلوماسيين اليمنيين). وللإعدام قصص طويلة وعديدة في السجون لا داعي للخوض في تفاصيلها لأنها عقوبة بشعة وغير إنسانية يجب إلغائها. إلا حادثتين أود ذكرهما:

أولاهـما: أحد الجواسيس لإسرائيل وكان يرتدي البدلة الحمراء (بدلة الإعدام) داخل سجن الاستئناف.كان يتحدث معنا ببجاحة شديدة، ويؤكد لنا أنه لن يعدم وسيتم مبادلته مع إسرائيل. ويقول أنه متأكد من ذلك وسيحدث ذلك خلال عام أو أكثر قليلاً.

فعلاً في ١٩٧٨ وقع السادات على إتفاقية كاقب ديفيد وأفرج عن الجاسوس

وكنا نحن آخر من يعلم.

ثانيهما: رأيت سجينا جنائيًا حكم عليه بالإعدام، وكان يرتدي البدلة الحمراء، وفي اثناء سجنه في إنتظار الإعدام، ظهرت دلائل جديدة في القضية. فنزل إلى محكمة الاستئناف بالبدلة الحمراء، ولما عاد إلى السجن (وكان القاضي أمر بإعادة المحاكمة لظهور دلائل على براءة المتهم) شاهدت شاويش العنبر يخلع عنه البدلة الحمراء ويلبسه بدلة بيضاء (لأنه أصبح تحت التحقيق). وكان المنظر في غاية العجب والغرابة.

كأنك تشاهد طفل يولد من جديد، فقد تحول وجهه من الأبيض الشاحب الإصفرار، إلى وجه ذي حمرة تنطق بالحياة. حقًا إنه ميلاد جديد.

لكن أغرب ما شاهدته في سجن الاستئناف في حبسة عام ١٩٧٧ وما قبلها وما بعدها من حبسات (أغرب من غرفة الإعدام وأغرب من درب سعادة وغرفة أم حسن) كان ثلاثة أشياء:

أولهما: في ذات ليلة وقد قفلت جميع الزنازين على كل نزلاء السجن، وفي تمام الساعة الحادية أو الثانية عشرة مساءًا فتح علينا باب الزنزانة، ودخل ضابط شاب من ضباط السجن في رتبة ملازم أول أو نقيب وسلم علينا وبالأخص على أحمد فؤاد نجم وقال لنجم:

- أنا ضيفكم في هذه الزنزانة الليلة. اليوم نبطشية لي وأنا المسئول عن السجن، فاسمحولي بالجلوس على ارض الزنزانة معكم نشرب الشاي واسمع أشعار أحمد فؤاد نجم.

وبعد تشاور سمحنا له بالدخول لبراءة وجهه. وألتمسنا فيه الصدق وجلس الضابط معنا على البرش والبطانية. وسهر حتى الفجر مستمعًا لأشعار نجم، وكانت جلسة سمر طوال الليل، وكان الضباط الشاب متعاطفًا بشكل كبير مع انتفاضة ١٨، ١٩ يناير، ويظهر عداءه للنظام الحاكم.

ثانيهما: سجن الاستئناف هو سجن سبهللة، سجن ترانزيت. ناس داخلة وناس طالعة. وناس في درب سعادة وناس في درب تعاسة. ناس أفراج وناس إعدام. السجن في أدواره الثلاثة كالسوق. ناس قاعدة بتبيع شاي وسكر وطعمية وجاز. وناس مبرشمة جوه السجن وماشية تايهة. تسمع مسجون مبرشم بينادي:

- يا جماعة محدش شاف فوطة ضايعة فيها ١٢٠ ألف فتلة!!!!

وناس بتبيع مياه ساخنة في دورات المياه، وجلسات طالعة وجلسات جاية من المحكمة. مولد بجد. وجوه السجن مقام السيدة صفية. وفي حجرة الزيارات لا تعرف مين اللي مسجون؟ ومين الزائر؟.وغرفة الزيارات قريبة جدًا من باب السجن. والشيء الغريب اللي حدث أن زميلنا العزيز محمد محمد فتيح الطالب بهندسة عين شمس (فينك يا محمد يا أجدع الناس أنت وأحمد فتيح صاحب مجلة الكوسة) كانت له زيارة، وحضرت عائلته ودامت الزيارة ربع أو نصف ساعة ولما انتهت الزيارة أخذ محمد يصطحب أسرته حتى باب السجن. ومن شدة اشتياقه لهم واشتياقهم له أخذا يتبادلان أطراف الحديث حتى خرج معهم محمد فتيح من باب السجن إلى خارجه، وتم قفل باب السجن خلفه ولا حد هنا. ولا حد دريان. سوق يا عم ومولد مالوش صاحب. وبعد فترة سمع الحارس على الباب خبطا شديد على البوابة الخشبية للسجن فصرخ قائلاً:

- والله ما أنا فاتح. الزيارات خلصت خلاص.

وإذ بصوت فتيح ينادي عليه من الخارج:

- إفتح يا عم أنا مسجون عندكم.

ودخل فتيح يحكي ما حدث قائلاً:

-أنا سرحت ومش واخد بالي لقيت نفسي بره السجن!!!

وكانت قصة هروب عظيمة لمحمد فتيح. طبعًا هذه القصة ألغت فكرة الهروب التي كنا نتبادلها دائمًا داخل السجن.

ثالثهما: وهو شيء مازلت أفكر فيه حتى الآن. فلقد تقابلت في هذا السجن مع أحد قيادات حزب التجمع. وفي ليلة أستضافنى في زنزانته لنتناقش في موضوعات سياسية حول طبيعة السلطة الطبقية. وفي أثناء النقاش وجدته يتحدث بالمادية الجدلية والمادية التاريخية فقلت له:

- كيف تتكلم عن المادية الجدلية والمادية التاريخية وتقول ماركس وإنجلز ولينين وأنت تعلن داخل السجن أنك ناصري. الموضوع غريب شوية!!!.

رد قائلا:

- أنا عضو في الحزب الشيوعي المصري. بس أنا عندي تكليف من الحزب إني أقول إني ناصري وأخفى هويتي الشيوعية.

أدركت وقتها أن هناك خرابًا شديدًا يحدث. يدخلون الإتحاد الاشتراكي. يموت عبد الناصر. يعودون لتشكيل الحزب الشيوعي المصري من جديد. ثم في العلن يقولون أنهم ناصريون وفي السر يقولون أنهم شيوعيون. لخبطة شديدة. انتهازية فجة. رغم مرور أكثر من ٣٠ سنة على هذه القصة إلا أن دلالتها مازلت تحفر الذاكرة.

مرت الأيام بسجن الاستئناف يومًا وراء يوم. وذات يوم نزلنا جلسة سماع أقوال بمحكمة الإستئناف. في داخل القفص بالقاعة (كنا حوالي ٢٥ زميلاً من سجون مختلفة) كنا نتصافح جميعًا ونتبادل السلامات والأحضان. ووجدنا شخصًا معنا لا يعرفه أحد منا. فلما سألناه أجاب:

- أنا أحمد مصطفى إسماعيل.

صرخنا في وجهه:

- وكيف تشهد علينا بكل هذه الشهادات الباطلة؟!!!

لقد كان أحمد إسماعيل شاهدًا على الجميع. قال أحمد إسماعيل وهو في حالة من الإرتباك الشديد. أعطوني الفرصة سأحكي للقاضي ما حدث. أنتم مظلومين وأنا مظلوم كمان. أنا وقعت تحت تهديد مباحث أمن الدولة وضعفت ففعلت لهم ما يريدون. أعطوني فرصة لأصحح أخطائي. وفعلاً في الجلسة حكي أحمد إسماعيل تفاصيل الضغوط التي وقعت عليه في قصة مفادها:

لقد أنفق جهاز مباحث أمن الدولة أكثر من (ستة أو سبعة ملايين جنيه) طوال العامين السابقين على انتفاضة يناير ١٩٧٧، وكان الهدف هو تحديد أعضاء اللجنة المركزية لحزب العمال الشيوعي وضبط الجهاز الفني للتنظيم الذي يتم عليه طباعة كافة الأوراق التنظيمية. ولما حدثت الإنتفاضة وكان قد تم إنفاق كل هذه الملايين على بغددة ضباط أمن الدولة في صورة بدلات وإمتيازات كان لابد من تقديم تحريات عن تنظيمات شيوعية كانت وراء الإنتفاضة. وبالفعل تم الضغط على أحمد إسماعيل وتهديده وإجباره على القيام بكتابة منشوربخط يده ضد النظام الحاكم وموقع باسم حزب العمال الشيوعي ليقوم بتوزيعه أمام مصنع المحلة الكبرى، وحينما يتم القبض عليه يعترف بعضويته لحزب العمال الشيوعي ويعترف أن أعضاء اللجنة المركزية هم فلان وفلان وفلان وبعد ذلك بشهر أو فترة ما يتم القبض على مجموعة ثانية بتهمة الجهاز الفني لحزب العمال الشيوعي.

كان مخططًا ملفقًا من قبل حفنة من تيران أمن الدولة. ولم يكن أحمد إسماعيل عضوًا في حزب العمال. ولا كان من شهد عليهم جمعيًا أعضاء في اللجنة المركزية لحزب العمال الشيوعي.

جهاز عفن يستخدم كل سطوته وجبروته في تلفيق أي شيء. جهاز كلب حراسة للنظام الحاكم. البشر في ظله أدوات وماكينات. لا ضمير لجنرالاته

فهم خدم مطيعون، وهم أشخاص مختارون بعناية.يعرفون ما المطلوب منهم دون أية أوامر علوية. وكل لبيب بالإشارة فيهم.

ذهب كل منا إلي سجنه. وجاء لنا بعد أسبوع أحمد إسماعيل في سجن الاستئناف وحكي ما حدث له في سجن القلعة عقب الجلسة التي أعترف فيها بالحقيقة أمام القاضي:

- لقد جلدوني بالكرابيج، وأجلسوني على خازوق من الخشب.

وكانت أثار الدم بملابسه وأثار الكرابيج على ظهره.

لقد إعتدى بعض الزملاء بالضرب على أحمد إسماعيل عقب دخوله سجن الاستئناف، وكان ذلك موقفًا صبيانيًا وثورية زائفة. وللحق فإن أحمد إسماعيل استمر على موقفه (في تصحيح خطأ أرتكبه تحت ضغوط شديدة من قبل هذه الأجهزة) طوال القضية ولم يتزحزح عن موقفه وهذا شيء يحسب له. فكم من الناس تموت ضمائرهم ولا يقدرون على تصحيح أخطائهم. لقد دفع أحمد إسماعيل ثمنًا غاليًا منذ الجلسة التي روى فيها الحقيقة أمام القاضي. وفي نفس الوقت كانت شهادته فضحًا عمليًا لجهاز أمن الدولة، وكانت قصة أحمد إسماعيل وشهادات حاتم زهران (مخبر أمن الدولة) كافيتان لتعرية حجم التلفيات التي قام بها جهاز أمن الدولة في قضية ١٨، ١٩ يناير لدرجة أنها وصلت إلى السنيما في رائعة عاطف الطيب «زوجة رجل مهم».

أصبت في سجن الاستئناف بمغص كلوي شديد واحتباس التبول، وتم نقلي إلى مستشفى سجن طرة، ووصلت إلى حافة الموت الذي أنقذني منه أحد المساجين الجنائيين يدعى (محمد سكلانة) بعمل خلطة خاصة من الأعشاب وغليها لعدة ساعات، وأعطاهاني على هيئة فنجان بطعم العلقم مما أدلى إلى فك حالة الاحتباس.

أين أنت يا سكلانة. أكيد دهستك الحياة كما دهست صديقك محمد

فتحي السجين الجنائي الذي كان يتحدث بطلاقة عن جيفارا والثورة والمجتمع والذي تعلم كل ذلك من الأستاذ فريد عبد الكريم حينما ألتقى به في مستشفى سجن طره أعوام ٧٣، ٧٤، ٧٥.

حصلت على إفراجين من القضاء، وفي افراج المرة الأولى أعترضت مباحث أمن الدولة على قرار الإفراج، ونزلت خلال ١٥ يومًا لجلسة أمام قاضي يدعي الصدفي فأمر بإستمرار الحبس، وبعد شهر حصلت على إفراج ثاني. وأثناء وجودي بمستشفى سجن طره وكان موعد جلسة الصدفي التي سيتم الاعتراض فيها على الإفراج قد تحدد، إقترح على محمد فتحى «السجين الجنائي» بأن أتناول وجبة «حلاوة طحينة بالشطة»قلت له: لماذا؟

فقال لي:

- هذه الوجبة ستجعل حرارتك مرتفعة جدًا في الصباح. وسيشخصها أي طبيب بأنها حالة حمى والحقيقة أن الارتفاع في درجة الحرارة يكون ظاهريًا فقط، فسيضطرون إلى عدم نزولك الجلسة. وتنزل بعدها بأسبوع يكون الصدفي اتغيرت دائرته.

تناولت الحلاوة الطحينية بالشطة في المساء (أعدها لي محمد فتحي) «رحمه الله»، وفعلاً في الصباح كانت درجة حرارتي ٤٠٫٥ م، وجاءت عربة الترحيلات ولم أذهب للجلسة لسوء الحالة كما قال أطباء المستشفى. لكن الخبر جاء في عصر اليوم. لقد أعطاني الصدفي إستمرار حبس رغم عدم مثولي أمامه وسماع أقوالي (قضاة آخر شياكة وجليطة) وفشلت خطة محمد فتحي ضد الصدفي.

لقد توفي محمد فتحي بفعل هذه الوصفات الطبية. فقد أعد لنفسه خليطًا من مواد غريبة كان يتفنن في تصنيعها داخل السجن، ووضعها في حلقه ليلتهب البلعوم. وفعلاً حينما ألتهب بلعومه نقل إلى مستشفى القصر

العيني، والتي كان يعد منها خطة للهروب (فقد كان محكومًا عليه بالسجن لمدة ٢٥ عامًا في تهمة قتل خطأ لم يرتكبها وإنما لفقت له) إلا أن جرعة المواد التي أعدها كانت زائدة. فأدت إلى إنسداد البلعوم مما نتج عنه حالة الوفاة (رحمك الله يا محمد يا فتحى أنت وصديقك سكلانة). لقد أنقذتما حياتي وكنتما خير صديقين لي من المساجين الجنائيين.

عدت إلى سجن الاستئناف مرة ثانية. وظل عالقًا بفكري قصة سمعتها تحت شجرة عريضة بسجن طره. شجرة عمرها أكثر من مائة عام. كنا نستظل بفروعها عند العصر في حوش السجن الواسع. حكي أحد الشاوشية من السجانة القدامي:

- هذه الشجرة التي تستظلون بظلها كل يوم، كان تحتها في يوم ما جثث لخمسة أو سبعة من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين بعد ضربهم بالرصاص داخل الزنزانة. لقد أتت الأوامر من أعلى بقتلهم ليلاً داخل الزنزانة في عهد عبد الناصر بالرصاص!!!! من العين ذات الجفن المعدنية بباب الزنزانة، وبالفعل تم حصدهم بالرصاص حتى قتلوا جميعًا. ثم أخرجناهم من الزنزانة ووضعناهم تحت هذه الشجرة.

لم يكن الرجل يكذب. وقال ذلك أثناء دردشة عادية في أحد العصاري. أثارت هذه القصة ومازالت تساؤلات عديدة فى ذهنى: لماذا تم إعدام سيد قطب؟ ولماذا تم إعدام عبد القادر عودة؟ إنها جرائم لن يغفرها التاريخ. إنها دموية بشعة لديكتاتورية عسكرية. كلما تذكرت قصة الشجرة. كلما تذكرت كلمات نجم:

«قطب اللي ابتلى. لما تلا. الذكر الحكيم.

شهدي اللي شال جبال ألم. ما انقسم عقله السليم».

لقد ذاق الشيوعيون والإخوان المسلمون وغيرهم مرارة هذه الديكتاتورية

العقيمة.

مع بداية صيف عام ١٩٧٧ تم تجميع جميع من لم يفرج عنهم في سجن واحد هو سجن أبي زعبل. أما الزميلات فكن دائمًا في سجن القناطر نساء.

تم ترحيلنا من سجن الاستئناف إلى سجن أبي زعبل وكنا حوالي أربعين فردًا مربوطين سويًا بسلسلة طويلة بها كلبش (كل ٢/١ متر) يوضع في اليد وتسمى هذه السلسة كما سمعت من زملاءنا القدامي (بالحجلة).

تجمعنا في سجن أبي زعبل تقريبًا في سبع زنازين كل زنزانة تضم عددًا يتروح بين (٢٠ – ٣٠ فرد) وكانت الزنازين واسعة وبها حمامات داخلية، وكان السجن مريحًا للغاية.

كانت هناك حديقة واسعة غنية بالزهور، حرص منسقها وراويها والمشرف عليها من المساجين الجنائيين على أن يعطينا الزهور في كل زيارة لإهدائها للأهل والأصدقاء، وكنا نشكره طوال اليوم بالحديقة، وقد كان هناك العديد من الملاعب (كرة قدم – كرة سلة – كرة طائرة) ومناضد تنس طاولة والتي كنا نستخدمها طوال اليوم.كان السجن جميلاً. وقد هربنا إليه ونحن عائدون من أحد الجلسات مكتبة تضم ما لا يقل عن ٢٠٠ كتاب من كتب الماركسية اللنينية. وفي الصباح قمنا بمعرفة أحد المساجين الجنائيين بختم الكتب بختم السجن. حيث أنه عند تفتيش الزنازين كان أي كتاب لا يحمل ختم السجن يتم مصادرته. وبالفعل كانت فترة السجن بأبي زعبل فترة جيدة للقراءة والرياضة والعيشة الهنية في سجون الديكتاتورية.

قام الزميل طلعت رميح بتصنع أباجورة لكل زميل يستخدمها عند الليل في القراءة والكتابة، حيث كنا نطفًا النور الرئيسي للزنزانة في الحادية عشرة مساءً، ويضيء كل زميل أباجورته أو يطفئها حسب مزاجه.

في هذا الجو ألف نجم قصيدة «العنبرة» وألقاها ليلاً على المساجين الجنائيين

ولاقت قبولاً رهيبًا عندهم، وكانوا يطلبون سماعها يوميًا.

وفي هذه الفترة أو قبلها تم اغتيال الشيخ الذهبي بمعرفة جماعة التكفير والهجرة، وتمت إعتقالات واسعة لفرق من التيار الإسلامي، وأصبح الشيوعيون والإسلاميون في سجن واحد بأعداد كبيرة لكل طرف.

كان الشيوعيون يحتلون الدور الأول للسجن، وكان الإسلاميون يحتلون الدور الثاني، وكان الدور الأرضي وبعض أجزاء من الدورين الأول والثاني لصالح الجنائيين، وكانت المشاهد كوميدية للغاية عند الصلاة وخاصة عند أذان المغرب أو العشاء بعد قفل الزنازين على الجميع.

فقد كان هناك أكثر من خمس أو ست فرق إسلامية، وكانت كل فرقة تكفر الأخرى وتعتبر أذانها باطلاً، لكل فرقة آذان. ولكل فرقة إمام. في يوم صرخ أحد الجنائيين من شباك زنزانته قائلاً:

- يا ولاد ال. فهموني أصلي وراء أي أذان. الصلاة كلها ٥ دقائق. والآذان نصف ساعة. أنتو طلعتم الدين منا. إسلام جديد ودين جديد. والله دي حاجة تكفر.

وفي يوم ما ذهب أحد سجناء التكفير والهجرة لضابط السجن وقاله له:

- أنني عدت إلى صوابي وأكتشفت أن الأفكار التي تتبناها جماعة التكفير والهجرة التي كنت أنتمي إليها ليست من صحيح الدين.

فقام الضباط بوضعه في زنزانة بمفرده بعيدًا عن زملائه الذين أنشق عنهم. وبعد يومين جاءه فرد ثان كرر عليه نفس ما قاله الأول. فقال الضابط خير وبركة. وأخذه ليضعه مع زميله الأول. وعند فتح باب الزنزانة هاج من بداخلها وطلب عدم دخول أي فرد لزنزانته، ولما أستفسر الضابط عن سبب رفضه قال له:

- لقد جاء ليقتلني فمن لائحة الجماعة أن من يدخلها ويرتد عن أفكارها

يتم قتله، وزميلي جاء يمثل عليك كي تضعه معي في زنزانة واحدة فيقتلني بتكليف من الجماعة.

وضع الضابط الشخص الثاني في زنزانة بمفرده بعيدة عن زميله الأول. بعد عدة أيام طلب الثاني عودته إلى زملائه لأنه كان يكذب على الضابط وجاء بالفعل لقتل زميله الذي ارتد عن الجماعة.

شاهدنا هذا أمام أعيننا وفسرناه تفسيراً سطحيًا. لم نكن ندري أن هناك تغييرات جذرية داخل الفرق الإسلامية، ولم نكن على دراية جيدة بالواقع الذي يتغير من حولنا. ذهلنا من أعدادهم ومن طريقة تفكيرهم. لكن النار كانت تسرح تحت الرماد وتميد الأرض من تحت أقدامنا دون أن ندري!!!

كان هناك سجناء من قضية تنظيم الفنية العسكرية (وهي محاولة جرت من بعض طلاب إسلاميين بالكلية الفنية العسكرية بالإستيلاء على السلاح من مخازن الكلية والتخطيط للإستيلاء على مجلس الشعب. وتم القبض عليهم عام ١٩٧٣). كنا نعرف تاريخ الإخوان المسلمين. لكن في هذا الوقت لم نكن نسمع عن تنظيمات الجماعة الإسلامية أو الجهاد أو غيرهما من الفرق الإسلامية.

كيف كان تنظيم التكفير والهجرة بقيادة «شكري مصطفى» ينضم إليه الآلاف في غضون سنوات قليلة ويصبح حجمه أكبر بكثير جدًا من جميع التنظيمات الماركسية مجتمعة؟!!!

هل هم كتلة واحدة ومتحالفة مع الدولة؟ أم أن التكفير والهجرة والفنية العسكرية هي نتوءات نشاز عن هذه الفرق الإسلامية؟. لم نكن نتخيل على الإطلاق وقتها أن الحركة الإسلامية سوف تفرز جماعات مسلحة تتصدى بل وتغتال رأس النظام في عقر داره وفي منصته العسكرية بعد أربع سنوات من هذا التاريخ (عام ١٩٧٧)!!!

أستمرت الحبسة في سجن أبي زعبل. حكي لنا الزملاء الذين قبض عليهم أثناء الانتفاضة في أيام ١٩ يناير وحضروا إلى سجن أبي زعبل (من بداية الحبسة) كيف كان الأمن يعتقل المواطنين في الشارع بعد يوم ١٩ يناير. كان يجهز بعض الميكروباصات في بعض الميادين ينادون على الركاب، الشرابية أو شبرا أو السيدة أو الزاوية الحمراء. الخ. وحينما يكتمل الميكروباص يقوده السائق إلى السجن.

جاء هنا إلى سجن أبي زعبل أكثر من عشرين معتقل. وقف أحدهم يصرخ وهو حاملاً كيسًا من البرتقال وآخر من الخيار. أنا كنت رايح الزاوية الحمراء إيه اللي جايبني هنا في السجن. وغيره، وغيره من نفس القصص والحواديت. دولة إجرامية. تحتقر المواطن إلى أقصى درجة. وتهدر آدميته.

وكانوا يجعلون المعتقلين من المواطنين يقفون داخل السجن صفًا واحدًا، وتصدر الأوامر بأن يقوم كل منهم بضرب زميله الذي يقف أمامه على قفاه. (إهانة وإذلال وتفريق للصفوف).

كان كل من يرفض تنفيذ الأوامر يسحل في فناء السجن!!! (البني آدم دايمًا رخيص في ظل الديكتاتورية).

ومرت الحبسة أيام وراء أيام. وذات يوم فوجئنا جميعًا (في المساء عقب إغلاق الزنازين علينا) بدخول كميات ضخمة من غاز النشادر ذات اللون الأبيض الكثيف من أبواب وشبابيك الزنازين. غازات ذات رائحة نفاذة أثارت الذعر بين جميع الزملاء، وأصبحنا كالفيران في المصيدة. نسعل بشدة، البعض دخل إلى الحمامات وفتح صنابير المياه والدش، الكل أحس أن الموت قادم وتصرف بالغزيزة. لا ندري ماذا يحدث هل جن جنون الدولة وقررت إعدامنا داخل الزنازين بالغازات؟!!. هل هناك كارثة بالمنطقة؟!! ماذا يحدث؟ لا أحد يفهم شيئًا!!!

فجأة جاءنا صوت عالي من أحد المساجين الجنائيين القدامي:

- أسمع كل الناس. الموضوع ده بيحدث دايمًا مرة كل سنة. جنب السجن مصنع كيماويات أبو زعبل. والمصنع ده بيخزن في خزان كبير الغازات الناتجة عن الصناعة. ولما الخزان يتملي. بيفرغه بهذا الشكل الهمجي. كل واحد فيكم يبل الفوطة بتاعته بالماء. ويعصرها جيدًا ويضعها على فمه. بالشكل ده مش هتحس بريحة النشادر. هتدوب في المياه داخل الفوطة.

سمع بعضنا هذا النداء وأخذ يكرره على جميع الزنازين، وبالفعل انتقلنا من حالة الإرتباك إلى حالة الهدوء. ووضع كل منا فوطة على فمه بعد بلها بالماء وعصرها. وأنتظرنا هكذا لمدة ساعة حتى خفت رائحة الغاز وأصبح الجو طبيعيًا. وبعد ذلك تاه الموضوع بين الضحك والمناقشات.

هل يعقل ذلك؟. وهل لا توجد وسيلة لتفريغ الغاز بالخزان إلا هذه الوسيلة الهمجية؟ لماذا لا يتم تصريف الغاز وإذابته في أحواض من المياه داخل المصنع؟!!

في أول يونيو صدر قرار الاتهام، وتسلم كل منا نسخة منه، وتم الإفراج عن كل من لم يرد إسمه في قرار الاتهام (وكانوا قلة). ضم قرار الاتهام ١٧٦ زميلا ثم تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات:

- مجموعة حزب العمال الشيوعي.
- مجموعة الحزب الشيوعي المصري.
- المحرضون على الأحداث.

كنت المهتم الخامس أو السادس، وكان المتهم الأول هو الشاعر المناضل عزت عامر. وبالطبع أضيف إلى قرار الإتهام كل من تصدوا من طلاب الجامعات للقانون رقم ٢ لسنة ١٩٧٧ وتظاهرواعقب إفتتاح الجامعات في شهر فبراير ١٩٧٧ لكسر هذا القانون الغاشم. وكان على رأسهم الزملاء

الأعزاء:(إيمان عطية عويس «كلية العلوم» – ماهر «سانتو» كلية العلوم- حمدي عبد الفتاح «كلية التجارة» – محمود مرتضى «كلية التجارة» – ناجي رزق «هندسة» – أبو المعاطي السندوبي «إقتصاد وعلوم سياسية» وغيرهم كثيرون). ويعذرني البعض إن كانت سقطت أسماؤهم.

لقد تصدى هؤلاء الشباب للقانون الظالم بجسارة متناهية وتظاهروا عند افتتاح الجامعة، وتم التنكيل بهم والقبض عليهم ورشهم بمادة الإسبراي وهي مادة حارقة للوجه وتشوهه، فهي غازات مسيلة للدموع تعبأ في إسطوانات مثل علب البيرسول، ويتم رش المطلوب القبض عليه في الوجه فتؤدي إلى حالة إحتقان شديد في الأنف، ونزول الدموع بغزارة، وتصيب الفرد بحالة من الغثيان والإرتباك فتسهل عملية القبض عليه، وحينما قدم إلينا الزملاء في سجن طره عقب القبض عليهم كان الأسبراي يحرق وجوههم وتظهر بقع حمراء داكنة على الوجه، ولقلة خبرتنا في التعامل مع هذا الموقف تركنا الزملاء يغسلون الوجه بالماء والصابون وذلك يزيد إلتهاب الوجه أكثر. والخبرة التي خلصنا إليها هي ترك الوجه دون أي غسيل بالماء لمدة ثلاثة أيام متتالية. بعدها تزول البقع الحمراء ويعود الوجه لحالته الطبيعية.

أيضًا واجه نفس المصير الزملاء شباب حزب العمال الشيوعي الذين قاموا بحملة لتوزيع المنشورات عقب الإنتفاضة، وقبض عليهم وتم التنكيل بهم. أذكر منهم ناجي بولس، شوقية الكردى، فاتن، لبيبة وغيرهم.

بعد صدور قرار الإتهام أخذنا ننزل جلسات أمام القضاة كانت تسمى جلسات سماع أقوال.

وعلى بدايات شهر سبتمبر بدأ الصدفي (بتوجيهات من أعلى) يخفف يده على قرارات الإفراج. وبدأت مباحث أمن الدولة تخفف يدها ولا تعترض على قرارات الإفراج.بدأ عدد المعتقلين يقل رويدًا رويدًا.

حصلت على قرار إفراج في منتصف شهر سبتمبر بعد ثمانية شهور من القبض عليّ. وهناك زميلات يجب ذكرهم لم يفرج عنهم إلا بعد حوالي ١٢ شهرا، ولم يخرجوا إلا في نهاية العام منهم البطلة الصادقة مع النفس والتي ضحت في صمت إيمان عطية وأختي الرقيقة المناضلة شهرت العالم وبنت مصر الأصيلة شوقية الكردي وغيرهم وغيرهم.

في نهاية شهر ديسمبر كان قد تم الإفراج عن جميع المعتقلين. وبعدها بشهور تم إحالة الجميع إلى دائرة من دوائر محاكم أمن الدولة العليا برئاسة القاضي حكيم منير صليب (رحمه الله). والذي قال ونطق بكلمة حق هو وزملائه عضوي اليمين واليسار (لا أذكر أسماءهما) وقاموا بتبرئة الجميع فى حكم تاريخى رائع رفضه ديكتاتور مصرأنور السادات قبل إغتياله بشهر. وطلب إعادة المحاكمة من جديد!!!.

من محاكمات ١٨، ١٩ يناير
إلى حادث المنصة ٦ أكتوبر ١٩٨١

خرجت من السجن، وعدت إلى الحي وزيارات الأصدقاء ولمة الصحبة والأحباب. سافرت إلى الإسكندرية أنا وزوجتي وهناك تقابلنا بالصدفة مع أحمد فؤاد نجم وعزة بلبع. قضينا أسبوعًا في المعمورة في شقة أحد أصدقاء نجم، وكان أسبوعًا جميلاً.

عدت بعدها إلى القاهرة، وذهبت إلى الجيش أنا وعماد صيام وخلال ٤٨ ساعة تسلم كل منا شهادة بالإستغناء عن خدماته العسكرية موقعة من اللواء/ الجمسي. تقريبًا سنة الجيش أمضيناها بالمعتقل وكعب داير بالسجون من طرة إلى القلعة إلى الإستئناف إلى طرة إلى الإستئناف إلي أبي زعبل.

وصلتني رسالة من أحد الأصدقاء تفيد بأن رفيق النضال/ أحمد بهاء الدين شعبان (الذي كان هاربًا طوال عام ١٩٧٧ ولم يعتقل والذي كان (تقريبًا المهتم السابع في القضية) يريد مقابلتي. في المساء تقابلت مع أحمد بهاء عند سينما فاتن حمامة وعرجنا نحو الكورنيش، وأخذت أحكي له عن فترة السجن، ويحكي لي عن فترة الهروب. ودامت المقابلة لمدة ساعتين أخبرني في نهايتها بأنه سيغادر القاهرة في طائرة الثامنة صباحًا من مطار القاهرة إلى

بغداد، وقد رتب نفسه على الهرب خارج البلاد، وأنه طلب من الأصدقاء والزملاء رؤيتي قبل أن يسافر. تعانقنا بالدموع. فنحن سويًا معًا منذ عام ١٩٧٠. سنفترق ولا يعلم أي منا متي اللقاء؟!! كانت وجهة نظري ألا يسافر بهاء وأن يسلم نفسه للنيابة ولن يمكث أكثر من شهر بالسجن لأن كل المتهمين بالقضية قد أفرج عنهم تقريبا.

رجعت إلى المنزل حزينًا على فراق أحمد بهاء شعبان الذي أوصاني بعدم الحديث مع أي شخص عن ميعاد الطائرة ولا وجهة سفره. وأن أظل كتومًا على خبر سفره من أجل تضليل أجهزة الأمن.

خلعت ملابسي وأرتديت بيجامة النوم، وبعد ساعتين في حوالي الساعة ١٢ مساءًا كانت هناك فرقة من مباحث أمن الدولة تطرق بابا الشقة بعنف. خلال ربع ساعة أخذوني بالبيجامة والشبشب. خلال دقائق كنت محاصرًا بأربعة من تيران المخبرين مفتولي العضلات وإثنين من ضباط أمن الدولة. تم اقتيادي إلى قسم شرطة الدقي. ولا أدري لماذا يذهبوا بي إلى مقر مباحث أمن الدولة فرع الجيزة (جابر بن حيان) أو إلى مقر مباحث القاهرة (لاظوغلي). لماذا قسم شرطة الدقي؟!!!

بدأوا بالسؤال:

- هل تعرف أحمد بهاء الدين؟
- نعم أعرفه.
- أين هو؟
- أنه يعمل صحفي بجريدة الأهرام ويكتب عمودا يوميا بعنوان «يوميات».

ردوا قائلين:

- إحنا بنتكلم عن أحمد بهاء صاحبك وزميلك في كلية الهندسة.
- ما أعرفش حد بالاسم ده. وكمان أنا أتخرجت من الكلية.

- انت بتستهبل. حجرة التعذيب جاهزة ولازم هتقول فين أحمد بهاء.

ضرب وركل وتهديد وأنا لا أنطق. توقفوا. وأشاروا مرة ثانية إلى غرفة التعذيب اللي جاهزة فقلت لهم:

- متتعبوش أنفسكم. ياللا ننزل على غرفة التعذيب. ما أعرفش غير أحمد بهاء بتاع الأهرام. بأقرأ عموده كل يوم.

أعادوا التهديد مرة ثانية. وثالثة. وفي كل مرة كان يزداد تصميمي. توصيات بهاء. وميعاد الطائرة. كنت أقول لنفسي أنا لوتكلمت هيقبضوا على بهاء من المطار. أصمد يا بو كمال حتى ولو لحد الساعة ٨ صباحًا. يا ولاد ال. وإيه حكاية قسم الدقي دي؟!!!.

بعد محاولات عديدة عرفوا أنهم لن يأخذوا مني أي إعتراف. جلسوا صامتين قلت لهم:

- مش هننزل غرفة التعذيب.

قال أحدهم:

- إمشي غور روح على بيتك. بس احنا هنربيك.

إتجهت إلى خارج القسم وأنا غير مصدق نفس. كنت فرحًا بالإنتصار عليهم. وجدت أخي عبد المنعم خليل خارج القسم. أطمأن عليّ. رجعنا إلى المنزل. نمت وكانت الأسئلة تطاردني. هل كانوا يعرفون موعد لقائي مع بهاء؟ هل كنا مراقبين؟ طب ليه ما قبضوش على بهاء؟ فيه حاجة مش واضحة. لكن المهم أننى حافظت على سر زميلى.

ظهرا ذهبت لحزب التجمع أستطلع الأخبار.عرفت أنه فى الفجر تمت حملة إعتقالات. وأن من ضمن المعتقلين نادر عنانى ونبيل عتريس وعلى زهران ومحمد الليثى وأحمد نجم وغيرهم،وأن الضربة شملت أكثر من ٢٠ معتقل، وأن حميع المعتقليين بسجن الإستئناف. ذهبت إلى درب سعادة

ومن شباك غرفة أم حسن أخبرنى صديقى العزيز نادر أنهم قد نزلوا إلى النيابة العسكرية(قضاء عسكرى) وأن أحمد بهاء شعبان مطلوب.

هكذا أتضحت الصورة وأنفك لغز بهاء. فهو كان مطلوبا وكانوا يعتقدون أننى أعرف مكانه وكانوا يريدون منى أن أعترف على مكانه.

واتضح أن النظام لم يعد يكتفى بمحاكمة الشيوعيين أمام محكمة أمن الدولة فقط ، بل استعان أيضا بالمحاكمات العسكرية. وفى هذه القضية العسكرية تم الحكم على المناضلان على زهران ومحمد الليثى ٥سنوات لكل منهما وأمضيا الحكم بالتمام والكمال (إنها أحكام العسكرالظالمة والغاشمة. وصلابة الثوار الذين ضحوا فى صمت وشموخ). كم أحبك زهران. كم أحبك ياليثى.وكم أنتما عظيمان.

كل شهرين أو ثلاثة كان الشيوعيون يتعرضون لضربة أمنية تحت مسميات تنظيمية مختلفة كما تعرض البعض منهم لأكثر من ضربة أمنية متتالية وتنكيل خاص أمثال عبده كراوية أبن السويس والشيوعى الأصيل وأمثال محمد عوض خميس التروتسكى العنيد أبن الإسكندرية الذى أحترمه وأكن له معزة خاصة.والمهندس ماجد الصاوى الذى أمضى ثلاثة أعوام متصلة بالسجون بحكم محكمة أمن دولة(محكمة إستثنائية) أمضاها بصلابة وكبرياء.كذلك المناضل الطبيب محمد فتحى والذى أمضى سنة كاملة بالسجن بحكم محكمة عسكرية غاشمة(فينك يامحمد يابطل؟).كذلك أبو النجوم ظل مطاردا لمدة عامين من أمن الولة ثم أمضى سنة كاملة بالسجن فى حكم محكمة عسكرية ظالمة بسبب قصيدة شعر(هنا شقلبان) وغيرهم كثيرون.

طوال سنوات السبعينات(٧٢-٨١) كان الشيوعيون دائما تحت مقصلة محاكم أمن الدولة والمحاكم العسكرية والحبس الإحتياطى وهروات الأمن المركزى بينما كان الإسلاميون فى شهر العسل مع النظام الحاكم. لقد وصل

الأمر بالنبوي إسماعيل وزير الداخلية في هذه الفترة بالتصريح العلنى:

«سوف أطارد الشيوعيين في كل مكان، حتى لو أضطريت لمطاردتهم في الشوارع بالرصاص والرشاشات».

العمل السرى فى منظمة ٨ يناير

بعد مرور حوالي شهر من الإفراج في قضية١٨، ١٩ يناير وجدت نفسي مضطرًا (تحت ضغط ظروف عائلية خاصة) لمغادرة الحي والإنتقال للسكن في منطقة كفر طهرمس. أخذت شقة صغيرة وسط الزراعات كان إيجارها الشهري ثمانية جنيهات، وكان بالمنزل كهرباء ولا توجد به مياه، لكن في مدخل المنزل توجد طلمبة مياة جوفية، كنا نأخذ منها المياه ونخزنها في باستيلات من المعدن بأسفلها حنفية مياه، وظللت في هذا السكن لمدة عامين، كان معظم الوقت في هذين العامين لصالح العمل السري وبناء منظمة ٨ يناير.

وبشكل عام الفترة من ٧٧ – ١٩٨٣ انقطعت عن ممارسة أي عمل جماهيري بشكل علني، أمضيت كل هذه السنوات في الاجتماعات السرية وبناء المواقع التنظيمية وماكينات الطباعة السرية، تحولت من إنسان (يمارس العمل العلني في الجامعة أمام مجلات الحائط وحلقات النقاش وقيادة المظاهرات والنزول للإحتكاك بالإضرابات العمالية ومسئول العمل الجماهيري بنادي الفكر الاشتراكي التقدمي) إلى إنسان وكادر من نوع آخر.

كادر سري أمضى ساعات من العمل (٨ - ٣ عصرً) بمهنة الهندسة للحصول على مرتب يكفي للقمة الحياة الضرورية. وبعد الثالثة عصرًا الوقت كل الوقت للعمل السري. كان يظن الكثيرون أنني كادر محترف ولا أمتهن أي مهنة غير السياسة. وكنت في هذه الفترة مهندسًا فاشلاً، وكنت أعمل تأدية

واجب من أجل لقمة عيش بسيطة، كان كل اهتمامي بالسياسة والعمل السري.

ذهبت مع طلعت رميح إلى صاحب المطبعة التي كنا نطبع عندها جميع أوراق نادي الفكر الاشتراكي. أخذ يحكي:

- لقد طبعت ١٢ ألف منشور التي طلبها مني طلعت. أخذ ٣ آلاف ولم يأتي ثانية. ظللت لمدة يومين أحتفظ بـ ٩ آلاف منشور. حينما قرأت في الجرائد خبر القبض على طلعت. قررت حرق الـ ٩ آلاف منشور.

كنت خائفا جدًا أنا وخطيبتي أحسن طلعت يعترف على مكان المطبعة. بس مرت شهور وشهور وعرفت أنكم ناس جدعان. الحمد لله على سلامتك يا أستاذ طلعت.

كنا نهدف إلى شراء ماكينة (رينيو) للطباعة من الرجل. دار الكلام يمينًا ويسارًا وأنصرفت وتركت طلعت مع الرجل لإتمام صفقة البيع. جلست في المقهى أسفل المنزل الذى توجد به المطبعة. بعد نصف ساعة نزل طلعت حاملاً على كتفه الماكينة الرينيو في شنطة كبيرة. تم شراء الماكينة بمبلغ ٢٠٠ جنيه. سار طلعت أمامي وسرت خلفه بأمتار أتابع أي رقابة خلفه. عرجنا على أول شارع فيصل. ومنه إلى طريق زراعي (وقتها) كان يصل إلى كفر طهرمس.كنا أثناء الطريق نتبادل حمل الشنطة.واحد يحملها والثاني يراقب من خلفه. وصلنا إلى الشقة بكفر طهرمس. وضعنا الرينيو بالمطبخ وجلسنا نتأملها بفرح شديد. سيصبح لدينا ماكينة طباعة منشورات تحت أيدينا. بتنا في سعادة غامرة.

في الصباح ذهبنا سويًا واستأجرنا حجرة صغيرة تبعد عن المنزل بمسافة ٥٠٠ متر وتحيط بها الزراعات. وأخذنا جزءاً من عفش البيت المتواضع ولحاف للغرفة. ثم بعد ذلك قمنا بنقل ماكينة الرينيو إلى الحجرة الصغيرة.

أي إننا خلال أيام تمكنا من تأسيس مركز طباعة سري لدعم عملنا في الجامعة والأحياء. ومن هذا المكان تمكنا من تطوير عملنا بشكل جيد

١- فعملنا السري شهد نموًا ملحوظًا. فقد أسسنا لجنة قسم تضم تحتها العديد من الخلايا بالجامعة وكان اسمها الحركي (لجنة تل الزعتر). وبعد فترة تمكنا من تأسيس لجنة قسم أخرى للعمل بالأحياء الشعبية تضم تحتها العديد من الخلايا بالأحياء وكان أسمها الحركي (لجنة الجبل). وبعد فترة تمكنا من تأسيس لجنة قسم ثالثة تضم أعضاء في هيئات التدريس لا أتذكر اسمها الحركي. ومن الثلاث لجان تكونت لجنة منطقة حزبية لقيادة الأقسام الثلاثة كان أسمها الحركي (القدس).

٢- خضنا حملة قوية لتوزيع المنشورات بمناطق عديدة وخاصة بعد أن أعلن السادات بشكل مفاجئ في خطبة له أمام مجلس الشعب أنه مستعد لزيارة القدس والصلح المنفرد مع إسرائيل.

بدأنا أول منشور بالجامعة. ووزعنا منه ثلاثة آلاف نسخة،وشكلنا شبكة توزيع أولية وكانت الشبكة تتسلم المنشورات عن طريق مدقات زراعية محصورة بين منطقة كفر طهرمس وأبي قتاتة وزنين وصفط اللبن، وكانت كل هذه المناطق مناطق زراعية في ذلك الوقت.

وأخذت المنشورات والشبكة تنمو في شكل تصاعدي لدرجة إننا كنا قادرين على توزيع ١٢ ألف منشور خلال ٤٨ ساعة في الجامعات والأحياء التي كنا نعمل بها، وكان هناك زميلان مع طلعت ساهران بشكل دائم على طباعة المنشور، وكان في الغالب يتم توقيع هذه المنشورات باسم «اللجان الوطنية الديمقراطية».

٣- هذا وقد ساعد في نمو عملنا بالأحياء الشعبية فكرة «اللجان الوطنية» التي التف حولها العديد من المتعاطفين والأصدقاء والذين كانوا بعد توزيع

منشور والثاني يتحولون إلى أعضاء في منظمة ٨ يناير، وكانت هذه اللجان هي لجان «نصف سرية نصف علنية». اتفاقاتها سرية ولكن عملها علني. تمكنت من توزيع العديد من المنشورات في بعض الأحياء والميادين المحيطة بها، وتمكنت من العمل داخل بعض مراكز الشباب، والإشتراك في المعارك البرلمانية في عام ١٩٧٩، وتمكنت من خوض معارك جماهيرية هامة في بعض المناطق مثل تنظيم مظاهرات بغطيان الحلل في قلعة الكبش إحتجاجًا على عدم وصول مياه الشرب للأدوار العلوية بالمنازل.

كانت هناك لجان أخرى تعمل بنفس الطريقة وهي (لجان يناير الشعبية) تقريبًا كانت من فعل الزملاء في منظمة (الحزب الشيوعي – المؤتمر).

٤- حاولنا بشكل جاد النفاذ إلى المواقع العمالية. فقد نجح بعض الزملاء في التعيين (بعد التخرج من الجامعة) في مصانع عديدة سواء بمنطقة حلوان أو بشبرا الخيمة أو بنها واستطاعوا أيضًا خلق مرتكزات عمالية هامة كان أبرزها تجارب عديدة في مصانع (حديد حلوان، والنقل الخفيف، والنصر للسيارات، ومصنع بنها الحربي والقاهرة للمنسوجات الحريرية «إسكو»، ناروبين وبورتلاتد حلوان. وتحول بالفعل (داخل منظمة ٨ يناير) عدد من الكوادر العظيمة والشريفة من الطلاب خريجي الجامعات إلى قيادات موقعية داخل بعض المصانع يرتبطون بالعمال ويحظون بثقتهم.

هذه الكوادر فضلت أجورا متواضعة في هذه الشركات (من أجل الإرتباط بالعمال)على العمل بشركات استثمارية وإنفتاحية تعطي أضعاف أضعاف أجور القطاع العام.

هؤلاء المناضلين لهم معزة خاصة في القلوب (محمود مرتضى – شاكر عرفة – حمدي عبد الفتاح – أحمد الصياد – نجوى فكري – فاتن عبد المنعم – عادل مشد وغيرهم) وكان مؤسس كثير من المواقع العمالية في منظمة ٨

يناير هو الرفيق الراحل أحمد شرف الدين، فقد ضحى بكل ما يملك من أجل قضايا الطبقة العاملة المصرية.

لكن ظلت «لجان الوطنية» و«لجان يناير الشعبية» تعملان بشكل منفصل يهمين على أحدهما منظمة ٨ يناير، ويهمين على الأخرى منظمة المؤتمر!!!!

٥- عقب توقيع السادات وكارتر وبيجين إتفاقية كامب ديفيد، وعند عودة السادات للقاهرة قامت منظمة ٨ يناير بتوزيع منشور بأكثر من ٢٠ ألف نسخة في جميع محافظات الجمهورية التي كانت بها المنظمة. (الإسكندرية – القاهرة - خط الصعيد)، وتعرضت المنظمة لضربة واسعة شملت أكثر من ٥٠ عضوًا من كوادرها.

وقد وقع الجهاز الفني للمنظمة في يد أجهزة مباحث أمن الدولة، ومن تحقيقات النيابة مع الزملاء المقبوض عليهم يتضح أنه كان هناك اختراقين للمنظمة من قبل أجهزة الأمن:

أولهما: إختراق من شركة أيديال بشبرا الخيمة كان يدعي حركيًا (فريد) وكان أسمه الحقيقي (السيد هلال).

ثانيهما: إختراق بشركة سجاد دمنهور كان يدعي حركيًا (شهدي) وكان اسمه الحقيقي (محمد مغازي).

وظل الزملاء بالسجن لمدة ٥ شهور تقريبًا وأفرج عنهم ولم يصدر قرار اتهام في هذه القضية.

٦- في أوائل الثمانينات نقلت سكنى إلى مدينة بنها في عزبة السوق حيث كانت زوجتي تعمل في مصنع بنها الحربي، وكان الهدف تعزيز موقع المنظمة في المصنع، وبناء خلايا تنظيمية بالقرى المحيطة بالمصنع، وبالفعل أستطاعت المنظمة تشكيل لجنة قسم بالمصنع، ولجنة قسم أخرى بمنطقة قرى كفر شكر ومن خلالهما توجهنا للعمل في بعض القرى بالوجه البحري.

كانت منظمة ٨ يناير صغيرة الحجم، وكان إنتشارها الجماهيرى أكبر من حجمها التنظيمي وذلك لأنها ضمت عدد من الكوادر الجماهيرية المؤثرة، ظلت المنظمة في قمة نشاطها يتراوح عددها بين ١٠٠ - ١٥٠ عضوا، وكانت تصدر نشرة شهرية بعنوان «اتحاد الشعب» كنا نطلق عليها اسم النشرة الجماهيرية، ونشرة أخرى سرية بعنوان «الصراع» وهي نشرة داخلية تصدر كل ٣ شهور أو حسب التساهيل.

من وجهة نظري مرت هذه المنظمة في تاريخها بأربع مراحل مختلفة:

المرحلة الأولي ١٩٦٥- ١٩٧٣:

وهي مرحلة الإستمرار حيث استمرت «مجموعة الإستمرار» وهم: الرفيق (محمد رجائي طنطاوي)، الرفيق (عدلي جرجس)، الرفيق (منصور زكي) في الحفاظ على المجموعة التي رفضت حل الحزب في مارس ١٩٦٥، وأعلنت الإستمرار في العمل الحزبي السري، واستمرت هذه المجموعة في تطوير أفكار المنظمة وانتجت ثلاث ورقات أساسية هي:

١- طبيعة السلطة الناصرية (وكان توصيفها لها بالبيروقراطية البرجوازية وللنظام الناصري برأسمالية الدولة. وتمايز ثلاثة أجنحة داخل هذه الطبقة: (اليسار البيروقراطي - الوسط البيروقراطي - اليمين البيروقراطي) ولمست هذه الوثيقة التزاوج بين البرجوازية البيروقراطية والبرجوازية التقليدية خلال مراحل مختلفة من ١٩٥٢ - ١٩٧١.

٢- وثيقة التكتيك (وكان مضمونها التجهيز والتحضير للهّبة الشعبية التي تلغي سياسات المساومة والاستسلام أمام العدو الامريكي الصهيوني، وتفرض حرب التحرير الشعبية كمنهج لتحرير الأراضي المحتلة، وتنتزع الحريات الديمقراطية التي تؤسس لجمهورية برلمانية تلغي الشكل الديكتاتوري الرئاسي لنظام الحكم، وتتمكن الهّبة من تحسين الأحوال المعيشية للجماهير

الكادحة.

٣- اللائحة الداخلية للمنظمة (وكانت نفس اللائحة حرفيًا التي اتحدت عليها جميع المنظمات الماركسية في ٨ يناير ١٩٥٨).

بالطبع كانت الظروف شاقة وقاسية للغاية في ظل شمس الناصرية الساطعة، وتحمل الرفاق (رجائنطنطاوي، عدلي جرجس، منصور زكي) عبء هذه الفترة من ضربات وإعتقالات قاسية، وإذلال في الحصول على لقمة العيش في ظل جو خانق أرتمى فيه الكثير من قيادات الشيوعيين في أحضان النظام الناصري والتنظيم الطليعي والاتحاد الاشتراكي.

حقًا لقد دفع هؤلاء الرفاق والآباء ثمنًا غاليًا، ويمكن أن نقول بصدق وموضوعية أنهم نجحوا في هذه الفترة مع عدد ضيئل من الرفاق في أن يحافظوا على المنظمة ويصلوا بها إلى بر الأمان.

المرحلة الثانية ١٩٧٣-١٩٧٨:

في هذه المرحلة انتقلت منظمة ٨ يناير إلى مرحلة جوهرية شهدت فيها نموًا ملحوظًا في الجامعات ودخلتها العديد من العناصر الشابة، كما نمت روافد المنظمة في بعض المصانع الهامة وأوساط صفوف الطبقة العاملة، وأصبحت منظمة غير قاهرية وأصبحت تمد روافد تنظيمية هامة في الإسكندرية والصعيد والوجه البحري، وبفعل العناصر الشابة والدماء الجديدة التي أنضمت للمنظمة أخذت المنظمة تطور من وثائقها فشهدت إضافة عدد من الوثائق مثل:

* المسألة الزراعية في مصر: وتناولت تاريخ المسألة الفلاحية من عهد محمد علي حتى عام ١٩٧٠ (توجد نسخة وحيدة لهذه الدراسة مازلت أحتفظ بها).

* التحريفية هي الخطر الرئيسي داخل الحركة الشيوعية: وقد تعرضت هذه الوثيقة لأبرز المقولات التحريفية السوفيتية مثل: مقولة التطور اللا

رأسمالي، الانتقال السلمي للاشتراكية،المجموعة الإشتراكية فى السلطة.

* الأعداد المتتالية من جريدة اتحاد الشعب الشهرية (أكثر من مائة عدد).
* نشرات الصراع.
* كراسة مبسطة في التنظيم، ونظرية فائض القيمة. الخ.

وكانت هذه المرحلة هي أزهي المراحل التي مرت بها المنظمة حيث تفاعل فيها الكوادر الشابة مع كوادر مجموعة الإستمرار ونمت علاقات سياسية جميلة بين جيلين مختلفين.

المرحلة الثالثة ١٩٧٩-١٩٨٢:

وهي مرحلة بداية ظهور الأزمة داخل المنظمة. بدأت هذه المرحلة عقب ضربة الأجهزة الأمنية للمنظمة في سبتمبر ١٩٧٨، صحيح أنه تمت مواجهة الضربة بصلابة وتماسك المنظمة في المواجهة.إلا أن الأزمة بدأت تظهر ملامحها بعد اكتشاف إختراقين داخل المنظمة (اختراق شبرا، اختراق دمنهور)، حيث أن الأعضاء دائمًا وجميعهم (قيادة وقواعد) كنا نتباهي بأننا منظمة حديدية لا يمكن إختراقها وتتمتع بالإنضباط التنظيمي.

وبدأت مظاهر الأزمة حول الخلل التنظيمي، ومن المسئول عن هذه الإختراقات؟ وهل هناك اختراقات أخرى أم لأ؟ وضرورة المحاسبة؟

تطور هذا الخيط التنظيمي إلى أزمة أخرى. إنحراف عن الأفكار الماركسية. فقد نمت بين بعض الكوادر الشابة (وأنا كنت منهم) أفكار إستبدالية تقول:

«أن منظمة ٨ يناير هي منظمة إصلاحية تتبنى منهج النضال السلمي بين الجماهير، علينا أن نتحول من منظمة سليمة إلى منظمة مسلحة تناضل بالسلاح، علينا أن ننهج نهج حرب العصابات مثل تجارب كوبا وبوليفيا ونيكارجوا» وزاد الطين بلة أن هذه المجموعة تحركت بشكل تآمري، وأنشأت تكتلاً سريًا من وراء ظهر قيادة المنظمة يدعوا لبناء التنظيم المسلح (وأنا كنت

أحد هؤلاء الحمقى).في هذه المرحلة بالفعل كانت هناك انقسامات داخلية وصراعات علنية وغير علنية. ولأن منظمة ٨ يناير منذ نشأتها بعد حل الحزب في مارس ١٩٦٥ وحتى انفجارها عام ١٩٨٣ لم تعقد مؤتمرًا واحدًا لكوادرها. وظلت القيادة معينة وغير منتخبة طوال هذا التاريخ، فإن الصراعات حول الأزمة التي نشأت داخل المنظمة لم تجد متنفسا طبيعيا تدور فيه، وحينما تنعدم الديمقراطية الداخلية يكون الطريق سهلاً نحو الانفجار المدوي.

المرحلة الرابعة ١٩٨٣:

وهي مرحلة الإنفجار المدوي، والتي تمت بشكل مأساوي وبالإتهامات بالعمالة والخيانة، والتي لعبت فيها دورًا مزريًا لن أغفره لنفسي في أي لحظة، فقد وصمت إناس شرفاء تعلمت منهم الكثير بالمباحثية وكنت شخصًا أحمقً. بالطبع هناك أخطاء من آخرين، ولكني أذكر أخطائي وحماقاتي فقط ولا أملك الحديث عن غيري.

لكن بعيدًا عن شخصنة الأمور (وهذا لا يعني عدم مسئوليتى عن أخطائي) فإن عوامل الأزمة الفكرية والسياسية والتنظيمية والجماهيرية كانت عوامل موضوعية تصيب جميع المنظمات الماركسية وقتها، ولم يفلح أي تنظيم منها في المرور من الأزمة. تحللت معظم التنظيمات، وأختلف شكل التحلل أو الإنفجار حسب العوامل الداخلية لكل تنظيم على حدة.

محاكمات ١٨، ١٩ يناير

ظللنا طوال أعوام ٧٨، ٧٩، ٨٠ وحتى قبل اغتيال السادات بشهور نحاكم في قضية ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧، نحضر الجلسات في الصباح وندخل قفص الاتهام. وفي نهاية الجلسة نعود إلى منازلنا، وقد تكونت هيئة دفاع قوية من كل المحامين الشرفاء ذوي الخبرة العريقة في القضايا السياسية. كان المحامون يدافعون عن جميع المتهمين بلا أي مقابل مادي، وبالفعل تمكن الدفاع من تحويل القضية إلى محاكمة سياسية للنظام الحاكم والدفاع عن الانتفاضة الشعبية للجماهير المصرية

(بالفعل لو كانت هذه المحاكمة في عصر الفضائيات الذي نعيشه الآن لكانت فضيحة مدوية للنظام)

قدم الأساتذة/ عصمت سيف الدولة، نبيل الهلالي، عبد الله الزغبي، عادل أمين وغيرهم دفوعًا سياسية رائعة، وقد تميزت الدفوع السياسية والقانونية للأستاذ/ والمفكر/ عصمت سيف الدولة بالإبداع والتجديد، ولم تكن دفوعا تقليدية. فقد قام بالتسجيل الصوتي لشهادة العقيد/ فتحي قتة أحد ضباط أمن الدولة، وشاهد رئيسى بالقضية. وكان هذا القتة يصف انتفاضة ١٨، ١٩ يناير بانتفاضة الحرامية، ويكيل المديح لبطل الحرب والسلام محمد أنور السادات، ويلعن العملاء الذين يقولون إنها إنتفاضة شعبية. الخ

من هذا الهراء السلطوي قام الدكتور عصمت سيف الدولة (بالإستعانة

ببعض الخبراء في مونتاج الصوت) بعمل شريط صوتي بنفس صوت العقيد قتة مع ترتيب كلمات الشريط في المونتاج ليصبح الشريط الجديد المفبرك بصوت قتة مدافعًا عن الإنتفاضة الشعبية المجيدة، ولاعنًا لمن يقولون عنها إنتفاضة الحرامية، ومهاجمًا للزعيم محمد أنور السادات الذي كان يقول عنه أنه بطل الحرب والسلام.

كان هدف الدكتور عصمت من ذلك هو اعتبار أية تسجيلات صوتية قدمت بمعرفة مباحث امن الدولة (كدلائل على المتهمين) باطلة، ولا تعتبر دليلاً على صحة الإتهام. وشرح الدكتور عصمت الطرق الفتية التي اتبعها في مونتاج الصوت لقلب حقيقة الأقوال.

نفس الشيء فعله الدكتور عصمت سيف الدولة بخصوص الصور فقد قدم لقاضي المحكمة (المستشار حكيم منير صليب) صورة له شخصيًا كقاضي وهو يقود المظاهرات فى ١٨، ١٩ يناير وشرح للمحكمة فنيا كيف تم فبركة الصورة فوتوغرافيا. وكان هدفه من ذلك إعتبار الصور التي التقطت للمظاهرات يمكن فبركتها ووضع أشخاص بدل أشخاص آخرين في نفس المكان من الصورة.

وفي دفاعه السياسي، أحضر الدكتور عصمت سيف الدولة من كتب التاريخ وصفًا تفصيلاً لإنتفاضة شعبية مصرية جرت وقائعها في ظل حكم أحد الأسرات الفرعونية، حينما أستبد الظلم والطغيان من الفرعون وحاشيته والكهنة بالمصريين وأختتم المرافعة قائلاً:

«سيدي القاضي.

هذه هي طبيعة شعبنا حينما يستبد به الظلم والطغيان، إنه يثور ككل الشعوب. لقد قامت هذه الانتفاضة الشعبية العظيمة في ظل حكم أسرة من أسر الفراعنة. لم يكن هناك في ذلك الوقت حزب عمال شيوعي ولم يكن هناك حزب شيوعي مصري. ولا مجلة انتفاض. ولا مجلة انتصار. ولا محرضين

على الإنتفاضة.

كانت الإنتفاضة من صنع الشعب ذاته، وهذا ما فعله شعب مصر وجماهير مصر في يومي ١٨، ١٩ يناير ١٩٧٧».

قدم الدكتور عصمت سيف الدولة مرافعة سياسية وقانونية رائعة. أحسست أنه كتبها بدمه وبكل كيانه ووجدانه. كاد يبكي وتفر الدموع من عينيه في ختام المرافعة. إن من يريد أن يبحث فيسجد كنوزًا غالية داخل ملفات الأوراق في قضية ١٨، ١٩ يناير.

كيف فبرك جهاز مباحث أمن الدولة حكاية اللجنة المركزية لحزب العمال الشيوعي؟

كيف اخترق جهاز الأمن القومي الحزب الشيوعي عند نشأته وأمسك بالأرشيف والجهاز الفني للحزب؟

تفريغ لتسجيلات صوتية لإجتماعات حزبية. أقوال جميع المتهمين في تحقيقات النيابة.

من دراسة ملف القضية يمكن الإطلاع على كثير من الوثائق الحزبية للمنظمات الماركسية في ذلك الوقت. أوراق القضية ضخمة للغاية وتزيد عن ٢٠ ألف صفحة لكنها كنز لفترة تاريخية.

في إحدى الجلسات وعقب تصريح نشر لوزير الداخلية في الصحف بأنه سيطارد الشيوعيين بالرشاشات في الشوارع قدمت بيانًا إلى القاضي، لكن لم يمكني من قراءته، وقال بضمه إلى مضبطة الجلسة، وقام برفع الجلسة. بعد رفع القاضي للجلسة طلبت من جميع الحاضرين الاستماع لنص البيان الذي قدمته للقاضي. وكان البيان ردًا على ما نشر على لسان وزير الداخلية أذكر آخر سطوره:

«تستطيع يا وزير الداخلية أن تطارد الشيوعيين في الشوارع بالرشاشات

والرصاص لكن يجب أن تعلم أن دماءنا حينما تسيل فوق أسفلت الشوارع فإنها ستكتب فوق الأسفلت يسقط حكم الطغاة. تسقط الدكتاتورية. لا للصلح مع العدو الصهيوني. عاشت انتفاضة يناير الشعبية. عاش نضال الطبقة العاملة»

قرأت البيان من داخل قفص الاتهام. حاز إعجاب الجميع وصار ورقة من ملف القضية. قدمت أيضًا دفاعًا سياسيًا باسمي (كان في مذكرة حوالي ٢٠ صفحة فولسكاب عليها توقيعي) لكن القاضي رفض تلاوتها. وأستلمها وضمها لملف القضية. لم أحضر جلسات المحاكمة في الفترة من سبتمبر ١٩٧٨ – وحتى أول أبريل ١٩٧٩.

وهي الفترة التي وجهت فيها ضربة تنظيمية لمنظمة ٨ يناير (عقب توقيع أتفاقية كامب ديفيد) وهربت أثناء هذه الفترة. وعلى أوائل أبريل خرج جميع الزملاء. وتقريبًا في منتصف أبريل ظننت أن أمر القبض قد سقط وحضرت أحد جلسات ١٨، ١٩ يناير، وبعد انتهاء الجلسة فوجئت بأحد ضباط أمن الدولة يضع يده على كتفي محاولاً القبض عليّ من داخل محكمة الاستئناف القاهرة. قررت طالما سيتم القبض عليّ فيجب ألا يكون القبض رخيصًا. ووقفت أخطب في الجماهير من حولي داخل المحكمة:

«تريدون أن تقضبوا عليّ. بكرة الشعب المصري هيخرج زي الشعب الإيراني. بكرة الثورة الشعبية في مصر هتطيح بشاة مصر أنور السادات زي ما ثورة إيران أطاحت بشاه إيران. بكرة زي ما الشعب الإيراني حل جهاز المخابرات الإيراني السفاك بكرة هنحل جهاز أمن الدولة ونحاكم كل كلابه.»

تجمعت أناس كثيرة داخل المحكمة. وبعد أن كان الضابط يضع يده على كتفي أصبحت هناك مسافة كبيرة بيني وبينه. وتمكن الزملاء تيمور الملواني وطلعت رميح من تكتيف الضابط وشل حركته. وفي هذه اللحظات جريت

بسرعة البرق خارج المحكمة وقفزت في أتوبيس عام كان يمر بالصدفة من أمام المحكمة وهربت. كان المشهد سينمائيًا، ولم أكن أتخيل حدوثه!!!

بعد يومين نصحني الرفاق في قيادة ٨ يناير بأن أقوم في الصباح بتسليم نفسي لنيابة أمن الدولة في شارع زكي على ذمة قضية ٨ يناير، وأن حبسي لن يدوم أكثر من شهر حيث أن الجميع قد أفرج عنهم. كنت لا أرغب في تسليم نفسي لكني أمتثلت لرأى الأغلبية ولقرار المنظمة.

في الصباح ذهبت إلى مقر نيابة أمن الدولة وقمت بتسليم نفسى، وكان التحقيق في غاية الغرابة. بدأ المحقق بالأسئلة التقليدية، ثم وجه لي الاتهام بأنني عضو في منظمة سرية تسمى منظمة ٨ يناير وأن هذه المنظمة أتخذت من نادي الفكر الاشتراكي التقدمي بجامعة القاهرة منظمة جماهيرية لها ومنبرًا علنيا. قلت للمحقق (وكان وكيل النيابة الذي يحقق معي هو نفس وكيل النيابة الذي يجلس على منصة الإدعاء ممثلاً للنيابة في محاكمات قضية ١٨، ١٩ يناير):

- كيف توجه لي هذا الإتهام؟! وأنت في جلسات ١٨، ١٩ يناير كنت تحاكمني على أنني عضو لجنة مركزية في حزب العمال الشيوعي وأن حزب العمال أتخذ نادي الفكر الاشتراكي التقدمي منظمة جماهيرية له ومنبرًا علينا. ألا ترى أن ذلك ازدواجًا وعدم مصداقية من النيابة التي يفترض أنها درجة أولى من القضاء؟

جن جنون وكيل النيابة قائلاً:

- إن كان عاجبك.

فرددت عليه دون استحياء وبجاحة:

- على العموم إحنا عارفين أن مباحث أمن الدولة والنيابة في مصر شيء واحد.

أغتاظ بشدة. ورد عليّ بحدة:

- أنا مباحث يا عميل يا شيوعي.

رددت عليه بحدة أكثر:

- أنا لست عميلاً. أنا أشرف منك. ومش ها أقولك إن انت عميل. لا. رئيس جمهوريتك اللي أنت بتشتغل عنده وبتاخذ مرتبك منه أكبر عميل. وراح زار اسرائيل وعقد إتفاقية صلح مع الصهاينة في كامب ديفيد. يبقى مين فينا اللي عميل؟!!! اللي اتفق مع العدو وألا اللي بيعارض الصلح مع إسرائيل.

إنتهى التحقيق بمشادة حادة وأمر بحبسى لمدة شهر. مكثت في سجن طرة شهرًا كاملاً. وفي يوم نزلت من السجن جلسة محاكمة لقضية ١٨، ١٩ يناير، وكان وكيل النيابة الذي حبسني الشهر جالسًا في منصة الادعاء. وكنت بالقفص قريبًا منه ووجهي في وجهه، وكان يقول أن نادي الفكر الاشتراكي منظمة تابعة لحزب العمال الشيوعي. وكنت أبتسم ساخرًا. وفي النهاية الجلسة جاء ناحية القفص وقال لي:

- أوعى تكون زعلان. أنا أمرت النهاردة بالإفراج عنك من قضية ٨ يناير. هتروح السجن هتلاقي قرار إفراج.

وفعلاً رجعت إلى السجن ووجدت قرار إفراج. واستمر حضورنا لجلسات محاكمة ١٨، ١٩ يناير حتى قبل اغتيال السادات بشهور. وحقيقي كان وجه القاضي/ حكيم منير صليب صامتًا ولا يعبر عن شيء. قلنا في البداية أنه سيحكم علينا بالمؤبد. ولم يكن أحد من المحامين ولا المتهمين يتوقع مثل هذا الحكم الذي أصدره ذلك القاضي الشجاع والمحترم.لقد حكم ببراءة جميع المتهمين (عدا عدد قليل جدًا)، وكانت حيثيات الحكم في غاية القوة والوضوح.وكان الحكم صفعة قويةعلى وجه السادات.لذا فإنه قد وقع على الأوراق برفض الحكم وإعادة المحاكمة من جديد وحينما تم إغتياله في المنصة فإن القضية

ظلت معلقة لسنوات في ظل حكم مبارك الذي شكل هيئة محكمة جديدة والتي قامت بتأجيل القضية إلى أجل غير مسمى. ولا أدري إن كان هذا الأجل هو أجلنا أم أجل الحاكم الديكتاتور الجديد.

خبرات عفى عليها الزمن
وأصبحت في متحف التاريخ

في زمن الأنترنت والفيس بوك والإيميل والبرنتر وماكينات التصوير بالألوان تصبح الرينيو والفوطة الصفراء والحبر الزفر وورقة الأستنسل وعجينة البلوظة والشبروجراف وطرق الطباعة بالنشادر مخلفات من العصور الوسطى.

لم نعرف ماكينات التصوير، ولم تصبح وسيلة شائعة للطباعة إلا في منتصف الثمانيات، منذ السبعينات ونحن في طباعة المنشورات والنشرات نستخدم طرقًا وأساليب عاتية في القدم والبدائية وشاقة لأقصى درجة، وكانت هذه الطرق في الطباعة وإتقانها تمثل شريان الحياة الرئيسي لأي منظمة، لا يمكن أن تعيش جماعة سياسية بدون كلمة مطبوعة، وماكينات الطباعة الحديثة التي تطبع الصحف والمجلات الحكومية تسيطر عليها الدولة، وجميع المطابع العامة مراقبة رقابة صارمة من الأجهزة الأمنية، فكان ولا بد للثوريين من إبتداع وسائل بدائية في الطباعة تمكن من تسيير الأمور. كانت هناك رقابة صارمة على طباعة الكتب والنشرات ولم تكن هناك الإمكانيات المتاحة حاليًا مثل إصدار نشرة غير دورية ورقم إيداع. كانت هنا هيمنة للدولة على كل شيء. وكنا نسمى الأجهزة والأدوات التي يتم بها الطباعة بالجهاز الفني، وكان الجهاز الفني لدى أجهزة الدولة والنيابة والقضاء يعتبر جسم الجريمة

وأحد الأركان التي تثبت وجود تنظيم سري، وكان في كل منظمة مجموعة سرية جدًا من الأفراد، وعلى درجة عالية من الثقة والانضباط التنظيمي والمهارة اليدوية هي التي تتولى أمر الجهاز الفني، ولا يجب أن يتحدث أحد في أي اجتماع لا من قريب ولا من بعيد عن أية معلومات عن الجهاز الفني، فالجهاز الفني كان يمثل أحد الأعصاب الرئيسية داخل أية منظمة.

كانت أرقى أدوات الطباعة في الجهاز الفني هي الماكينة الرينيو التي تدور بالكهرباء، فالمنظمة السرية التي تمتلك هذه الوسيلة وتأمنها بشكل جيد بعيدًا عن أجهزة الأمن، تستطيع أن تتقدم في عملها بشكل حقيقي، لدرجة أن أحد القادة الشيوعيين القدامي له جملة شهيرة «أعطني مطبعة أعطيك حزبًا».

وهي بالطبع مقولة خاطئة ولا يمكن إختزال العملية الثورية لبناء حزب ثوري جماهيري في قضية المطبعة. حقا بدون المطبعة لا يمكن بناء الحزب، لكن المطبعة ليست كل شيء.

والماكينة الرينيو كي تعمل يلزمها آلة كاتبة، يكتب بواسطتها على ورقة من الإستنسل. وإن لم توجد آلة كاتبة فيمكن الكتابة بقلم جاف فرنساوي ذو السن المدبب الحاد، ويشترط أن يكون القلم خالي من الحبر، أي فاضي، ويجب أن يمتلك الكاتب مهارة وحساسية فائقة في الكتابة بهذا القلم على ورقة الإستنسل بحيث لا يضغط بشدة على الورقة فيجرحها ويمزقها، وأيضًا لا يضغط بحنية فلا تظهر الحروف أثناء الطباعة. وكان الشخص الماهر في الكتابة يجب أن يدرب زملاء آخرين على ذلك.

كانت ورقة الإستنسل هي محور الطباعة سواء بالماكينة الرينيو أو بالطرق الأكثر بدائية في حالة عدم توافر الماكينة.وكانت الفكرة الهندسية وراء ماكينة الرينيو ما يلي:

الجزء الأساسي من الماكينة عبارة عن أسطوانة معدنية أفقية، والإسطوانة مثقوبة بثقوب معينة على عدة رواسم من السطح الأسطواني، وحبر الطباعة يوضع من فتحة جانبية بتجويف الأسطوانة المعدنية، وورقة الإستنسل من أعلى بها ثقوب بشكل محدد يتم تركيبها في نتوءات بارزة من الإسطوانة. وتدور ورقة الإستنسل حول السطح الخارجي للأسطوانة، ويوجد فراغ ضيق بين الراسم السفلي للأسطوانة وقاعة الماكينة، يمر في هذا الفراغ عند إدارة الأسطوانة الورقة المراد طبعها ويجب أن يكون نوع الورق متشربًا من نوع خاص.

ينفذ الحبر من الثقوب بالإسطوانة فيتسرب في فراغات الحروف التي صنعها القلم أو الآلة الكاتبة، ويجب وضع الورقة الاستنسل بالمقلوب، حتى تطبع الحروف على الورق المتشرب بالمعدول.

ومعذرة إن كنت أطلت في الشرح والتفاصيل، إلا أن هذه التفاصيل كانت تقتضي من الكادر السياسي دراسة متأنية ومهارة فنية عالية حتى يتمكن من طباعة الأفكار وحتى يخترع طرقًا جديدة للطباعة في حالة عدم توافرها. ووصل الرفاق في الأربعينيات والسبعينيات من دراسة الماكينة الرينيو إلى ابتكار طريقة (اللوح الزجاجي والفوطة الصفراء وورقة الاستنسل والحبر الزفر) بدائية للطباعة، تم اقتباسها من ماكينة البينو. كنا نسمي هذه الطريقة بالطريقة الفيتنامي وكانت كما يلي:

١- نشد الفوطة الصفراء على سطح لوح زجاجي.

٢- نشبع الفوطة الصفراء بالحبر الزفر (كنا نشتريه بصعوبة وبحرص من بعض المكتبات).

٣- نكتب ورقة الإستنسل بالقلم الجاف الفاضي ذي السن المدبب.

٤- نضع ورقة الإستنسل بالمقلوب حتى ينفذ الحبر بين تجويف

الحروف.

٥- نضع الورقة المتشربة على سطح الإستنسل.

٦- نضغط على سطحها بإنتظام وحنية.

٧- نأخذ الورقة مطبوعة وهكذا ورقة وراء ورقة.

أعتقد أنه لا ينبغي أن استرسل في كيفية الطباعة بالنشادر، وكيفية الطباعة بالبالوظة، وكيفية الطباعة بالشبروجراف لأنها لن تضيف خبرة ما، فالزمن قد أنتقل خطوات واسعة إلى الأمام. ولن يعود. لكن ما أود أن أشير إليه هو مدى مشقة هذا النوع من الأعمال ومدى خطورته الأمنية، والتي كان يتعرض له العديد من المناضلين السريين، وكانوا يدفعون ثمنًا غاليًا من أجل طباعة الكلمة وينفقون أوقاتًا طويلة في سبيل الطباعة والإبتكار، وكان ذلك يبعدهم كثيرًا عن العمل وسط صفوف الجماهير لأن عملهم ذلك يشترط ألا يكونوا معروفين جماهيريًا.

لقد كان في كل منظمة تقريبًا مجموعة من هؤلاء المناضلين يعملون في صمت ومسئولية عن تطوير وسائل وأدوات الطباعة في التنظيم، يعملون في جلد ومشقة، لكنهم كانت تنتابهم السعادة الغامرة حينما يرون نتاج عملهم في نشرات بين أيادي الرفاق أو منشورًا في أيدي الجماهير. تحية لهؤلاء المقاتلين أينما كانوا فعلى أيديهم ومنها خرجت الكلمة إلى النور.

تطور وسائل وأدوات طباعة الكلمة قد يكون سهل المهمة كثيرًا. لكنه لم يلغها وخاصة في ظل الديكتاتورية العريقة في بلادنا.

ستظل هذه الديكتاتورية تحارب الكلمة بإستمرار. وسيظل الثوار عشاقا للكلمة ولحروف الكتابة. لقد تغيرت الوسائل والأساليب لكن الحرب مستمرة. لكن في زمن أصبحت السطور تكتب وتطير إلى القارات المختلفة في بضع دقائق.وفي زمن الكلمة المسموعة والصورة المرئية، زمن الفضائيات،

فإن الحرب سوف تكون شرسة ومتسعة النطاق. كيف تنافس بجريدة سرية أو علنية محدودة الإمكانيات صحفا تنفق عليها الملايين؟ كيف تنتشر دعاية ثورية وسط فضائيات عاتية وموجهة؟ لم تعد الأمور بلوظة وشبروجراف ورينيو. الأمور أتاحت إمكانيات أفضل لكن المعركة أصبحت أشرس.

السادات من زيارة القدس..
إلى منصة الإغتيال

كان السادات في سنوات حكمه الأخيرة يحلو له أن يعدد إنجازاته في كل عام فكان يقول:

«سنة ٧١ ثورة التصحيح، ٧٢ طرد الخبراء السوفييت، ٧٣ حرب أكتوبر، ٧٤ الانفتاح الاقتصادي، ٧٥ فتح قناة السويس، ٧٦ المنابر، ٧٧ زيارة القدس. المبادرة بتاعتى، ٧٨ توقيع اتفاقية كامب ديفيد، ٧٩ معاهدة السلام، ٨٠ عام الرخاء.».

لكل ديكتاتور نكهة خاصة.فهناك ديكتاتور بنكهة الزعيم. وهناك ديكتاتور بنكهة الممثل ومهرج السيرك. وهناك ديكتاتور بنكهة الملل والجليطة. عبد الناصر والسادات ومبارك كان لكل ديكتاتور منهم نكهة خاصة.

بدأ السادات أيام حكمه بالحديث عن الحريات وحرق التسجيلات وشرائط التجسس على المواطنين، وأنهى حكمه بأكبر حملة اعتقالات في ٥ سبتمبر ١٩٨١ شملت كل التيارات الفكرية والسياسية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار وشملت رجال الدين من الجانبين (مسلمين ومسيحيين) ونفي البابا شنودة إلى دير وادي النطرون. انتصر في هدوء في ١٥ مايو ١٩٧١ على خصومه الذين تقمصوا ما فعله عبد الناصر في ٩، ١٠ يونيو ١٩٦٧، فقد ظنوا أنهم

بسيل الإستقالات الجماعية سوف تخرج الجماهير من أجلهم. لكن أحد لم يخرج،

ظنوا أنهم بالإستقالات سوف يخلقون حالة من الفراغ في السلطة، متغافلين عن طبيعة النظام الرئاسي (الديكتاتوري) والذي يتيح لرئيس الجمهورية سلطات هائلة تمكنه من تعيين وزارة جديدة حتى لو استقالت الوزارة بأكملها، وتتيح له حل البرلمان، وتعيين قائد جديد أعلى للقوات المسلحة.

خلال أيام كنس السادات جميع مراكز القوى بالدولة، وأنشأ مراكز قوى جديدة تعمل لحسابه ولمصالحهم. لم يكن أحد يتوقع أن يخوض حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأيضًا لم يكن أحد يتوقع زيارته للقدس.

إنتعش الفساد في عهده، لكنه ترعرع وأستفحل في عهد مبارك. كان كوميديًا ومثيرًا للسخط والسخرية في جميع خطاباته وله جمل شهيرة في ذلك مثل:

الضباب الهندي الباكستاني، والإتحاد السوفيتي بعد وفاة عبد الناصر جاب الصينية وجه، واليسار المغامر يحرض واليمين الرجعي بيضحك في كمه، ووقف يا صادق، وإنتفاضة الحرامية، ومنع شراء اللحمة لمدة شهر، ويا بنتي يا همت، والشيخ المحلاوي أهو مرمي زي الكلب في السجن، وكرولس كان وطني، وفيليب السادس عشر، والمبادرة بتاعتي. إلخ.

لكن رغم ما كان يثيره في خطاباته من كوميديا وسخط وسخرية فإنه كان يخلق حالة حيوية ما وسط الجمهور سواء بالإختلاف أو بالإتفاق. على عكس خطابات مبارك المكررة والمملة والتي لا تقول شيئًا. فخطابه أشبه بلوح من الجليد. وهو خطاب وحيد ملت الجماهير من سماعه طوال ٢٧ عامًا. لا يتغير فيه شيئ سوى ترتيب الفقرات كل عام.

كانت الحركة الطلابية أعوام ٧٢، ١٩٧٣ مصدر إزعاج لنظام السادات، لكن إنتفاضة يناير ١٩٧٧ كانت بمثابة صفعة قوية على وجهه سببت له رعبًا

عظيمًا. وكانت بداية حقيقية لعزلته جماهيريًا، كما كانت زيارته للقدس وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد بداية لعزلة النظام على مستوى المنطقة العربية. أما نهاية السادات ذاته فجاءت على يد من صالحهم واستخدمهم (ضد الشيوعيين والناصريين) وتحالف معهم. فنموا في ظل عهده ثم إستداروا عليه وذبحوه بالرصاص دون أن تطلق ضدهم رصاصة واحدة.

لم يكن السادات عبقريًا ولا إنسانًا سابقا لعصره وزمانه حينما زار القدس ووقع اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة السلام، لكنه كان معبرًا حقيقيًا عن طبقة الرأسمالية التي سارت في فترات صعودها وتحرير سوقها في طريق معاداة الإستعمار والمساومة معه، والتي سارت في فترات هبوطها وإندماجها في السوق الرأسمالي العالمي في طريق المهادنة والخيانة. فالدولة الصهيونية هي قاعدة الإستعمار العالمي في المنطقة العربية، وكلب الحراسة لمنابع النفط. فكان الذهاب إلى القدس وتوقيع إتفاقية الإستسلام مع العدو الصهيوني هو طريق الرأسمالية المصرية نحو الإدارة الأمريكية والإندماج في السوق الرأسمالي العالمي. لقد كان السادات رائدًا في هذا الطريق. لكنه كان رائدًا لطبقات رأسمالية عربية خانت قضايا الجماهير واستعبدتها.

الصلح المنفرد أو الجماعي مع الكيان الصهيوني هو خيانة لمصالح الجماهير العربية، وهو إرتماء في أحضان الإمبريالية الأمريكية، وقد فعل السادات ذلك وسار في نهجه مبارك بحجة الرخاء القادم للشعوب. لكن هذا الرخاء لم يأت بعد، ولن يأتي.

رغم أن حرب أكتوبر ١٩٧٣ (بالنسبة للنظام المصري) كانت آخر الحروب. خمسة وثلاثون عامًا مرت من (١٩٧٣) إلى (٢٠٠٨) صارت فيها أحوال المعيشة بالنسبة للجماهير الشعبية من الأسوأ إلى الأسوأ. تراكمت فيها أنهار من المليارات في جيوب الرأسماليين، وتم دفع الملايين العريضة إلى خط الفقر وما

تحته، وأصبحت الجماهير التي وعدت في الماضي بالرخاء تقف أمام طوابير الخبز لا تجد ما يسد الرمق. وتلك هي محصلة سياسات الإنفتاح والكامب والخصخصة والمعونة الأمريكية والتبعية.

سياسة إعتصار الجماهير وحصول الرأسماليات المحلية على نصيبها من كعكعة السوق الرأسمالي العالمي نظير تقديم العمالة المصرية كعمالة بأرخص الأسعار.

لم يتم إغتيال السادات لأنه كان حاكمًا ديكتاتوريًا، أو لأنه وقع اتفاقيات صلح منفرد مع العدو الصهيوني، أو لأنه حاكم فاسد انتشر في عهده الفساد وتدهورت في عهده أحوال الجماهير العريضة. لقد تم اغتيال السادات «لأنه حاكم كافر. لم يحكم بما أنزل الله» رغم أنه كان يغازلهم بعبارات: «الرئيس المؤمن» و«دولة العلم والإيمان» و«بسم الله» في بداية كل خطبة و«ربنا سامحنا إن نسينا أو أخطأنا. وأعفوا عنا وأرحمنا. إنك أنت الوهاب» في نهاية كل خطبة، وأنا «رئيس مسلم لدولة إسلامية» أثناء أحداث الفتنة الطائفية بالزاوية الحمراء، ورغم إبتداعه لمجلس وهمي لمغازلتهم بحكم الشورى «مجلس الشورى»، ورغم تعديل الدستور ووضع مادة الشريعة الإسلامية هي المصدر الأساسي للتشريع.

وكانت رصاصات خالد الإسلامبولي ورفاقه التي انطلقت في المنصة في أكتوبر ١٩٨١ بداية لمرحلة جديدة وهي مرحلة «العنف المسلح» بين التيار الجهادي في الحركة الإسلامية وبين النظام الحاكم. بداية زمن الإرهاب: إرهاب الدولة وإرهاب الجماعة المسلحة. بداية لحملة قمع شاسعة وواسعة ضد التيار الإسلامي بجميع فصائله، وبداية لمحاولات اغتيال لمسئولين عديدين في النظام الحاكم، تمكن النظام فيها من فرض استمرار حالة الطوارئ على البلاد (لمدة أكثر من ٢٧ عامًا) وإنشاء واستحداث محاكم أمن دولة طوارئ، ومحاكم

عسكرية، وإعدامات وإعتقالات وتغريبات وتعذيب وتوسيع مناطق وإعداد السجون. مرحلة ضمت أكثر من ٢٥ ألف معتقل في السجون المصرية، وأصبح ماتم في العهد الناصري (بكل ما مورس فيه من قمع واعتقالات) ضئيلاً ضئيلاً بالنسبة لما تمت ممارسته في عهد مبارك، وإنتشرت مراعي الفساد، وقمعت كل التحركات الجماهيرية العمالية والفلاحية والطلابية. وسيطر مماليك وجراد نظام مبارك على كل شيء في البلاد، وتم إعتصار ثرواتها من قبل حفنة ضئيلة من رجال الأعمال والمسئولين.

كل ما حدث بعد اغتيال السادات هو تعميق سياسات التبعية والخضوع للإدارة الأمريكية وتعميق سياسات الإستسلام مع العدو الصهيوني وتعميق سياسات التجويع للجماهير. فالرصاصات التي أغتالت السادات لم تغتل معه هذه السياسات بل عمقتها وزادت من فعالياتها، وأثبتت أن طريق الإغتيال ليس طريقًا للتغيير، ولقد إستفادت الطبقة الحاكمة من حادث المنصة ورسخت أقدامها ووضعت العراقيل والمتاريس أمام نهوض الحركة الشعبية.

مشهد ختامي

في يوم ٦ أكتوبر (وفي وقت الظهيرة). ذهبت إلى أحد الزملاء في قرى محافظة القليوبية بمنطقة كفر شكر، ولما طرقت باب المنزل فتحت لي والدته الباب قائلة:

- اتفضل. إبني جمال يساعد أحد الجيران في ذبيحة عيد الأضحى المبارك. كل سنة وأنت طيب. إجلس إشرب الشاي فهو سيعود بعد ربع ساعة.

جلست في انتظار الزميل. وبعد فترة جاء جمال لابسًا جلبابًا أبيض وفي يده سكين حاد وملابسه غارقة بالدماء. وما أن دخل من باب المنزل حتي أخذ يصرخ بفرح شديد:

- السادات مات. خلاص خلصنا منه. بلّي شربات يا أمي.

وقفت مذهولاً قائلاً له:

- ماذا حدث؟!! أنت دبحته وألا أيه؟!!!

أخذ يشرح.

- إحنا كنا بنذبح في عجل واحد جارنا والعرض العسكري كان شغال. وفجأة سمعنا في التليفزيون صوت طلقات رصاص والمذيع بيقول: خونة. خونة. وبعدين إنقطع الإرسال. السادات مات. بلّي شربات يا أمي.

أخذت في تهدئة جمال قائلاً له:

- يمكن أصيب. مين اللي قالك أنه مات؟!!.

فرد قاطعًا في كلامه:

- لا. أكيد مات. بلّي شربات يا أمي.

جلسنا ثانية وقلت لجمال:

- سواء مات أو أصيب هتحدث حملة اعتقالات واسعة في البلد. خد بالك أنت وجميع الزملاء بالقرية.

وانصرفت من القرية، وعلى الطريق السريع ركبت عربة بيجو أجرة وقلت للسائق:

- ما تفتح الراديو. بيقولوا السادات انضرب بالرصاص في العرض العسكري.

فتح السائق الراديو وكانت الأغاني الوطنية والمارشات العسكرية في جميع المحطات. قال السائق:

- فعلاً. طالما الأمور كده يبقى كلامك صح.

سادت فترة من الصمت بيننا. قطعت الصمت قائلاً:

- لو الأغاني الوطنية والمارشات العسكرية انقلبت إلى قرآن كريم يبقى مات.

ساد الصمت ثانية لفترة خمس دقائق، والسائق يقلب في المحطات وفجأة بادرني بالقول:

- يا سلام أنا نفسي أسمع قرآن دلوقتي.

ضحكنا. نزلت من العربة وأخذت ميكروباص ثم أتوبيس. حتى وصلت إلى المنزل وملأت شنطة ملابسي بالهدوم. تركنا المنزل أنا وزوجتي وإبنتي أمل والتي كانت طفلة لا تتعدى العام والنصف. تركنا المنزل. وجلسنا في كازينو كبير بجوار كوبري الجامعة كان يدير مذياعًا داخليًا. واستمرت الأغاني الوطنية والمارشات العسكرية. في الخامسة مساءًا بدأ المذياع في إذاعة آيات من الذكر الحكيم.عرفنا أنه مات. بدأنا نبحث عن مكان للهرب فحملة

الإعتقالات قادمةلا محالة. وكان الإغتيال بداية لمرحلة جديدة. مرحلة يسير فيها الوطن ليكمل مسيرته نحو الخلف. لا إلى الأمام.

كمال خليل

٢٠٠٨/٦/٢٦

الفهرس

تمهيد... ٣
١- البداية سجن القناطر عام ١٩٧٣ .... ٥
٢- بالفول والعدس هنكمل المشوار.. ١٦
٣- هؤلاء تعلمنا منهم.. ٢٥
٤- تساؤلات معسكر الحوامدية ومقر المنظمة.................................. ٣٥
٥- مجلة من صنع ايدينا وأجمل الأمهات ٤٣
٦- فصول التقوية وندوة قهوة السرساوى
أحداث ١٥ مايو ١٩٧١ .... ٥٣
٧- ندوة قهوة السرساوى
ندوة الرعب والتحول ٥ مايو ١٩٧١ .... ٥٩
٨- أحداث ١٥ مايو ١٩٧١.. ٦٣
٩- الغريب بين أحداث ١٩٦٨ ورطب نجم وجيفارا ٦٨
١٠- المهزلة الأرضيه وجمهورية فرفوريا العظمى................................. ٧٦

١١- يناير ١٩٧٢ ورجعوا التلامذة يا عم حمزة للجد تانى........................ ٨٣
١٢- إعتصام كليه الهندسة جامعة القاهرة.. ٨٦
١٣- إعتصام جامعة القاهرة والكعكة الحجرية ٩٤
١٤- سجن القلعة والإستئناف ١٠٩
١٥- خريطة الحلقات والتنظيمات الماركسية بالجامعة ١١٨
١٦- شباب الإسلام وقدامى الطلبة
وتكتيك حرب العصابات ١٢٣
١٧- طرد الخبراء السوفيت وبعض التساؤلات....................................... ١٣١
١٨- إعتصام يناير ١٩٧٣
ومظاهرات الشوارع وإغلاق الجامعة....................................... ١٣٧
١٩- إضراب كلية الهندسة
ومظاهرة ١١ فبراير ١٩٧٣ بميدان الجيزة.................................. ١٤٩
٢٠- سجن القناطر ١١ فبراير - ٣ أكتوبر ١٩٧٣ .... ١٥٦
٢١- معرض يتم تهريبه من سجن القناطر إلى الحرم الجامعى............ ١٦٦
٢٢- الصدام والحريقة ١٧٧
٢٣- الترحيل إلى سجن القلعة.. ١٨٢

٢٤- رؤية سريعة عن حال المنظمات الماركسية بالجامعة.................... ١٩٣

٢٥- بدايات للنهوض من ١٩٧٥
وحتى إنتفاضة ١٨،١٩ يناير ١٩٧٧.. ٢٠٤

٢٦- دروس مستفادة من ضم الأحداث ٢٢٢

٢٧- ١٨،١٩ يناير وسجون كعب داير.. ٢٤١

٢٨- من محاكمات ١٨،١٩ يناير
إلى أحداث المنصة ٦ أكتوبر ١٩٨١.. ٢٨١

٢٩- العمل السري فى منظمة ٨ يناير ٢٨٦

٣٠- محاكمات ١٨،١٩ يناير... ٢٩٦

٣١- خبرات عفى عليها الزمن
وأصبحت فى متحف التاريخ.. ٣٠٣

٣٢- السادات من زيارة القدس غلى منصة الإغتيال............................. ٣٠٨

٣٣- مشهد ختامى ٣١٤